شَفِير

شفير
الكاتب: عماد زعيتر
إخراج داخلي: الباشا عبد الباسط
رقم الإيداع: 4824 / 2022
الترقيم الدولي: 0 - 311 - 844 - 977 - 978

دار الزيات للنشر والتوزيع shahnda71@gmail.com
مجلس الإدارة/ د. شاهندة الزيات 01066736765
المدير العام/ أ. محمود محروس 01011122429
المديرالتنفيذي/ أحلام محسن 01015766014

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار الزيات المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / 49351

9 789778 443110

شفير

رواية

المؤلف

عماد زعيتر

إذا اختلطت الأمتعة سقطت الأقنعة
فاحذر من عدوٍّ أتى متسترًا في ثوب صديق.

استقل الشيخ خالد سيارة أجرة من موقف سيارات عبود إلى مهد صباه مدينة «منوف» بالمنوفية؛ فاليوم السبت إجازة من عمله، إذ يعمل إمامًا وخطيبًا في مسجد الفاروق بحي المهندسين. حاز على ليسانس كلية الدعوة من واحة الأزهر، دارت الأيام في فلكها، سنة كاملة بعد زيارته الأخيرة لقريته.

قطرات المطر التي انحدرت على الزجاج من الخارج داعبت ذكريات صباه، إذ كانت أمه تحمله على كتفها وتمشي به إلى دار الشيخ فرج ليُتمَّ حفظ القرآن، كانت شوارع القرية تضج بماء المطر، فيتغيب الكثير من زملائه عن درس الشيخ؛ لكنَّ أمه ابتغت –حين حملته جنينًا– أن يكون من حملة كتاب الله، فسعت به لتحقيق حلمها. كانت عصا شيخه تنهال عليه لو أخطأ في آية واحدة، فأتم الحفظ في العاشرة من عمره، هذب القرآن أخلاقه ونمَّى لغته، حفَّزت العصا دوافعه وتعلَّم بعدما تألم، رأى فيه شيخه مَلَكة الحفظ قد استغلظت واستوت على سوقها، فخشي عليه أن يشغله مرحه مع الأطفال عن اجتهاده، صدقت فيه نبوءة شيخه، فأثمرت شجرة دأبه وآتت أُكلها كل حين. تفوق على رفاقه في كل مراحل التعليم فنال تكريمًا وحظي برفعة.

قلَّب كثيرًا في كتاب الذكريات ولم يتوقف إلا عندما طلب أحد الركاب منه الأجرة.

عاد بالمال المتبقي إلى جيبه وعاد بذكرياته إلى حكمة شيخه التي أسرجت جواد أحلامه:

«القرآن يرفع شأن صاحبه».

وقت الظهيرة تذهب أمه لتعود به منتشية، فهو صندوق الأحلام الذي تدخره للغد وترعاه، فتأتي به تحمله في قلبها من دار الشيخ، تُغمض عينيها عليه من رجفة المطر، وقدماها تخوضان في الطين ليرتفع شأنه، ولو التمسه والده مع شقيقه عبد الوهاب ليساعداه في الحقل؛ تناشده نزعاتها أن يدعه ليحفظ ورد اليوم، فيذهب شقيقه وحده متذمرًا. وما إن ينتهي من حفظه وتخط أنامله الآيات لتخلد في وجدانه؛ يهرع إلى كتب الشعر فيقرأ بنهم، ويستوقفه مع المتنبي سحر الكلمات، تذهب به أمانيه بعيدًا وتحمله سفينة أحلامه فوق بحور الشعر ليمتلك عروضه وقوافيه، فتأتيه البيعة بالإمارة، وتزخر مقررات الدراسة بأشعاره، ويذيع صيته ويصل إلى أبعد مدى اسمه، ومع هذا المدى من الذكريات وصل السائق إلى قريته «سدود».

❀ ✿ ❀

سمِعَت صوت المطر المنهمر بالخارج فأحكمت غلق نافذة المطبخ، وضعت ورقة غليظة على الجزء المكسور عمدًا من زجاج النافذة، ضمت كفيها ودَعَت أن يحفظ الله أولادها، ثم تذكرت الغسيل المنشور فهرولت لتأتي به، طرقت باب غرفة ابنتها هند لتتابع الطعام الذي ينضج على النار، فخرجت هند متثاقلة الخطى ووضعت ديوان الشِّعر من يدها على المنضدة، طوت فادية الغسيل سريعًا ووضعته على الأريكة وأغلقت الشرفة، وعقدت يديها على صدرها فقد اعترتها رجفة من الماء المنهمر، أغمضت عينيها حتى همدت رجفتها وقالت

- «بعض الغسيل سيحتاج إلى أن أنشره مرة أخرى، سأتركه إلى غد».

وزعت هند الطعام في الأطباق، قبَّل أحمد يدَ والدته فور عودته من الجامعة، وجلس بجوار أخته هند.

حملت فادية طبقًا وخبزًا وقالت:

- سأضع طعام عمي رشاد في غرفته وأعود سريعًا.

نظر أحمد بوجه عابس في الطبق وقال:

- عدس مرة أخرى! صار العدس يجري في عروقي، أتمنى أن يفسد كل محصول العدس، أو تقدم لنا الحكومة خدمة جليلة وتصدر قرارًا بعدم زراعته بعد اليوم.

بشيء من المرح قالت هند:

- العدس في الشتاء سيجلب لك الدفء، أهرِقْ عليه قطرات الليمون كما سأفعل ولا تُبالِ بعدها.

- وهل العدس وحده الذي يشعرنا بالدفء؟! وماذا عن حساء الدجاج؟ إنه يغمرني بدفئه، أخبري والدتكِ بذلك.

أغلقت فادية الباب وجلست بجوارهما:

- ما الأمر الذي يريد أحمد أن تخبريني به؟

حاولت هند جاهدةً أن تُخفي ابتسامتها وقالت:

- لا شيء غير أن الطعام لذيذ.

فقال أحمد:

- نعم، لذيذ جدًّا!

فقالت فادية:

- والله أود أن أُطعِمكما اللحم والسمك كل يوم؛ لكن معاشَ والدكما قليل وأعباء الحياة كثيرة. فعندما تتخرج من الجامعة وتعمل ستتغير الظروف إلى الأفضل، وربما يأتي عليك يوم تمل فيه مِمَّا تشتهيه الآن وترتدي من الملابس ما تتوق إليه نفسك.

امتعض وجهُه ورفع يده عن الطعام وتنهَّد تنهيدةً حارةً، وزجَّ بغضبه المكبوت بين ضلوعه مع زفيره ورفض رهان أمه على المستقبل:

- وهل سيأتي هذا اليوم؟

فقالت فادية:

- سيأتي، ولا تحمِل همَّ الغد يا ولدي. فرج الله قريب.

- قد احترقت بداخلنا الأماني، فلتمض بنا الأيام حيث شاءت.

جذبت هند خيط الكلام نحوها لتزيل مسحة الكآبة التي شابت الحوار وقالت:

- اسمحا لي بهذه المداخلة السريعة، يقول الشيخ محمد الشعراوي رحمه الله: «لا يقلق من كان له أب، فكيف بمن كان له رب».

- ليت بائع الأحلام يستبدل لنا ما اشتريناه، فلم نعد نحلم بالسعادة. فما وجدنا الحياة إلا وجعًا، فرجوناه خاليًا من الدسم.

تأملت فادية صورة زوجها المعلقة على الجدار بحبل مفتول من أشهى سنين عمرها:

- والله لقد كانت تمر بنا أيام أنا ووالدك نبيت فيها بغير عشاء، ولم يكن يتذمر أو يغضب رحمه الله، وكنت ألمح الرضا في عينيه عندما كنت أتقاسم معه رغيف الخبز وحبة طماطم واحدة.

امتعض أحمد من حاله ومن فقره الذي التحف به وعتمة دارهم من العوز، وتأسف على أحلامه التي قتلها من إملاق وقال متحسرًا:

- ولكن الزمن تغير يا أمي! أنا أخجل من فقري أمام أصحابي، ولو أحضر أحدهم طعامًا ودعاني فإنني أدَّعي الشبعَ، رغم أن الجوع يكاد يفتك بي. إن ما ينفقه صديقي فريد في يوم واحد ننفقه نحن في شهر كامل!

ابتسمت هند فأشرق وجهها كالبدر وقالت:

- أنا متفائلة بالغد رغم أن كل الظروف من حولنا لا تبشر بجديد.

نظر لها أحمد باستياء وقال:

- يموت من الجوع كل من ينتظر مائدة الحظ، فلا تدعي الأحلام تذهب بكِ بعيدًا.

هزت هند رأسها برفق وشرعت نافذة الأمل الموصدة أمام عينيه ليُحلِّق بأحلامه بعيدًا ويُعاند جاذبية الشقاء:

- دعك من هذه الحكم الجوفاء مُحطمة الأماني وعزاء المُفلسين، وعش بالأمل فعساه يكون، فما بين طرفة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال. فاصبر فإن اليسر مع العسر وليس بعده.

وَضَعَ أحمد لقمة الخبز الفارغة من يده على الطاولة وألصق ظهره بالكرسي وقد صهر الأسى كلماته:

- ما الصبر إلا يأس أتانا متنكرًا في زي الفضيلة، فلن ترويَنَا الأيام إلا بعكارة قسوتها.

بفيض من اليقين حدثته هند بحكمة الأيام، وكأنها تمنحه درسًا من دروس الحياة بالمجان:

- بمعايير عقلك ترى الأمور هكذا؛ ولكن للسماء حسابات أخرى، فتفاءل ولن تخسر شيئًا، وغدًا تمد لنا الأيام كفها بنخب السعادة.

شعر بتورطه في نوبة تفاؤل فتبسم بقدر ما بدت أسنانه وتشبث بأمل ربما يكون.

❀ ✿ ❀

تخطى رشاد الستين من عمره، يسكن في غرفة صغيرة على السطح، حياته قاتمة وللحرمان أقرب أو هكذا تبدو لمن حوله؛ فالجميع يعلم بشظف معيشته القائمة فقط على صدقات أهل الإحسان، بجلبابه المُرقَّع الذي لم يقْتَنِ سواه وتباطُئِه في خُطاه كان يستجدي عطف الناس، يتصدَّق عليه أهل شارع «ريحان» في حي «إمبابة»، وكان لا يغادر الشارع إلا بعد أن يمضي أول الليل، ولا يعود إلا بعد أن ينتصف الليل.

كانت فادية أكثر مَن يتصدق عليه من سكان العمارة، وكان يحفظ لها في قلبه هذا الصنيع ويكافئها سرًّا على ذلك.

قَدِم إلى غرفته على السطح منذ خمس عشرة سنة، حين وهبها له صاحب البيت رأفةً بفقره، حياته السابقة بقيت سرًّا يُمزقه ولم يُخبر به أحدًا، فقد بالغ في تحفظه عن تفاصيل حياته ونشأته وحظه من التعليم.

ارتدى نظارة سوداء منذ اليوم الأول الذي خطى فيه إلى الحي فلم يتبين ملامحه أحد، ولم يُفصح عن عينيه إلا في الشهور الماضية، كان يهتم بنظافة قدميه ولا تشم منه رائحة العرق، شعره الأسود الناعم لا يزال يحتفظ برونقه، فلم يكن هناك شيء يصُفُّه بطابور الشحاذين إلا جلبابه المرقع ومسكنه المتواضع، في حين كان طعامه من المطاعم الشهيرة في

أحياء الدقي والعجوزة، فقد كان في كل ليلة يصفف شعره ويرتدي البدلة الأنيقة أو ما يروق له من الثياب، ثم يرتدي جلبابه المرقع عليها ويمضي بعيدًا عن الحي، وفي أحد الشوارع الخاملة يتسلل إلى دكان صغير، يخلع جلبابه ويدَعه وديعة ثم يسترده بعدما تنتهي السهرة، ويعطي صاحب الدكان كل ليلة عشرة جنيهات.

نشأته كانت في الإسكندرية، حصل على بكالوريوس التجارة، عمل محاسبًا بشركة توريدات، وحين تجاوزت عقارب عمره الثانية بعد ثلاثين سبقتها، وجد يده فارغة ولم يدخر شيئًا، فقرر السفر إلى السعودية، وبمساعدة أحد أصدقائه أتم سفره.

وبعدما أكلت الغربة من عمره سنوات عشر عاد ليتزوج، أرادها شابة لتجدد مياه حياته الراكدة، بعدما تجاوز الأربعين وقلبه بكر لم ينبض بالحب.

بعد سنوات ثلاث شكَّ في سلوكها؛ لكنه لم يرَ منها إدانة واحدة تتلطخ بها، فبتر شكوكه ليهنأ بعيشه، ووضع ما جناه في غربته في حساب بنكي، وكان يغدق على نفسه وزوجته الشابة التي أخبرته بأنها أجرت التحاليل ولم يجِد الطبيب عندها مانعًا للحمل، وليس عليه إلا الاهتمام بنفسه والإكثار من المأكولات البحرية وتناول اللبن. وضع وصايا

الطبيب أمام عينيه، وتعاهدته زوجته بكوب لبن كل ليلة، وفي إحدى الليالي ناولته كوب الحليب ثم دخلت الحمام، اتكأ على سريره وتابع التلفاز وترك اللبن حتى يبرد قليلًا، ثم مد يده ليأتي بجهاز التحكم، فبطشت يده بكوب اللبن فتشتت قرص المنوم المذاب فيه مع دسمه، وحتى لا يشق عليها وتأتي بغيره أمسك بقطعة قماش وجفف اللبن المسكوب. ثم جاءت زوجته تمسح على شعره الناعم حتى أطربها شخيره.

وفي الثالثة فجرًا قام ليشرب ولم تكُنْ زوجته في الفراش وكان مكانها باردًا، سمع همسها في الغرفة المجاورة، اقتحم الباب فوجدها عارية في أحضان عشيقها الشاب الذي دفع رشاد أرضًا ولاذ بالفرار.

اندفع الدم بتهور في عروقه وتطاير من عينيه شرر غضبه وتلاطمت أفكاره في مرجلها، ولم يهدأ حتى استباح جسدها العاري بطعناتٍ مستعرةٍ أودَتْ بحياتها. تناول أوراقه الشخصية وفر هاربًا من الإسكندرية. اندس في شوارع القاهرة متسللًا خلف نظارته السوداء ومتكئًا على جلبابه المرقع، حتى انتهت الخمس عشرة سنة التي حكمت بها المحكمة.

❀ ✿ ❀

ارتاد شوارع القرية من جديد والحنين يأخذه إلى داره وملعب السوق والشيخ فرج وأصدقاء صباه. أوحلت الأمطار الطريق فرفع طرف ثوبه وظل يخطو مستندًا على الجدران الملونة، وكما كان يحلو له في شبابه أن يطفئ أعمدة الإنارة المضاءة نهارًا، تناول أكثر من حجر مهَّد بهم الطريق الذي افترشه الوحل.

مدَّ بصره يمينًا ويسارًا فوجد أهل القرية تطاولوا في البنيان؛ ولكن المسجد القديم يحتاج إلى ترميم والأمر متوقف على الجهود الذاتية لأهل القرية، إذ لا يوجد دعم حالي في ميزانية الوزارة.

ها هو يصل إلى بيته وشجرة الصفصاف قد تلاعبت الريح بغصونها، تلك الشجرة التي أتمَّ حفظ القرآن على ظلالها وكتب أفضل أشعاره مستندًا إلى جذعها.

برج الحمام يقف مستكينًا تحت المطر فقد كان هديله دائمًا يوقظه لصلاة الفجر. سيارة شقيقه عبد الوهاب الخشبية التي يذهب بها إلى حقله ويحمل عليها محصوله وأغراضه نالت السنين من عزيمتها، بجوارها برك الحصان الأبيض هامدًا بعدما بلَّلَه مطر الشتاء. عصا والده التي اتكأ عليها آخر سنوات عمره تبدو منكسرة من وخز فراقه، تهيَّجت ذكرياته

واندفعت للخروج من معقلها فأغلق الباب عليها قليلًا، واقترب من باب الدار التي تربَّى في كنفها؛ فقد أتى به الحنين في هذا البرد القارس ليَبرَّ بأشواقه لأهله وبلدته.

أريج طعام أمه استقبلته أولًا وشقت طريقها نحوه متلهفة، فأغمض عينيه وهز رأسه برفق منتشيًا، دجاجات أمه السبع كما تركها من قبل، ردَّدَ دعاء المطر ثم التفت فعلم أن إحداها قد اختفت. فرك يديه ببعضها من شراسة الهواء واستأذن ثلاثًا.

عانقه عبد الوهاب فور ما فتح له باب الدار بعدما طرقه، فلم يكن ليدخل البيت دون استئذان، إذ إن في البيت زوجة أخيه.

قبَّل يد والدته وأَبَت وأقسمَتْ أن لا يقبل قدمها حين رأته ينحني ليفعل ذلك، سلَّم دون مصافحة على زوجة أخيه، وخطى نحوه زياد ابن أخيه فاحتضنه بحرارة. قبَّل رأس أمه مرة أخرى، وجلس بجوارها واضعًا يده على كتفها، فبادرته قائلة:

- وكيف حال أسماء؟

- بخير، نحمد الله يا أمي، وقد حمَّلتني سلامًا للجميع وخاصة أنتِ، وتناشدك بأن لا تنسيها من صالح دعائك. وسامحيني يا أمي إن أتيت إليكم بيد فارغة.

ربتت أمه بكفها على كتفه وهي تبتسم مغمضة عينيها:

- زيارتك هذه أجمل هدية، وهي عندي يوم عيد، ولم يعد ينقصني إلا رؤية أولادك.

انتشت أوردته بثناء والدته وتمجيدها له، فبره بها لم ينقطع، فمن عهد صباه لم يرد لها كلمة أو يُراجعها في أمر، حتى الأمر الذي كان ينقصها؛ ساق لها من أعذاره ما يشفع له عندها:

- التمسي لي العذر، فقد خشيتُ عليهم من قسوة البرد إلى جانب أنهم يُصابون بالدوار من السفر.

أتت زوجة أخيه بالطعام تحمله، وبغير قصد أو ترتيب جلس كلٌّ منهم في الموضع الذي اعتاده منذ أيام الصبا. وضعت والدته أمامه كثيرًا من اللحم، فأكل متجاوزًا حديثَ «ثلثٌ لطعامه»، وطبق حساء كبير، فشربه ممزوجًا بالليمون، وهمَّ أن يرفع يده عن الطعام فوضعت والدته أمامه نصف دجاجة طهتها مع الأرز كما يحب.

لم يرد أن يُفسد هذه الوجبة الدسمة بكوب شاي يليها؛ فناولته زوجة أخيه كوبًا من النعناع، مشروبه المفضَّل.

حرك عبد الوهاب كوب الشاي بين كفيه قائلًا:

- أَلا تزال تكتب الشعر يا شيخ خالد؟

- أحيانًا أكتب بعض الخواطر، لقد أخذني القرآن من الشعر، وذاك فضل من الله؛ أن أكون من أهل القرآن، فهم أهل الله وخاصته.

مكث يسأل أخيه عن أهل القرية وعن مَن يعرفهم من الشباب، ومَن مات ومَن تزوج. وسأله عن المسجد القديم:

- لِمَ تكاسلتم عن ترميمه؟

فقال عبد الوهاب:

- جمعنا نصف المبلغ المطلوب، وننتظر منك أن تحث الناس على فضل الصدقة لنشرع في الترميم.

سأله متلهفًا عن الشيخ الجليل الذي علَّمه وسقاه من فيض علمه:

- كيف حال الشيخ فرج؟

فقال وهو يتأسف على حاله:

- كبرت سنُّه وضعف بصره وصار يصلي في بيته، ومع ذلك ما زال قلبه يعي القران ولم ينسَ منه آية.

صدعت مئذنة المسجد الكبير بأذان المغرب، فنهض متحمسًا:

- بعد الصلاة أزوره في بيته وأستعيد معه ذكرياتي.

❁ ✿ ❁

جلس أحمد على سلم المدرج الكبير في كلية التجارة، ينتظر صاحبيه فريد وحسام. أوشكت السنة الرابعة له في الجامعة أن تنتهي وهو بحذاء وحيد قد سئمت منه أرض الجامعة. ثلاثة قمصان وثلاثة بناطيل من «الجينز» هم كل رصيده من الثياب. على عكس صاحبه حسام من أسرة متوسطة لكن والده لا يبخل عليه بنفقة، فمظهره أنيق. أما فريد فهو في سباق مع النعيم، يرتع في الرفاهية ورغد العيش، إذ إن والده المقيم في دبي وأمه المطلقة لا يبخلان عليه بالمال، كل منهما يريد أن يستميله إليه ويصفِّه في معسكره، وقد دعمت سيارته الفارهة وثيابه المرصعة بثرائه حظوظه عند الفتيات، فكُنَّ يلهثن خلفه.

جاء حسام وجلس بجوار أحمد، وضحكات فريد مع شيماء تملأ آذانهما.

قال أحمد:

- وكيف حال والدك؟

تناثر تراب الحزن على وجه حسام فاغبرَّت ملامحه وملأ الأسى جفونه حتى فاض مع نبرته الحزينة:

- زاد عليه المرض بالأمس، وأمضينا ليلة عصيبة حتى استقرت حالته قليلًا في الصباح.

أقبل فريد نحوهما وأشعل لفافته وتوسط المسافة بينهما، ثم قال في زهو:

- أتوافقني الرأي يا حسام أن لشيماء مذاقًا مختلفًا عن غيرها؟

تمعَّر وجه حسام واحتد صوته:

- اتقِ الله في بنات الناس!

هز فريد رأسه شبه معتذرًا:

- آسف يا حنبلي! واستدار قليلًا: هل توافقني الرأي يا أحمد؟

فقال أحمد:

- حدثنا أنت عن هذا المذاق. ألم تذهب أنت وهي أمس بعدما انتهت المحاضرة الأخيرة إلى آخر المدرج، بعدما أعطيت الساعي مئة جنيه ليقطع تيار الكهرباء؟

حرك فريد لسانه في فمه كأنه يبحث عن بقايا من لذة اختبأت بأروقته:

- لذيذة بلا شك، بل هي منتهى اللذة؛ ولكن القبلة مجرد فاتح للشهية، أما الوجبة الكاملة فقد وعدتني بها الليلة في الخامسة مساءً، ستأتي لنراجع بعض الدروس. وهذا هو الحب الحقيقي وليس الغزل والنظرات والحب الأفلاطوني مثل قصص قيس وليلى وسهير وحسام،

«إن الحب الحقيقي لا ينمو إلا في غرفة النوم» كما قال فرويد. لو وجدت في نفسك الرغبة الكافية يا أحمد؛ فتعالَ وذاكر معنا.

أغلظ حسام له النظرات ليزجره وقال مشددًا عليه:

- احذر يا فريد، فإن الزنا دَيْن، والردُّ يكون من أهلك.

بشيء من الثقة عارضه فريد قائلًا:

- الحمد لله، ليس لي إخوة بنات، وأمي امرأة كبيرة مطلقة وقد تزوجت بعد أبي.

رفع حسام حاجبيه واحتد صوته مجددًا وهدده بالقول:

- ربما يكون في زوجتك.

رمقه فريد بنظرة ساخرة:

- عندما أتزوج سأختارها عفيفة طاهرة تستحي الأعين أن تنظر إليها.

جهر مُكبِّر المسجد بأذان الظهر.

نظر فريد إلى حسام وقال:

- متى سمعت النداء فأجِب يا أخي.

قام حسام ونظر إلى فريد ممتعضًا:

- لا تُفرط في حُسن ظنك؛ فالطيور على أشكالها تقع!

هزَّ فريد رأسه وابتسم ابتسامة المُغضَب:

- أراك تمزح يا أخي، الطيبون للطيبات!

اقترب أحمد من فريد وفرك يديه ببعضهما:

- أنا متوتر بشأن هذا الأمر، فلم أفعله من قبل.

زهد فريد في لُفافته فألقاها واستدار بوجهه ناحية أحمد:

- الموضوع بسيط فلا تقلق أو تتعجل، فكلما تعجل الطاهي طعامه خرج عليه بلا نكهة مضطرب المقادير، فتمهل وتجرأ وابتهج، هذه الثلاثة أضلاعُ أي علاقة ناجحة، وبعدها أطلِقْ لمشاعرك العنانَ وستتكفل هي بالأمر وسأشرح لك.

اقترب فريد منه وسارَّهُ في أذنه وكدَّ عليه قائلًا:

- الأمر المهم حقًّا أن لا تتأخر حتى لا يفوتك شيء من الشرح العملي، فلدي كاميرا في غرفة نومي ستنقل إليك بثًّا مباشرًا لحظةً بلحظةٍ حتى يحين دورك.

❀ ✿ ❀

انتهت فادية من صلاة الظهر وابتهلت بدعوتها الأثيرة أن يحفظ الله أولادها، فكانت تلهج بها كثيرًا وكأنها لم تشأ من الدنيا غير ذلك، ثم قامت تبحث عن شيء في المطبخ أسفل النافذة التي كُسِر جانب من زجاجها بيد مجهولة، ولم يتوقف سعيها إلا عندما وجدت ورقةً من فئة الخمسين جنيهًا، فقررت أن تشتري بها دجاجة اليوم.

ذهبت إلى السوق وعادت تحملها على يدها وتحمل السعادة في قلبها لشغف أحمد بالدجاج. تحركت بخفة في المطبخ كأنها تحتفي بالضيفة عزيزة الخطى إلى بيتهم.

عاد أحمد من الجامعة وبدَّل ملابسه واستلقى على فراشه وطلب من أمه أن توقظه من نومه في الساعة الرابعة ليذاكر.

انتبهت فادية لغسيل أمس الذي أصابه ماء المطر فقامت لتنشره مرة أخرى، ووضعت ملابس أحمد لتغسلها هي الأخرى وأتت بها جميعًا.

أنجزت كل مهامها ودخلت غرفتها لتنام حتى أيقظها أذان العصر.

قرأت وِرْدها من القرآن بعدما صلَّت، فقد كانت تجيد القراءة بعدما أتمت الدراسة في المرحلة الابتدائية، وتذكرت أحمد فأيقظته في موعده ليذاكر، فقام من نومه بمشاعر متضاربة مزجت بين النشوة والتوتر وشيء

من الخوف يجول بصدره. استجمع قواه وهزم توتره وقام ليرتدي ملابسه ويذهب إلى منزل فريد. بحثَ عن ثيابه فلم يجِدْها، أخبرته أمه بأنها غسلتها جميعًا، فاستحالت نشوته همًّا وغمًّا وغضبًا مكبوتًا في صدره من أمه ولامها على ما صنعت:

- لمَ يا أمي؟
- أخبرتَني أنك ستذاكر فغسلتُ ثيابك.
- كنت سأذهب وأذاكر مع فريد في بيته.
- بعد ساعتين ستجف وتذهب إلى صاحبك.

فقال بصوت منخفض خالطه أسى:

- ولكنها لن تمكث طويلًا ولن تتأخر!

ولكنها تأخرت في عودتها اليوم حتى زحف الليل ولم تأتِ، فداهم القلق قلب فادية حتى عادت هند بأنفاس مرتفعة ودموع تنحدر ووجه خائف وقلب مذعور، ارتمت في أحضان أمها وبكت وانتحبت. غمرتها فادية بحنانها كي تكفكف دموعها أولًا قبل أن تفصح عن سببها. تجولت بعينيها في أرجاء البيت فاطمأنت أنها لم تعُدْ تواجه مخاوفَ جديدة، فهدأت أنفاسها واستجمعت قواها لتتكلم، ثم هدأت فتسلل دمعها قهرًا فانتحبت وعلا نشيجُها وبكت بحرقة. أخذتها فادية من يدها إلى غرفتها لتستدفئ بفراش أمها بعدما أصابتها رجفة وارتعدت فرائصها.

داهم أحمد القلق ودارت برأسه مخاوف شتى، فوقف صامتًا ينتظر منها أن تفرج عن كلماتها ليعلم الخطب.

وضعت فادية يدها على رأس هند وقرأت بعض الآيات وقصار السور، فاستقر نبضها وسَرَت السكينة في عروقها وأرادت أن ترفع عن كاهلها عبء ما تحمله بعد أن ناءت النفس بحملها، فلملمت شظايا روحها ونشدت في نفسها بقية من قوة لتقدر على الكلام:

- تأخر الأستاذ في المحاضرة حتى تجاوزت الساعة الخامسة، فخرجت مع صديقتي أميرة، وبمجرد أن ودَّعتها في الشارع المظلم وجدت سيارة أجرة استوقفتها سيدة مسنة، فلم يُبالِ السائق بأمرها، وحين أشرت إليه توقف، فتوجست وترددت أن أركب بعدما فتحت الباب، إذ لم يكن في السيارة إلا رجلين ملامحهما إجرامية، فتراجعت، فجذبني أحدهما بقوة كادت تخلع كتفي من موضعه، وأدخلني السيارة عنوة وأسرع الآخر بغلق الباب. ثم أشهَرَ أحدهما نصلًا حادًّا لمع في وجهي وأرعبني بريقه، وضعتُ يدي على فمي إذ هددني بالقتل لو صرخت. دقائق مريرة تلاشت فيها روحي من الفزع وشبح أفكاري السوداء يصرعني، وفجأة دق هاتف أحدهما واستمع إلى من يحدثه في وجل، ثم خاطب السائق وهو مذعور: «مستشفى السلام بسرعة،

ابني سعد صدمته سيارة». فقال له الرجل الثاني بعدما أشار إلي: «وماذا نصنع بهذه؟»، فأجابه بعد أن خارت قواه خوفًا على ابنه: «اتركها تنزل».

تنهدت وحمدت اللهَ الذي حفظ ابنتها من تلك الطامة التي كادت تفتك بشرفها، شهقت ووضعت يدها على صدرها تناشد قلبها المذعور بالسكينة، فقد خلعته الفاجعة من موضعه. وقف أحمد بجوارها مستندًا برأسه المتأوه على الحائط، دهست عجلات الوجع كل بأسه فأحاطه الذهول بكلتا يديه فطوَّقه وتمكن منه، ولم ينطق بشيء فقد تصدعت أركانه من هول الصدمة فلبث واجمًا، لم تُسعفه خواطره إلا بكلمة حسام: «الزنا دَيْن». ففي الوقت الذي تجرأت فيه أفكاره ليشارك فريد جريمته؛ كادت أخته تتلظى بنارها.

❀ ✿ ❀

انتهى الشيخ خالد من صلاة العشاء، والتفت إلى جموع المصلين خلفه ليسكب في نفوسهم عبير الإيمان ويروي قلوبهم بزخاته:

- الحمد لله وكفى، وصلاةً وسلامًا على الذين اصطفى. قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾، فمن أيقن بالخلف جاد بالعطية، والصدقة من أهم القربات إلى الله عز وجل، كما أن الصدقة تَقي مصرع السوء في الدنيا، وتقي من حر شمس يوم القيامة، إذ يقول عليه الصلاة والسلام: «كل امرئ في ظل صدقته يوم القيامة حتى يُقضَى بين الناس»، يوم يلجم الناس العرق إِلْجامًا يستظل الكريم بصدقته، فتصدقوا عباد الله، والمسجد القديم في حاجة إلى الصدقات لترميمه وإعادة إعماره، ولعل شِق تمرة يتصدق بها العبد تحول بينه وبين نار جهنم، فاليوم يُقبل منك مثقال ذرة من خير، وغدًا لن يُقبل منك ملء الأرض ذهبًا لو تفتدي به. أحبتي في الله كلمة قالها أحد الساسة وأجدني مضطرًّا لقولها: «ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط»، فاجعل لك خبيئة مع الله ترجح بها حسناتك، ومن واقع سطور الحياة أقص عليكم أمر هذا الرجل وقد تجاوز الستين من عمره ولم يأخذ حبة دواء واحدة منذ أربعين سنة، رغم أنه كان يمرض وتصيبه الأوبئة،

فكان يذهب إلى الصيدلية ويسأل فقط عن ثمن الدواء ويتصدق به فيبرأ بإذن الله؛ يقينًا بما جاء في صحيح السنة: «داوُوا مرضَاكم بالصدقة». وجزاكم الله خيرًا.

قام الناس إليه يعانقونه ويحتفون به، فقد افتقدته شوارع القرية، فلم يكن يخطو عليها إلا ذاكرًا ومستغفرًا. لانت كلمته فوجبت محبته، صانت ذاكرته صفحات الوجوه وادخرت في جيوبها الأسماء وكأنه ما رحل عنهم، عفيف اليد كان، طاهر النفس، نقي السريرة، فتهافتت القلوب على إجلاله، فاضت عليه لغته من سحر البيان فاحتفظت كلماته برونقها وثيابها الزاهية، فأكرموا حديثه بحدج نظراتهم، عف لسانه عن ذكر مثالب الناس فلم يذكروه إلا بالخير، تطهر ماضيه من كل دنس فأشرق حاضره وارتفعت هامته بعز الطاعة. يتصل به أحدهم ليدعو لصبيه المريض أو ولده المسافر أو ابنته الأرملة، فكانت سهامه لا تُخطئ طريق الإجابة. لم يكن أشعث ولا أغبر ولم تدفعه الأبواب؛ ولكنَّ السماء كانت تبر قسمه في كل مرة. صافح الكبير والصغير منهم بحرارة بالغة، ودعا لمن تزوج بالسعادة ولمن مات صفيه من أهل الدنيا بالرحمة.

❀ ✿ ❀

جلس رشاد يرتب الأموال التي بحوزته بعدما سحب مدخراته من البنك قبل أن يكتشف أحد جريمته، أخفى غنيمة غربته تحت فراشه، لقد بدا اليوم شاحب الروح على غير عادته، تناول الطعام الذي أحضرته فادية بالأمس بعدما سخَّن الحساء والدجاج وصنع لنفسه كوبًا من الشاي. لم يزل يعاني من ليلة أمس من وعكة سكنت أحشاءه، ليس بوسعه أن ينزل اليوم ليصاحب الظل حيثما افترش الأرض؛ فقرر أن يبقى في غرفته لشعوره بوجع يتردد عليه.

مضت الساعات والألم يطحن أوصاله وتتلظى به أعماقه. هل يصرخ فيسمعه الجيران؟ ولكن هذا المكان لا ينبغي أن يلِجه أحد فيطمع في المال الذي أتى به من الغربة التي تسلقت جدار عمره فسرقته.

شخص واحد له حق التنعم بهذا المال. حدث نفسه ورجت نزعاته، فأتت فادية كما تمنى لتسترد الأطباق الفارغة.

أذهلها هول ما رأت، رشاد مسجًّى على فراشه وأموال كثيرة من حوله وصوته يأتيها متقطعًا:

- أشعر بمرارة الموت في حلقي، فهذه الأموال جنيتها من غربتي، لكِ نصفها أنتِ وأولادك، ونصفها الآخر ضعيه في المسجد ودار الأيتام المجاورة له.

تحشرجت روحه في صدره وشخص بصره وتغرغرت أفكاره بطعناته المستعرة وجريمته التي فر منها ولم يُدلِ فيها بأقواله، فصعدت روحه لمحكمة السماء ليُجادل عن نفسه يوم الفصل. انتابَتْ فادية ربكة وحيرة وليس بوسعها شيء تصنعه، فيَدُ الموت كانت تبطش به وتصرعه.

❁ ✿ ❁

أنهت سهير دراستها في قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة القاهرة، وقد ربطتها قصة حب بجارها حسام منذ خمس سنوات.

فتاة حالمة رقيقة تحتفظ بحجابها وجمال روحها، قصة حبهما لم تشُبها خطيئة، إذ إن حسام شاب ملتزم وهي على قدرٍ عالٍ من الأدب.

وقفت سهير تنظر من خلف النافذة المشرعة، قاومت وخز قدمها ما استطاعت، حتى اقتحمت غرفتها شقيقتها الصغرى رباب، وهي طالبة جامعية تصغرها بعامين.

مازحت رباب شرود أفكارها:

- يا مسافر وحدك في دنيا الخيال!

لم تبالِ سهير بما سمعت، واستطردت رباب قائلة:

- لكن بصراحة ما زلت أشعر بالانكسار في عينيه، وقد مضى على وفاة أبيه شهر وأكثر.

التفتت إليها سهير وقالت:

- والده كان يمثل له الصديق والأخ، غير ما تحمله كلمة الأب من معاني الرعاية والأمان، وموته كان صدمة هزت كيانه. وكم يؤلمني الوجع الذي أراه في عينيه وينتابني الخوف مرتين؛ مرة أخاف عليه ومرة أخاف منه!

أطرقت رباب بالسبابة على جبينها كأنها تستثير ذهنها ليقف على مغزى الكلمات، فقالت:

- «تخافين عليه» لا تحتاج منك إلى شرح؛ ولكن «تخافين منه» مبهمة!

غمزت بإحدى عينيها وابتسمت قائلة:

- نرجو تسليط الضوء عليها كرمًا منكم سيدي الرئيس.

أفصحت سهير عن معنى أرادته:

- كنت أتمناه قويَّ النفس جَلدًا لا يجزع وينهار مع تقلبات الدهر، فأخشى أن لا يقوى على مواجهة الحياة وأنا معه، فتغرق قوارب أحلامي على شواطئ أشجانه.

رهنت سهير مستقبلها على بابه، فخشيت من ضعفه وخور قوائمه أن تعصف به فجيعته، وتقتلعه رياح الغمِّ وتتركه حُطامًا.

ينضج البشر بالتجارب لا بالعمر، فمن خاض دربًا مفروشًا بالورود؛ لا تنتظره صلب المراس كمن خاض صلصال الحياة ووحل البشر.

تنهدت رباب عطفًا على جزع شقيقتها وقالت:

- مصائب الدنيا ظلمات، والصبر في المِحَن نور، ادْعِي له في صلاتك أن يلهمَه اللهُ الصبر. وستتكفل الأيام بجبر خاطره.

❀ ✿ ❀

بجوار مسجد الفاروق يسكن حسام وقد جمعته صداقة قوية بالشيخ خالد إمام المسجد.

خرج الاثنان توًّا من المسجد فاستوقفتهما عبرات شاب ماتت أمه ويُريد لها كفنًا من أكفان الصدقة، فربت خالد على كتفه مواسيًا وأعطاه بغيته وعاد ليربت على جزع حسام:

- رحم الله والدك، كان من أوتاد المسجد، ولا تنسَه بصالح دعائك.

تصالح حسام مع كدره وأسلم له نفسه طواعية، ومكث يضع الحجارة برفق ليرفع جدار مناحته وكشف الستر عنه ليُعاينه شيخه:

- كيف أنساه وهو في صحوي ومنامي، ودموعي أنا وأمي لا تجف؟! ولكن هل حقًّا يُعذَّب الميت بدموع أهله؟

- تجاوز الله عن دمع العين، أما الصراخ والعويل فيهما العقوبة.

أضاف حزنه لماء وجهه عذوبة، طالع خالد صفحات النور تكسو ملامحه وقال بغبطة مزجها بنصيحة:

- رغم الحزن الذي يتدفق من عينيك فإن نور الطاعة يملأ وجهك! فحافظ على هذا النور ولا تطفئه بظلمة المعصية، وكن أنت الولد الصالح الذي يدعو لوالده. أخبرني مسعد أنك صليت بهم العشاء أمس وارتجَّ

المسجد بالبكاء كحال صلاتك أيام الاعتكاف، نفع الله بك وجعلك من أهل القرآن. والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «إن من أحسن الناس صوتًا بالقرآن الذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله».

أخجله ثناءُ خالد والتصقت بالأرض عيناه وقال متضرعًا:

- صلى الله عليه وسلم.. أسأل اللهَ الإخلاصَ والقبول.

- وبالنسبة للعمل، هل انتهى بحثك إلى شيء؟

تمدد الحزن في عينيه وقال بحسرة غير التي يحملها في صدره:

- لا جديد، أعياني البحث.

فكَّر خالد في إعانته ولكن ناشده بمواصلة دأبه، ونصحه ليستحث عزيمته، فتناثرت حبات نصحه مضيئة وفاتحة للشهية:

- ما من شجرة تحمل الأرز مطبوخًا، فلا تكف عن الركض، فالسعي مع الرغبة، ولعل بابًا واحدًا يُفتح فيُبادرك الخير منه، فخذ بالأسباب وسيُدبر الله لك أمرك ويقضي حاجتك.

صافح شيخه ممتنًا وانصرف.

❀ ❀ ❀

أغلقت النافذة وتسللت من غرفتها بعد أن ذهبت رباب إلى المطبخ، فتحت باب الشقة وتظاهرت بإخراج القمامة.

صعد حسام الدرج حيث شقته المقابلة، فحيَّاها وألقى عليها السلام دون أن يلتفت.

استدارت بوجهها ناحيته:

- أنا في كل صلاة أطلب لوالدكَ الرحمة، فاصبر لقضاء الله ولا تسمح للحزن أن يطوي أحلامك ويُعكِّر صفو حياتك، فالدنيا دار ابتلاء ولا تخلو من الشدائد.

رسمت أشجانه على وجهه لوحة كلالته، وتنهدت عيناه قبل أنفاسه من كمد امتلك جوانحه، وقال بأسى بالغ:

- اعذريني، أنا حالتي النفسية سيئة جدًّا، كأن الدنيا ظلام دامس.

عطفت على وجله بنظرة حانية تربت بها على قلبه وتمسح عنه غبار أحزانه، وعليه فاضت كلماتها بالنور ليستضيء دربه:

- قضاء الله خير؛ لكن أرجو أن تتعالى على أحزانك وانكسارك وتستأنف حياتك من جديد؛ الراحة في الصبر والتسليم لقضاء الله.

لم تفارق الأرض عيناه من انكسارها، فتولت كلماته الأمر لتُريها مناحته:

- أحاول أن أتدرَّعَ بالصبر؛ ولكن أبي كان سندي وذخيرتي في الحياة، يرتب لي حياتي ويشملني برعايته، وكنت أتكئ على مشورته لأموري كافة.

تسللت من عينيه دمعة فحاول أن يدحرها إلى منبعها، التفت ومسح دمعه بكفيه وتنهد تنهيدةً حارةً:

- كأن سفينتي الآن مترنحة الخُطى، بلا قبطان يرشدها ويأخذ على يديها، وتمتلكني رهبة من مواجهة الحياة وحدي.

أرادت سهير أن تصب في خلجانه زخات الجَلد:

- عندما تداهمك الحياة بقبس من قسوتها؛ أدر لها ظهرك لا قلبك، وتأمل سيل الماء إذا اعترضت طريقه صخرة، فلا يقف عندها مكتوفي الأيدي؛ بل يأتيها يمنة ويسرة حتى يعبرها. فتجلَّد واقرأ على نفسك آيات الكفاح، فربما كانت أدوات التحطيم كالفقر واليتم والألم هي نفسها السبيل لتكون ذا شأن عظيم، فارتقِ بهمتك حتى ترتل مع أهل المجد أناشيد النجاح، والدنيا لا تقف على أحد، ولا بد أن تتأقلم مع

وضعك الجديد، ولا تدع رياح اليأس تعصف بقلبك، وتدثَّر بالرضا لتستكين أوجاعك وتطيب لك الحياة.

❀ ✿ ❀

أحاطت يده بخصرها وقبَّلها في فمها، فكادت تذوب في يده، فساندها حتى صعدا الدرج وأغلق الباب. خلع عنها ثيابها قطعة تلو الأخرى وترك القميص الوردي، التهم ثديها كطفل جائع.

«لا ترتدي سوى القلادة» قالها «جاك» على متن الباخرة تيتانك لفاتنته.

فقلَّده ونطق بها همسًا وحملها بين يديه حتى وضعها على فراشه، بدت لوحة أنوثتها مشرقه كزهرة «روز»، هوى بجسده القوي وتدفق عنفوانه في جسدها، ألقى بركانه الثائر بحممه تلو بعضها، فتأوهت بلذة ونبشت بأظافرها ظهره وغاب معها في قبلة طويلة. رشفت نبيذ الغرام من فمه فتركها ثملة وذهب ليأتي بطبق فاكهة، أطعمها الموز وهي مستلقية على ظهرها، وأبت المزيد وقالت «أنا جائعة للحب» فأطعمها ما اشتهت حتى وهنت تعاريجها من عدوه عليها.

طلب منها أن تعتدل في جلستها لتأكل معه فهزت رأسها برفض صارم أشبعتها فاكهة فحولته، ألح عليها أن تعتدل فلم تقدر، كأن زلزالًا دغدغ أركانها، دوختها اللذة كأنها تحلم من فرط نشوتها. تمدد على عشبها فتجددت نزعتها، فشق محراث رغباته تربتها المهترئة. تربع في جلسته

فجلست على فخذيه وساقاها خلف ظهره، همست في أذنه بقول قبيح فباغتها ببقية من قوة فخمدت جمرتها.

لاطفها أمس في أحد الملاهي وواعدته أن تأتي إلى بيته وتقضي الليل معه، وقبل أن يُعلن حفيف الأشجار نداءه الأخير سألها دون أن يكترث لإجابتها:

- متزوجة؟

وضعت رأسها على وسادة الحب فلم تجد راحتها إلا عليها، لملمت أهدابها وقالت وهي منتشية:

- زوجي مسافر، وأنا الليل البارد يؤرقني ومشاعري لا تقوى على الوحدة، فكلما عبث الهواء بثوبي اشتهيتُ الرجال، وفي كل ليلة يأخذني الحنين إلى نار الحب وجماله، فبالحب وحده تحيا المرأة وتتفتح شهيتها للحياة. وأنت أخبرني عن نفسك ولا تُطِل، فالحب أحيانًا تقتله الكلمات.

- أنا فريد في اسمي، ووحيد في حياتي.

❀ ✿ ❀

حظيَ جلال هاشم بمعرض سيارات وبعض التوكيلات التجارية، يعيش في النعيم إذ ورث ما يملكه عن أبيه، فلم يكن له أشقاء، وقد تزوج أروى ابنة عم الشيخ خالد بعد أن خطبها له والده، وقد رزقه الله منها بأبنائه عمر في الثامنة من عمره وسارة في السادسة. حياته الخاصة لا تخلو من الدنس والشرور، وعلى أوقاتٍ متباعدةٍ ينجرف خلف نزواته ويقيم علاقات ربما لا تستمر طويلًا، وقد استأجر شقة ليمارس فيها سقوطه وترديه؛ ولكنه دومًا كان يتظاهر بالحياء والفضيلة ليصطف في معسكر الشرفاء كغلاف اجتماعي أراده لنفسه، يواري به سوءة أخلاقه، فلم يعلم الناس عنه إلا خيرًا.

جلس يطالع بعض عقود البيع والشراء، فقد كان يقف على كل تفاصيل العمل ويتعامل مع موظفيه بحزم وَرِثه عن أبيه، فلم يكن يسمح لأحدهم بالتراخى في المهام المكلف بها، فكانت كلماته موجزة معهم في حدود العمل فحسب. أما تعنيفه لأحدهم كحمم بركان لا تُبقي ولا تذر للخطأ طريق يعود منه. دخل أحد موظفيه يحمل بعض الأوراق، رن هاتفه فأخذ الأوراق وأشار لموظفه بالانصراف.

- وعليكم السلام شيخ خالد. كيف حالك؟

صمت قليلًا ثم قال:

- أنا بخير، وأولادي وابنة عمك تغمرنا نعم الله.

وحلق في سقف المكتب وأطرق أصابعه ببطء على المنضدة وقال بتأفف:

- في انتظارك غدًا إن شاء الله.

❀ ✿ ❀

انتهى حسام من قراءة سورة البقرة ودعا الله أن يهب ثوابها لوالده، ولجت والدته ليلى باب غرفته ودعته لتناول العشاء، فقام مستندًا على نصيحة سهير له.

التف حسام حول مائدة الطعام بجواره والدته، وأكلا في صمتٍ شهي لم يُخالجه إلا طرق على الباب، قام حسام ليرى من بالباب فتهلل وجهه وقال:

- مرحبًا فريد.

عانقه فريد بحرارة وقال:

- لعلك بخير يا صديقي.

- الحمد لله، تفضل شاركنا العشاء.

حيًّا فريد ليلى وجلس بجوارها وقال معتذرًا:

- سامحاني على تقصيري في زيارتكما، بعد وفاة عمي محسن لم يعد للحياة طعم، ولا أتخيل البيت دونه.

عارضت نظرات حسام له حسرته التي يدَّعيها وقال شبه مستنكر:

- وأين كنت أمس؟

بدت على فريد ربكة بعدما تذكر أنه حدث حسام في الظهيرة بما كان منه في البارحة فقال:

- كنت في.. كنت.. تعثر نبضه مع كلماته فصمت قليلًا ثم قال: موضوع سأحكيه لك لاحقًا. وغمز له بإحدى عينيه كي يصمت.

هز حسام رأسه برفق وقال:

- سريع النسيان كعادتك ولا تتحرش بماضيك.

كرر فريد إشارة عينه ليُسكته وتناول رشفة ماء ليبتلع الخجل الذي داهمه من ليلى التي تنظر له بعين التبجيل، وألقى بالحديث على الضفة الأخرى: هل أتى أحمد لزيارتك؟

وضع حسام الملعقة من يده وردَّ له الغمزة بمثلها وهز رأسه برفق ليُعلمه بأنه أدرك استدارته بالكلام وسيمررها له، فجاراه في حديثه:

- جاء مرة أو مرتين بعد وفاة أبي، لا أذكر بالضبط. افتقدته كثيرًا، لم أعد أراه إلا نادرًا.

قالت ليلى شبه ممتنة:

- في زيارته الأخيرة لنا أعطاني رقم هاتفه، وألح أن أتصل به لو احتجت إلى شيء.

❀ ✿ ❀

بجوار مسجد الفاروق مطعم للأسماك يمتلكه فؤاد. رجل بدين، أصلع، تجاوز الخامسة والأربعين بقليل، يشرب الخمر كلما تاقت نفسه، ويعتاد المسجد في الأيام الأولى من شهر رمضان. كثيرًا ما نصحه إمام المسجد الشيخ خالد بالاستقامة والمحافظة على الصلاة دون جدوى.

خليل عامل جديد بالمحل، يرسله فؤاد يشتري له الخمر كلما اشتاهها، فلم يكن بوسعه أن يشربها في البيت حتى لا تنهره أمه، ولم يكن بوسع خليل الذي لم يتقن عمله بعد أن يرفض فيُطرد من عمله؛ ولكن وخز ضميره كان يؤرق مضجعه، وكثيرًا ما أتى على نفسه باللوم والتقريع فلم يكن أبدًا راضيًا عن جلب الخمر له ومشاركته إثمَه، وبمجرد أن رأى الشيخ خالد مقبلًا أسرع إليه واستوقفه:

- لو أذِنتَ لي يا فضيلة الشيخ، الخمر حرام طبعًا؟

- أفتيتَ نفسك.

فقال خليل:

- هو يُجلبها لنفسه أحيانًا وبعض مرات يُرسلني في طلبها، فمعاذ الله أنا لا أحتسيها.

فقال خالد:

- ولكنك وقعت في دائرة الحرام؛ إذ إن حاملها والمحمولة إليه ملعونان ليس لهما نصيب في رحمة الله.

ردعته عقوبة الذنب فتعكر وجهه وخشي على نفسه من التبعات، فقد كان في قلبه مَسحة من إيمان جعلته يحافظ على صلاته ويأبى الحرام.

- صاحب المحل يزجرني لو رفضت شراءها له.

أفصحت عيناه عن انكساره، فنظر إليه خالد بإشفاق على ضعفه وقال:

- ارفُضْ مُطلقًا؛ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

اصطفَّتْ كلمات خليل كأسرى حرب فخرجت من فمه ذليلةً بطعمها المرير، كمرارة الخمر التي تجرع وزرها.

- هددني بالطرد من المحل، وأنا عندي أولاد وليس لي مصدر رزق إلا هذا العمل.

فقال خالد بنكهة اليقين وحُسن الظن برب العالمين:

- أرزاق العباد بيد رب العباد، ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، فاستعن بالله ولا تعجز.

فاضت من عينيه حسرة واعتصر الألم روحه وسبقت كلماته تنهيدة حارة:

- ولكني أخشى على أولادي من الجوع والهلكة، فلم أدخر شيئًا للأيام وليس لي أقارب أطلب منهم المعونة.

ربت خالد على كتفه وأشار لكلماته أن تربط على قلبه:

- الله عز وجل يقول: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾، فما دام الأجل باقيًا كان الرزق آتيًا. ابحث عن عملٍ آخر ولا ترْضَ لنفسك الهوان، ثم دَعْ هذا العمل عندما تجد البديل، ولو أغلق الله لك بابًا فتح لك غيره، فلا تخشَ فوات الرزق فالله قد ضمنه، فقط استعن بالله فإنَّه يُعين من أعانَ نفسه.

فتحت كلمات خالد صدره الموصود على لوعته، وصبت بملء حروفها من السكينة في حناياه، ليثبت قلبه على الحق الذي أرشده له وينعم بالسلام.

❀ ✿ ❀

افتقدت فادية بعد وفاة رشاد اليدَ المجهولة، التي كانت تضع لها النقود كل حين من نافذة المطبخ، ولم تأسف على الأمر فلم تعد في حاجة لها بعدما وهبها رشاد ما جناه في غربته. وهَبَت نصف المال للمسجد ودار الأيتام كما أوصاها، وادخرت نصيبها لمستقبل أبنائها. خبأت المال في علبة من الكرتون ووضعتها أسفل السرير ولم تخبر أحدًا، وبالظروف المعيشية نفسها أكملت مسيرة الحياة.

لم تفتر عن الدعاء لرشاد وترجو له الرحمة بعدما علمت بجريمة القتل التي ارتكبها من خلال الصحف القديمة التي وجدتها في غرفته، كما وجدت صور زفافه وثيابًا أنيقة وزجاجات عطر، وقد علمت تفاصيل كثيرة من خلال بحثها في الغرفة قبل أن تخبر الجيران بوفاته، وقد تخلصت من كل متعلقاته الشخصية ليبقى أمره سرًّا لا يعلمه أحد. ظلت على حالها تدعو الله أن يحفظ أولادها وييسر أمرهم.

فانزوى أحمد عن صاحبيه قليلًا وخاصة فريد الذي كاد يجره إلى الخطيئة، وأنهى دراسته الجامعية بتفوق وعمل محاسبًا في شركة المصرية للاتصالات، بعدما اجتاز المسابقة التي أقامتها الشركة.

في حين ظلت هند تقرأ بشغف الروايات وكتب الشعر بعدما أنهت دراستها في قسم الفلسفة، فقد كانت فتاةً رقيقةً حالمةً لم تنسَق خلف حب خادع أو هوى عابر، فقد أنضجت القراءة خواطرها، فأمسكت بمجامع قلبها وأحكمت أقفاله، فمن أغلق باب قلبه فهو آمن، فقد نخر الوجع شجرة الحب إلا قليلًا، فلم يبقَ للأحبة إلا وجوه شاحبة كساها الخذلان بتجاعيد رثة، فآثرت السلامة وانتبذت مكانًا قصيًّا بعيدًا عن شاطئ الحب، رغم أنَّ بين جوانحها قلبًا لينًا غضًّا بكر المشاعر. لم تضِق نفس فادية بالسر إلا بعد أشهر، فكانت تخشى أن تموت دون أن تخبر أبناءها بما يُثلِج صدورهم، فصارحتهم بما تخفيه عنهم.

❀ ✿ ❀

زكريا موظف في الضرائب العامة، متوسط القامة، نحيل الجسم، بشرته سمراء، ورثها من أمه التي كانت من صعيد مصر. لم يرزقه الله بالولد كما كان يشتهي، فنثر كل مشاعره على مهجتيه سهير ورباب.

عاد وجلس على أريكته بعد أن صلى العصر ووضع سجادة الصلاة على ركبتيه وتناول الجريدة ليتابع القراءة. جلست زوجته صفاء بجواره تقطع بعض الخضراوات، فكان ينظر إليها تارة وفي الجريدة تارة أخرى.

- هناك شاب أعرف أصله الطيب، فاتَحَني برغبته في الارتباط بسهير.

لم ترفع صفاء عينيها عن السكين التي في يدها وسألته غير مكترثة:

- من هو؟!

- أبوه كان جارًا لنا في بيت العائلة، وهو طبيب حديث التخرج.

حدقت صفاء نظرها إليه وردت مستنكرة:

- لقد أبلغتني من قبل أن محسن قبل وفاته بشهر لَمَّحَ لك برغبة حسام في خِطبة سهير.

- كان مجرد تلميح وأنا لم أعِده بشيء، والرجل توفاه الله، وأظن أن أشياء كثيرة ستتغير بوفاته، وحسام بلا عمل وأحواله لن تتغير إلا بعد حين.

فقالت صفاء:

- أنا أعلم مدى حبك لبناتك، ولا أخفيك سرًّا؛ سهير معجبة بحسام، وهو شاب هادئ كريم الأخلاق، ويكفي أنها ستكون جارتنا.

صمت زكريا وارتدى النظارة الطبية ليتابع القراءة وهو ينظر إلى السكين في يدها بقلق.

❁ ✿ ❁

اعتاد الشيخ خالد على إلقاء درس بعد صلاة العصر يومَي الاثنين والخميس على رواد المسجد، فافتتح الدرس بعد مقدمة قصيرة ليحث المصلين على قيام الليل. وقال في نهاية حديثه:

- أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل، وهو مهر الحور العين في الجنة، فمن يشتري الفردوس بركعتين يصليهما والناس نيام؟ وقد رأى أحد السلف شيخه في المنام بعد وفاته، فسأله عن حاله، فقال له: «ما نفعنا إلا بعض رُكيعات كنا نصليها في جوف الليل»، وقد سُئِل الحسن البصري: «ما بال المتهجدين بالأسحار أحسن الناس وجوهًا؟»، فقال: «لأنهم خلو بالرحمن بالليل فألبسهم الله من نوره». أحبتي في الله، صلاة الليل راحة للنفس وسعادة للروح، ومن ذاق عَرِف، بل هي طوق النجاة لمن يريد. إذ يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: «صلوا في ظلمة الليل لظلمة القبر»، وقد ورد في صحيح السنة أن الصلاة في جوف الليل هي أفضل الصلاة بعد المكتوبة. وأسأل الله أن يعينكم على طاعته ويصطفيكم لجنته.

أشار إلى حسام بعد أن أنهى درسه، فجاء يخطو بجلبابه القصير وقد عبَّأت لحيتُه بالنور وجهه.

- كيف انتهى سعيك للبحث عن عمل؟

فقال حسام:

- لا جديد، وقد دعوت الله كثيرًا ليُتِمَّ لي هذا الأمر.

فقال خالد وهو يبتسم قليلًا:

- ربما استجابَ اللهُ لك. ولا أريد أن أستبقَ الأحداث وأزف إليك البشرى؛ ولكن سننتظر إلى غد.

فقال خالد في لهفة:

- بشرى بماذا؟

تتطلع خالد نضرة وجه حسام من مداومته على قيام الليل وغضه لبصره واتقائه للمحارم، وكأنه يغمس وجهه كل صباح في مشكاة القرآن:

- فاتحتُ أحد معارفي بشأنك، وسنذهب إليه غدًا إن شاء الله. ركنًا بداخله أسس بُنيانه على حجر، نقشت عليه خوالجه «خير الناس أنفعهم للناس».

- وفي أي مجال يعمل؟

- صاحب معرض سيارات ومعه بعض التوكيلات التجارية.

❀ ✿ ❀

وضع على جبينها قبلة وقبَّل يدها، فعلمت أنه اكتفى. طقوس اعتادها كلَّما تغشاها فتحمل في نفسها حملًا خفيفًا من النشوة. ألقت بمنشفتها على الأرض، أضاء خليل نور الغرفة وخرج يتفقد حال أولاده الثلاثة وهم متدثرون ببعضهم بعضًا وقد سقط الغطاء أرضًا، فأعاده كما كان ووضع على جبين كل منهم قبلة، وظل يتأمل براءة وجوههم حتى جاءته سعاد زوجته، وقبل أن تتكلم همس لها أن تصمت، فخرجا على أطراف أصابعهما، وعادا إلى الفراش الذي ما زال يحتفظ بدفء غرامٍ كان بينهما.

شردت أفكاره بعيدًا ثم حدثها بما يجول في خاطره:

- فاتحتُ شيخ المسجد وطلب مني أن أبحث عن عمل بديل. وقد تكلمتُ مع بعض أصدقائي وشرحت لهم أمري ووعدوني بالمساعدة، فإن في قلبي غُصة من هذا الكسب.

استلقى على فراشه وشبك أصابعه ببعضها تحت رأسه وحدَّق في السقف، جلست سعاد بجواره تمسح عنه هموم صدره. فقد كانت الكتف التي تستند عليها أوجاعه، فباح لها بالذي يُضني قلبه وفرق عليه شمل روحه، فقالت لتواسيه:

- رزقنا الله الحلال وكفانا الحرام وشرَّه. لا تحمِلْ في صدرك همًّا فالله لا ينسى خلقه.

صارحها خليل بأمر يتوجسه ولا يُدريه وعيناه لم تبرحا سقف الغرفة:

- منذ ثلاثة أيام وصدري منقبض، وأخشى من تقلبات الأيام ومن ما يُخبئه لي الغد.

ابتسمت سعاد لتطمئنه على المستقبل:

- بارك الله فيك ولا حرمنا منك. دَعْ حمولَكَ على الله ولا تُبالِ.

اعتدل في جلسته وقبَّل جبينها فضمته إلى صدرها برفق، رب ضمة طوت كسرة بداخلنا وفتحت لنا في الأفق دليلًا!

❀ ✿ ❀

استقبل جلال ضيفيه في مكتبه، وضع المسبحة من يده وقال:

- ما أجمل الحياة بذِكْر الله!

مسح وجهه بكفيه وتهللت أساريره:

- مرحبًا بالوجوه الطيبة.

بش وجه خالد ليرد له تحيته، فالبسمة بالبسمة والبادئ بها أولى:

- أهلًا بك أخي جلال، لعل أولادك بخير وابنة عمي.

رمقت عين جلال حياء فاض من وجه حسام ثم عادت عيناه وأقبلت على خالد مرة أخرى.

- الحمد لله، الجميع بخير، وأرجو أن يكون بمقدوري مساعدتك.

فقال خالد:

- الموضوع باختصار حتى لا نشغل وقتك، حسام يبحث عن عمل وأرجو منك مساعدته في قضاء حاجته، فخير الناس أنفعهم للناس.

فسأله جلال:

- وما مؤهله؟

وهنا تكلم حسام:

- أنا خريج تجارة، شعبة محاسبة، ومعي دبلومة في الحاسب الآلي.

فسأله جلال:

- ومستواك في اللغة الإنجليزية؟

فأجاب حسام:

- جيد.

- هل يصل إلى حدِّ الترجمة؟ إذ لدينا تعاونٌ مع شركات أجنبية.

فقال حسام بثقة:

- لك أن تختبرني.

فقال جلال:

- سنرى لاحقًا، وسيكون الشهر الأول بمثابة اختبار لك، أحد العاملين يتهيأ للسفر وسيترك العمل في آخر الشهر، وأظنك ستكون جديرًا بمكانه.

فنهض خالد وصافحه بكلتا يديه ممتنًّا:

- جزاك الله خيرًا أخي جلال، ولا تنسَ سلامي للأسرة.

❀ ✿ ❀

سمعت رباب حوارًا دار بين والديها بشأن سهير، فدلفت إلى غرفتها لتخبرها بالأمر وترى ردة فعلها. كانت سهير مضطجعة في فراشها تتابع صفحات التواصل على هاتفها. فاعتدلت في جِلستها ووضعت الهاتف على الوسادة.

مازحتها رباب قائلة: الجميل في الأمر أنه طبيب؛ ستتعامل معه مجانًا.

استحضرت سهير سنوات عمرها منذ دراستها في المرحلة الثانوية، وقد رهنت مشاعرها له، فقد شغفها حبًّا ولم ترَ في الدنيا مثل طُهرِه وعفافِه وصفاءِ قلبه. أبى قارب أحلامها أن يُبحر إلا لشاطئه، وأبت مشاعرها أن تشُد رحالها إلا إليه.

- لم أتخيل حياتي يومًا من غير حسام! هو أول حب مسَّ قلبي ولا أريد من الدنيا سواه، فلم أُبالِ بنظرات الإعجاب أو كلمات الغزل والإطراء من زملاء الدراسة وغيرهم، كنت أحتمي بحبه من مهاترات وقعنَ فيها زميلاتي، فقد أحببتُ فيه وقارَه وإكرامَه لذاته وترفُّعَه عن سخافات الشباب. وحين تأكدت ظنوني وعلمت أنه يبادلني الحب؛ لم تسَعِ الدنيا فرحتي، فحُبُّنا لم يكُنْ أبدًا نزوةً ولا شعورًا برغبة؛ بل هو توافق أرواح، حبٌّ عفيفٌ طاهرٌ لم نُدنِّسه بشيء من عفن الشهوات.

ولو كانت ظروفه لا تسمح حاليًّا بالارتباط؛ فسأنتظره العمر كله، فأنا لم أُلطِّخ يومًا خيالي بالتفكير في غيره، وفي كل ليلة أصلي وأدعو أن يجمع الله شملنا.

لا تسكبي مشاعرك دفعة واحدة فربما يُعاني قلبه من سوء التخزين.

ابتسمت رباب قليلًا ورجت لهما الخير وقالت:

- ما يجمعه الرب لا يفرقه العبد، وأسأل الله أن يجمع بينكما قريبًا؛ ولكن هل صليتِ استخارة؟ فحب لن يُكلل بالزواج تذهب فيه المشاعر هدرًا في بحر السخافات.

كل إيحاءات السماء كانت تُخبرها بغيوم متجهمة، فرفضت بريد السماء وسارت خلف أمانيها، وقالت بعد صمت وحيرة:

- يداهمني الخوف والشعور بالرهبة من المستقبل، وأخشى أن يكون قد خبأ لي القدر عكس ما أرجو.

فتح السؤال بداخلها ممرًّا مهجورًا لمخاوف قديمة طمسها الوجد ولم يُبقِ منها على شيء.

وقفت أمام باب المطعم، وبدت عليها الحيرة وارتبكت عيناها، فاقترب منها أحد العاملين وسألها عن سبب وقوفها هكذا وإن كانت تريد شيئًا.

فأجابته: أنا زوجة خليل وأريده في أمر مهم.

خفضت رأسها ووضعت كفًّا على الأخرى، فأقبل عليها والوجل يملأ صدره.

- ما الذي أتى بك؟

فقالت بفزع يلهث مع أنفاسها المضطربة:

- علي حرارته عالية وأريد ثمن الكشف، ولم أجد في حصالة الأولاد إلا عشرة جنيهات لا تكفي أجرة الطبيب.

كان فؤاد يتابعهما من بعيد ثم اقترب منهما رويدًا، تسبق خطاه نظراته تجاه سعاد وقوامها الغضِّ الممشوق، اعترضت خطوات خليل نحوه طريقه إليهما، فاستجدت عيناه وفضحت حاجته قبل أن ينثر حروف عُسرته:

- خمسون جنيهًا من المُرتَّب يا حاج فؤاد.

ناوله فؤاد ورقة نقدية بمئة جنيه وقال:

- لعلَّكَ تحتاج أكثر.

فأومأ خليل برأسه أن لا، وكانت عينه لا تزال تجوب مملكة أنوثتها، فأخفضت رأسها وتناولت النقود من زوجها وانصرفت مسرعة فرارًا من نظراته الفجة ووجلًا على ولدها.

❀ ✿ ❀

استيقظ حسام من نومه كما اعتاد قبل الفجر بساعة، وكانت نسمات الفجر هادئة بعدما تلظى الجميع بحرارة الشمس نهارًا.

نصب قدميه بين يدي ربه وأطال في سجوده ودعا لنفسه بالتوفيق والسداد، ودعا لوالده قائلًا:

- اللهم اغفر لأبي، إنه كان بي حفيًّا، وارحمه رحمة واسعة وارفع درجته في الجنة واجعله يَسأَل: بمَ هذا؟ فيُقال: باستغفار ولدك لك.

قام وأتى بمصحفه وظل يقرأ بصوتٍ عذبٍ آيات الله وقد حبَّر قراءته تحبيرًا.

فتحت أمه ليلى باب الغرفة ببطء وانتظرت حتى انتهى من قراءته وربما تعجَّل من أجلها ولم يقضِ نهمه، اقتربت منه وجلست على حافة فراشه، جاهدت لتُخفي وجعًا تمدد في حناياها وقالت بصوت جسور:

- الحمد لله أنْ يسَّرَ لك العمل الجديد. مضى على وفاة والدك خمسة أشهر، وموضوع ارتباطك بسهير لا بد أن يتم بطريقة رسمية.

أعاد حسام المصحف على المنضدة، وكشف عن وهن لسانه وركاكة تنتاب منطقه لو اقتضت الحاجة أن يطلب من الناس أمرًا:

- لاعتبارات كثيرة يا أمي؛ ليس بوسعي أن أبادر بالأمر، فالخجل يعتريني وكلماتي تتعثر.

تجلدت ليلى و كبحت دموعها وزجرتها عن مآقيها:

- رحم الله والدك، كان سيغنيك عن كل هذا ويرفع عنك الحرج.

ثم شردت وتنهدت وقالت بعد صمت:

- خطرت ببالي فكرة. فاتِح صديقك الشيخ خالد بحيث يحدد مع الأستاذ زكريا موعدًا لزيارتهم.

فأومأ برأسه بالموافقة وسمع نداء الفجر فقام للصلاة.

❀ ✿ ❀

اعتاد فريد حياة السهر والمجون وكثيرًا ما تلطخ بعلاقات آثمة، ولم يكن شيء يردعه عن ذلك. في الثالثة فجرًا كان يقود سيارته، يبدو عليه شيء من وهن بعد وجبة عشق دسمة، وبجواره فتاة كحيلة العين قد أمضت ليلتها معه، منحته أرضها المحروقة سنابل بقيت على حافتيها، تعرف عليها منذ شهر ولكنها لم تواعده إلا الليلة.

سرت كفه اليمنى على شعرها الناعم وقال مبتهجًا:

- أجمل ليلة في عمري كانت الليلة، صحيح كل مليحة بمذاق؛ لكنكِ الأشهى، فكل النساء أنتِ.

أسندت رأسها إلى الكرسي وأغمضت عينيها قليلًا وتنهدت، ثم قالت والألم يعصرها: «همجي وتصرفاته حيوانية!». تجمدت الدموع في مآقيها وأبت أن تنجرف، وبدت في كلماتها حرقة:

- تجاهلتُ نزواته وسقطاته حفاظًا على بيتي، وتظاهرت كثيرًا بثقتي به، ثم صارحته بما عرفته عنه من صديقاتي. وعدني أن لا يعود وعاد إلى الوحل الذي اعتاده، فطعنتُه بسيف الخيانة، سقطتُ كما سقط، لم أرسم لنفسي هذا الطريق ولكنه دفعني إليه، فثأرتُ لنفسي وسقيتُه بالكأس نفسها.

أغمضت عينيها مجددًا وتنهدت تنهيدة حارة وأرادت أن تخفف عن نفسها وخز ضميرها الخافت، وظلت تنادي في أعماقها: «حطم قلبي

ومزق كبريائي وقهر أنوثتي وفضح ضعفي وجعلني في الكفة الناقصة فشمتَ بي النساء» هكذا أوحت لنفسها لتبرر دنسها بعدما لطَّخت شرفه ولم تكافح لتسترده من ضرائر قلبها. فتحت أزرار الخيانة حتى آخرها وما زالت ناقمة عليه، تدثرت بالعشق أينما توجهت ركائبه وبقيت في صدرها منه غُصة، لم تُبالِ بوصايا الأنبياء وأضرمت النار في كل تعاليم القبيلة، ثم رفعت هامتها مبتهجة بلذة دحره، بينما كان في حاجة إلى يد حانية تنتشله من دنسه وليس خنجرًا عفنًا يُغرس في خاصرته.

مضى بسيارته قليلًا فالتفتت حولها وأشارت إليه أن يقف، فتحت باب السيارة فأمسك يدها وقال:

- أنتظركِ غدًا.

فقالت متبجحة بلذة الثأر:

- غدًا سيعود من الإسكندرية وسأعود بريئة كما يظن. وحتى نلتقي لا تثق بامراة بعد اليوم، واحذر كيدهن؛ عظيم في انتقامه، ضربتك بعشر كاملة تواتيك.

أبهرته حكمتها أكثر من سحرها! ليس بوسع النار أن ترعى الجليد فكيف تأتي المومس بالفضيلة؟!

❀ ✿ ❀

تمدد علي في فراشه وقد وضعت أمُّه قطعة قماش مبللة على جبينه، ثم رفعتها ووضعت يدها تتحسس جسده وتبسَّمت راضية، فقد انخفضت حرارته.

أتى خليل من المطبخ يحمل طبقًا به رغيف خبز وقطعة من الجبن المصنوع وزَّعها لتملأ الرغيف، اعتدل علي في جلسته وتناوله، نظر إليه إخوته من حوله وهو يأكل، فهمَّ أن يقتسم معهم رغيفه.

فقال خليل:

- لا يا علي، كُلِ الرغيف وحدك لتأخذ الدواء.

ونظر إلى طفليه وقال:

- سنأكل جميعًا الآن.

أقبلت سعاد تحمل طبق أرز وطبق بطاطس، التفَّ الجميع ليلتهموا ما في الأطباق بعدما اشتدَّ بهم الجوع. تظاهر خليل بالشبع ورفع يديه عن الطعام ليكفي أولاده وجلس على حافة الفراش، وكسَتْ عينيه نظرةٌ حانيةٌ تجاه ابنه المريض.

- أشعر أن الله أخذك بذنبي وذنب زجاجات الخمر التي أشتريها.

ما نزل بلاء إلا بذنب، والله إذا أراد بعبده خيرًا عجَّل له العقوبة ليُطهره، حتى يلقاه وما عليه خطيئة، فقال علي وقد أفزعته الكلمة، إذ استقر في ذهنه أن الخمر تُذهِب العقل وتجعل الرجل يترنَّح كما كان يتابع الأفلام القديمة في تلفازهم المتهالك:

- وهل تشرب الخمر يا أبي؟

اضطرب نبضه وارتجفت كلماته وقال:

- لا، معاذ الله يا ولدي!

ولاذ بالصمت حتى لا تنفلت كلماته بالجُرم الذي يصنعه.

❀ ✿ ❀

في نطاق عائلي محدود تمت الخِطبة، حسام ووالدته ليلى وصديقه فريد، وقد اعتذر أحمد عن الحضور متعللًا بمرض والدته، وبعض أقارب سهير التي لم يكن لها صديقات مقربات كي توجه إليهن الدعوة؛ فقد كانت متحفظةً ولم ترغب في علاقات اجتماعيةً تستهلك من مشاعرها الكثير.

جوٌّ عائليٌّ سادَه الاحترام والتحفظ إلا من نظرات فريد المتكررة إلى رباب، فولجت غرفتها ثم عادت ونأت في ركن بعيد، وكثيرًا ما احتمت عيناها بأهدابها المتلاصقة من فيض نظراته، التي نشدت فيها حياة الاستقرار والتمس في ربوعها طريق الاستقامة الذي يدور بخلده أحيانًا أن يَلِجه.

ابتهجت سهير وكادت السعادة في عينيها تغطي اليابس من الأرض، بروح منتشية كانت تُخاطب الحضور وكأنها طائر يغرد، فقد تحقق حلم عمرها بمن لاذَت مشاعرها إلى فؤاده ونشدت عاطفتها حقَّ اللجوء إليه، فعزفت بأوتار قلبها لحنَ السعادة التي تدفقت في مَيْسَمِها.

كانت قسمات حسام ما بين الخجل والبسمة، يتنقل بعينيه بين الحضور الذين شاركوه فرحته، طالعت عيناه خالد بجوار زكريا وبينهما حوار

هامس، فشردت ابتسامته كأنه يبحث عن وجه أبيه بينهما، فتنحَّتْ ابتسامته وتجلَّتْ كآبةٌ مؤقتةٌ سرعان ما زالت عندما رأى فرحة أمه الرحيبة.

❀ ✿ ❀

جلس خالد في بيته يُطالع كتابَ «صيد الخاطر». له ولدان، أنس سبع سنوات وحمزة يصغره بعامين. زوجته أسماء كانت تعمل معه في مجال الدعوة ثم انقطعت لتربية الأولاد.

جاءه حمزة يبكي ويشتكي أنس الذي لطمه على وجهه، فوضع الكتاب جانبًا وقال: «اعتداء غاشم ولا بد من عقد جلسة طارئة لإعادة قوات حفظ السلام إلى البيت». نادى أنس بصوت تشوبه الحدة، فجاءه مطأطَأ الرأس وبملء عينيه خجلًا، فلم تغادرا موضع قدميه، وضع خالد يده أسفل ذقنه ورفع رأسه فالتقت عيونهم، لم يحتمل قلبه المُرهف العتاب الصامت من أبيه، فانهمرت دموعه فربت خالد على كتفه فكفكف دمعه.

تنهد خالد تنهيدة رقيقة وقال:

- صدرَ منك خطآن، الأول لطمْتَه على وجه، ووردَ في ذلك نهي شرعي، والخطأ الثاني جريمة في حق الأُخوَّة أن تعتدي على أخيك. الخطأ الأول استَغفِر منه، والثاني استرْضِ حمزة الذي أغضبته.

فتعانق الطفلان وابتسما وسرعان ما ذهب ما في صدر كل منهما. لم يفُتْ خالد أن يُعرِّج على كلامه بحياة السلف:

- هكذا أصحابُ القلوب النقية؛ لا يحملون حقدًا ولا ضغينة مهما صدر في حقهم. وسأقص عليكما ما حدث مع الصحابي الجليل عبد الله

ابن مسعود. ذهب يومًا إلى السوق ليشتري، وقد كان فقيرًا رضي الله عنه، ولما وقف عند البائع ووضع يده في جيبه ولم يجد المال؛ فعلم أنَّ اللص استل ماله، فدعا الناسُ على السارق، فقال ابن مسعود لمن حوله: «أنا صاحب المال، أنا أدعو وأنتم تُؤمِّنون على دعائي»، فدعا قائلًا: «اللهم إن كان عبدُك هذا في حاجة إلى مالي فبارِك لهُ فيه، وإن لم يكُنْ في حاجة إلى مالي فاجعلها آخر معصية لهُ وتُبْ عليه». ولم يَدْعُ على اللص أن يُصاب بحادث ويموت أو ينفق المال الذي سرقه عند الأطباء كما يصنع الناس، ولم يجِدْ في نفسه ضغينة يحملها تجاه اللص الذي نهب ماله، فدعا له بالبركه والهداية. هكذا نفوس الصالحين، لا تحمل حقدًا أو غلًّا؛ بل تعفو وتصفح، ليس عن ضعفٍ وعجزٍ؛ ولكن رغبةً في ما عند الله من الأجر وطلبًا للثواب.

وما إن انتهى من توجيه رسالته التربوية حتى عانقه ابناه وضمهما بذراعيه منتشيًا.

❀ ✿ ❀

قاعة أنيقة لاستقبال العملاء.

سيد عامل البوفيه من أصول ريفية أتى، شاب أسمر ممتلئ البنية، واسع الصدر، في العشرين من عمره، أعزب، رقيق القلب، يميل إلى الطيب من القول، عفيف البال، كريم النفس واليد.

أشرف مسؤول عن تحرير العقود مع العملاء، ياسر سائق ومسؤول عن «الجراج» الذي يقع خلف المكتب، أما المسؤول عن الحاسب الآلي والترجمة فهو حسام، الموظف الجديد.

جلال دائم الجلوس في مكتبه، فهو قليل الكلام ويهوى العزلة، فلا يحب الانخراط في علاقات اجتماعية، بابه مغلق دائمًا.

أشرف يقف على عتبات الأربعين، مُطلِّق بعد زواجٍ دام خمس سنوات، تستهويه المواقع الإباحية والصور العارية. ياسر يشاركه بعضًا من ميوله، فهو يصغره بعامين ولكنه لم يتزوج بعد.

وكان أقربهم إلى قلب حسام هو سيد، إذ يحافظ على صلاته ولم يتلطخ بدنس ما يشاهدونه، مثقف يطالع الكتب، صاحب مروءة، يُنكِر على صاحبيه فيستجيب ياسر أحيانًا، بينما أشرف لا يستجيب مطلقًا.

وقف سيد أمام المكتب بعد أن قدم لأشرف القهوة، وبجواره يجلس ياسر.

تذمر سيد من انكبابهما على الهاتف لمشاهدة القبح والعهر:

- ما فائدة ما تشاهده وأنت رجل سبق لك الزواج؟!

فقال أشرف:

- هذه ثقافة جنسية يا فلاح، فيها الجديد والمثير وما لا تعرفه عن طرُق إشباع رغباتك.

فقال سيد:

- يملؤني الفخر بأني ريفي؛ ولكن ما علاقة ما تصنعه بالمدنية؟ فهذه غريزة في الإنسان ولا يحتاج إلى من يرشده إليها، كما أن الأجيال الماضية تنعَّمت بهذه المتعة، دون أن تتأذى أعينهم بهذا القبح الذي يجور على الأخلاق.

عقد ياسر يديه على صدره واستدار بكرسيه ليُجابه سيد:

- قد تغيرت الظروف من حولنا، ولا بد أن نجاري كل جديد، وبالنسبة إليَّ فإن أسرار الغرف المغلقة تستهويني، وأتمنى أن أكون بارعًا كمن أراهم في هذه المشاهد، وردًّا على الشق التربوي في استنكارك لهذا الأمر؛ أرى أننا لا نمارس فعلًا قبيحًا فما هي إلا نظرة.

قضب سيد جبينه وفي صدره نسبة غير قليلة من الامتعاض يجاوره أسى:

- ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥﴾ إن الجبال من الحصى، فأخشى عليكما من فجاجة هذه المشاهد الحيوانية المقززة أن تدفعكما للرذيلة.

فقال أشرف ساخرًا:

- مشاهد حيوانية! هكذا يظن البلهاء أمثالك.

وأشاح له بيده وقد تعفر وجهه من زجره فقال وهو كظيم:

- لم تُهذِّبك الحضارة بعد يا سيد، فاذهب غير مأسوفٍ عليك.

صدقة على فقير الأدب أن تترفع على أحقاده، فأراد سيد أن تكون يده العليا فتركه وانصرف.

❀ ✿ ❀

فؤاد ضعيف أمام النساء، ومع الخمر يزداد ضعفه؛ ولكنه كان بارًّا بأمه، رفض أن يستأجر لها بيتًا مستقلًّا كما رغبت زوجته، يغدق عليها بالمال وتكفل بنفقات الحج والعمرة لها أكثر من مرة دون مساهمة أحد إخوته، يصب جامَّ غضبه على مَن يُغضِبها من أولاده، يوبخ زوجته إن أساءت إليها أو توانت في تلبية رغباتها، في قلبه رحمة لا تستقيم ربما مع معاصيه وتركه للصلاة، يطمع في الجنة وقد عظمت ذنوبه كثرةً ولكن سبق في علمه أن عفو الله أعظم.

وقف يومًا كما اعتاد يتأمل القطط وهي تأكل السمك الذي وضعه في طبق خارج المطعم.

استوقف الشيخ خالد ليسأله وهو في طريقه إلى المسجد:

هل بر الرجل بأمه يشفع له يوم القيامة وينجيه من النار؟

ردَّ خالد عليه تحيته وسكب على كفيه من زجاجة عطره وتبسم في وجهه وأجابه:

- رضا الله في رضا الوالدين، وأسأل الله أن يرضى عني وعنك؛ ولكنَّ الأم لها حق عظيم، فقد جاء رجل إلى عبد الله بن عمر وقال له:

حملتُ أمي وطفتُ بها حول الكعبة، أفتراني وفيتها حقها؟ فقال بن عمر: ولا بزفرة من زفرات الولادة». ولكني أسال الله أن يعينك على بر والدتك.

بلسان صدق سأله: ما هو أيسر عمل يتقرب به العبد لربه؟

- لا تحقرن من المعروف شيئًا، فقد ركب الامام أبو داوود السفينة فسمع رجلًا عطس ولم يُشمته أحد، والسفينة كانت ما زالت ترسو على الشاطئ، فاستأجر قاربًا بدرهم ووصل للشاطئ حيث يجلس الرجل وقال له «يرحمك الله» وعاد، أبحرت السفينة بمن على متنها ولما جن عليهم الليل وأرخى ستائره سمعوا هاتفًا يُناديهم «يا أهل السفينة، إن أبا داوود قد اشترى الجنة من الله بدرهم.

- لو تكرمت بسؤال آخر، حقًّا من شَرِب الخمر في الدنيا لا يشربها في الجنة؟

فقال خالد:

- نعم لا يشربها، مع أن أهل الجنة لهم ما تشتهي نفوسهم.

ولكن الله يجعل شارب الخمر في الدنيا لا يشتهيها في الجنة، وهذا لا شك نقص في نعيمه.

فرك فؤاد كفيه ببعضهما وقال:

- هذا مجرد سؤال يا مولانا، على سبيل التفقُّه في الدين، حتى لا يتبادر إلى ذهنك شيء.

ابتسم الإمام ومضى في طريقه للمسجد.

داهم المرض فادية وظلت أيامًا طريحة الفراش في بيتها بعد أن رفضت الذهاب للعلاج في المستشفى، لزمت هند خدمتها وبقيت عاكفةً على رعايتها، وكانت فادية تخصُّها بحظ كثيرٍ من دعائها، بأن تهنأ وتكون سببًا لسعادة من حولها.

أمست هند كالوردة التي جفت، فقد سرق الحزن نُضرتها بعد وفاة والدتها، وانقطع شغفها بالحياة وبقراءة الروايات التي كانت بين سطورها تحيا، كان عادل في عمله خارج مصر حين تُوُفِّيت والدتها، فلم تجِدْ من يمسَح عن قلبها مناحته أو يُدثر حناياها بعطفه. كانت فادية قد ادخرت جزءًا من المال الذي وهبه لها رشاد لتجهيز هند بما يلزم زفافها، ورجت من الأيام أن تُمهلها حتى تزفها إلى بيت زوجها كما زفت أحمد الذي تزوج أميرة صديقة هند إلى شقته الجديدة في المهندسين. فكان قضاء الله أسرع.

اشتد الحزن بهند في البداية، ثم تعالَت على أحزانها عملًا بوصية حبيبة قلبها أن تبادر بالزفاف فور عودة عادل وأن لا تسمح للكرب باختلاس فرحتها، رفضت أن تنتقل لتعيش برفقة أحمد في منزله الجديد، فكان يأتي

لزيارتها في كل يوم بعد أن يعود من عمله ليطمئن عليها حتى لا تفترسها الوحدة، وقد تبقى على عودة عادل من سفره أقل من شهر، فشرعت معها أميرة في شراء ما تحتاج إليه في زفافها.

❀ ✿ ❀

الساعة الثانية ظهرًا. نزل جلال من سيارته ومعه فتاة خمرية ذات شعرٍ أصفر ناعم.

تولى ياسر إيداع السيارة في الجراج، ومضى جلال إلى مكتبه بعد أن حيًّا موظفيه.

ابتسم أشرف في مكر، واقترب من حسام الذي كان يتابع أعماله بشغف على جهاز الحاسب:

- هل ترجمتَ الرسالة الواردة من الشركة اليابانية؟
- نعم ترجمتها.
- اعرِضها على جلال بك.
- لم يطلبها بعد.

بدا أشرف وكأنه ينصحه بما ينفعه في عمله:

- من قبل أن يطلبها، ليرى فيك الموظف الكُفْء الحاضر الذهن.

قام حسام والورقة في يده، ولكونه كان مشغولًا بعمله لم يرَ الفتاة الخمرية.

دق مرة واحدة وفتح الباب، فرأى مشهدًا لقبلة ملتهبة، فارتبك وأغلق الباب بسرعة وعاد إلى مكتبه، وضع كفيه على وجهه منزعجًا، فلم

يرَ في الواقع مثل هذا الدنس من قبل. شعر بنفور شديد وغصة في حلقه، اقترب منه أشرف وقال:

- هل قال لك شيئًا؟

صمت وتنهد وحدجه بنظرة مستعرة:

- هل كنت تعلم أن تلك الفتاة معه في المكتب؟

فقال أشرف وهو يرفع حاجبه:

- وما الضرر في ذلك؟!

صمت حسام ثم زفر بغضب وقال:

- لا شيء..

أدارأشرف ظهره وارتسمت على ملامحه ابتسامة ماكرة وردد في نفسه: قالها حكيم إسبرطة من قبل « إننا لا نخدع إلا من يثق فينا».

يتسنَّه طعم الحياة بوقاحةِ بعض البشر أو سخرية آخرين. إذا اختلطت الأمتعة سقطت الأقنعة فاحذر من عدو أتى متسترًا في ثوب صديق.

❀ ✿ ❀

فريد يعيش بمفرده في مسكنه؛ فقد انفصل والداه وهو في العاشرة من عمره، وما لبثت أمه أن تزوجت وتركته لجدته تُكمل تربيته بعدما سافر أبوه للعمل في دبي، انشغلت أمه بزواجها الجديد، فلم تعوضه جدته عن حنان الأسرة الذي افتقده، وظل يعيش في كنفها حتى وافتها المنية أثناء دراسته الجامعية، فصار أشلاء كائن حي بلا رقيب يزجره أو ضمير يهمس في صدره بنُصْح، فكان يخطو لحياته المنفتحة الجريئة ويتقلب في نزواته ولا يبالي. والده لم يبخل عليه بالمال، وأمه تكتفي بالحديث معه في الهاتف مرةً أو مرتين في الشهر؛ ولكن يومًا دعته ليتناول معها طعام الغداء فوافق على مضض.

رحبت به أحلام، جلست بجواره على الأريكة وسألته عن حاله، فقال فريد وهو يهز رأسه وينفث دخانه بقوة من مرارة الحياة التي يحياها وحده:

- أنا بخير. تمام.

فسألته أحلام بعد أن أعادت شعرها إلى الوراء وطالعت وجهها في المرآة ووضعتها جانبًا:

- هل تتواصل مع والدك لتطمئن عليه؟

فقال فريد:

- أحيانًا، فهو مشغول دائمًا وأنا لا أرغب في إزعاجه كل حين.

رمقته أحلام بحدة وقالت:

- من غير مقدمات مملة، لِمَ لا تفكر في الزواج؟

فردد فريد وهو يبتسم مقولة قرأها يومًا:

- «يتزوج الرجل ليستريح وتتزوج المرأة حب استطلاع وكُلٌّ منهما يندم»، فأنا سعيد بحالي بغير أولاد أو مسؤولية تؤرقني.

- وهل يروق لك حالك وحياة الانفلات والسهر؟!

رفع فريد حاجبيه وفغر فاه وصمت مذهولًا.

تسلقت أشجار الدهشة في عينيه وقالت ممتعضة:

- لا داعي لاندهاشك؛ فأخبارك تصلني كل يوم دون عناء.

لملم ما تبعثر من حيائه وسألها شبه مرتبك:

- هل كلَّفتِ أحدًا بمراقبتي؟!

- لا بالطبع؛ ولكن جيرانك حاليًّا هم جيراني من قبل، ولا بد من تغيير في نمط حياتك، وأن تتعامل بجدية. أنا أحزن على حالك كلما أخبروني عنك بشيءٍ سخيفٍ تصنعه.

أقبلت نحوهما شقيقته من أمه ومدت يدها تصافحه.

- أهلًا سالي، أما زلتِ في الدراسة الثانوية؟

- أنا في كلية الحقوق. لأنك مقصر في زيارتنا لا تعلم عنا شيئًا. سأبدِّل ملابسي وأعود لنأكل معًا.

❀ ✿ ❀

تقاضى راتبه الأول من عمله الجديد، فأعطى جزءًا للشيخ خالد ليتصدق به على الفقراء، واشترى مصحفًا متوسط الحجم له غلاف بني اللون ومسبحة زرقاء، وأهداهما سهير وظلا يتجولان معًا بعد أن استأذن أباها في خروجها معه.

مر بهما بائع ورود فاشترى لها عقد ياسمين، وجلسا يستريحان في إحدى الحدائق العامة. ابتاع علبتين من «الآيس كريم»، وبعدما انتهيا ناولها منديلًا سكب عليه قطراتٍ من زجاجة عطرة.

ساد الصمت بينهما دقائق، تعثرت لغته في حضرة عينيها، فخطى بعينيه ناحية السماء فسألته:

- لِمَ لا تتكلم؟

عادت نظراته من غيوم السماء إلى صفاء عينيها فتبسَّم قليلًا وقال:

- الصمتُ في حَرَم الجمالِ جمالُ.

فأغمضت ورقاتها وتشرَّب وجهها بحمرةٍ وغطَّت بعقد الياسمين وجهها كأنها تشمُّه، وابتسمت من خلفه ابتسامةً خجلى، رمقها بنظرة أفصح من ديوان غزل، جرأته في الكلام كانت يافعةً عن جرأتها، فظل يتحدث عن نفسه وطموحاته، فانتشت بأحلامه وطربت بكلماته وكأنه

يعزف على أوتار قلبها، على جبهته الواسعة علقت قناديل أمانيها فطابت الدنيا من حولها وتحلى الكون بألف طعم.

نشرت الشمس خيوطًا دافئة حولهما، فمكثا يتحدثان عن المستقبل واختيار أسماء الأبناء «إلياس وليلى»، أخبرته أنها بوسعها أن تساعده في نفقات البيت بإعطاء دروس في مادة اللغة العربية التي تجيدها لأبناء الجيران.

مالت الشمس للغروب، فنهضا خشيةَ التأخير، فقد مضى الوقت غير مكترث بوجدهما. ساعة مع من تحب تجد ألف عقرب يلتهمها لتمر سريعًا.

أخبرها في طريق العودة أن والدته قد أعطته المال الذي ادَّخرته لأداء عمرة رمضان؛ لإتمام الزفاف في القريب العاجل.

هروبًا من سخف المواصلات قررا المشي حتى يعودا لديارهما، ولتنعم الروح بالقرب وهمس الكلمات أعاد هاتفه إلى جيبه فاصطدمت كفُّه بكفِّها، فاعتذر لها حتى لا تساورها الشكوك، فأخلاقه أجل من أن يصنع ذاك الأمر عمدًا.

طال صمتهما في طريق العودة ثم تذكر أمرًا فابتهج له وحدثها به:

- وربما يكون لنا فرحة أخرى قريبًا.

قالت سهير:

- عن أي فرحة أخرى تتحدث؟

- أخبرني صديقي فريد بإعجابه برباب ورغبته في الارتباط بها.

- اعرِضْ عليها الأمر، وأظنها لن توافق؛ فقد سألتني في اليوم التالي للخِطبة عن سر صداقتك مع فريد، وهو يبدو مختلفًا عنك كثيرًا.

- وهل الاختلاف بيننا كبير؟

- هو شاب مدخن وغير مُلتَحٍ ونظراته جريئة.

تصفح حسام دفتر ذكرياته وعاد بأيام عمره إلى الوراء؛ ليحكي عن وفاء صاحبه الذي قاسمه همومه ورمى بالعداوة من رماه:

- جمعت الصداقة بيننا ونحن في الصف الأول الإعدادي، كان هناك طالب بدين معنا في الصف يفتعل الشجار معي دون سبب، وقد شكوت منه لمدرس الرياضيات الذي كان يحبني لاجتهادي؛ ولكنه لم يأخذ معه موقفًا حاسمًا، فظل يشاكسني وتكررت سخافاته معي. ودون قصد يومًا كسرتُ قلمه فاشتاط غضبًا وجذب قميصي في قبضة يده، وعجزت أنا وزملائي عن تحريري من قبضته القوية، حتى جاء فريد من آخر الصف يخطو على المقاعد، فوثب عليه ووجَّه له اللكمات في وجهه

حتى أدماه وكسر شوكته. وتطودت من تلك الساعة صداقتي به. رغم الاختلاف الكبير في الطباع والسمات، فأنا مدين له بمواقف كثيرة في حياتي كان فيها نِعْمَ الصديق.

❀ ✿ ❀

وقف فؤاد يتابع حركة العمل وتوافُد الزبائن إلى المحل، يساعد عماله لو اقتضَت الحاجة ذلك، فقد كان شديد الرأفة بهم، إذ كانت بدايته بسيطةً كحالهم اليوم، مَن تغيَّب لعُذرٍ قهريٍّ يحتسب له راتبه كاملًا دون خصم، وهُمْ عنده أولى بصدقاته وزكاة ماله.

عشرات من الأُسَر الفقيرة تأتي إليه يوم الخميس من كل أسبوع، فيعطيهم وجبات السمك بما يكفيهم وذويهم، حتى القطط كان لها نصيب من نفسه الكريمة، فكانت تتمسح بساقيه دائمًا فيلاطفهم ويمسح ظهورهم، كان فؤاد يحمل كثير من المتناقضات بداخله، وقد امتزجت بقلبه رغبة الخير ونزعة الشر.

هدأت حركة الزبائن فأشار إلى خليل فأتاه.

- كيف حال ابنك؟

ابتسم خليل ابتسامة أفصحت عن رضاه:

- الحمد لله، بدأ يتعافى وهو اليوم أفضل.

بكف عطفه ربت على كتفه وقال:

- أتم الله شفاءه بخير، والمال الذي أخذته أمس هدية مني له، وراتبك كما هو.

فشكره خليل وأراد أن ينصرف، فناداه وتوجه به إلى فرن الطهي وأعطاه بعض وجبات السمك وأكياس الخبز:

- عشاء أولادك الليلة من المحل.

فشكره للمرة الثانية ووضع الأكياس جانبًا حتى تنتهي الوردية.

ربت فؤاد على كتفه مجددًا وأسفرت ملامحه عن بسمة نقية:

- اذهب إلى أولادك وأطعِمهُم قبل أن يبرد السمك.

أخذ خليل الأكياس منتشيًا بالطعام اللذيذ الذي سيفرح به أولاده، وحملت قوارب عينيه فيضًا وفيرًا من الامتنان لفؤاد على سخائه.

❀ ✿ ❀

ألهبه الشيخ خالد بسياط وَعظِه وذكَّره بالنار عقوبة للذي صنع، فنكَّس جلال رأسه وملأه الخزي من وابل الكلمات التي أطلقها الشيخ من فوهة موعظته، وما استطاع جلال أن يُوقِف سيلَ اللوم والتقريع إلا بعد أن دقَّ سيد باب المكتب فعاد بخطام أفكاره الشاردة فهدأ نبضه وسكنت خلجاته.

وضع سيد كوب القهوة على المكتب:

- هل تريد شيئًا آخر؟

لم يُجِبه جلال حتى ارتشف من قهوته، وقال:

- أرسِل لي حسام.

فكر جلال في الأمر وخشي أن يكون حسام قد أخبر الشيخ خالد بما رآه، وإن كان يعلم يقينًا أن الشيخ خالد لو علم بشيء فهو أعقل من أن يخبر زوجته أروى برجسه؛ ولكن تظاهره بالفضيلة مجددًا أمامه سيكون أشبه بالمزحة السخيفة.

دقات حسام على الباب قطعت حبل أفكاره مجددًا، فأذِنَ له ورمقه بنظرةٍ مُريعةٍ وهو يجلس أمامه:

- أنت شاب ملتزم وكفء، وأحيانًا أشعر بالخجل منك من فرط أدبك، وأنا أُكِنُّ لك في صدري كل احترام، وأنت تعلم أن طبيعة العمل

تحتاج إلى مقومات أخرى، كالمحافظة على أسرار العمل وخصوصية المكان.

طالع حسام نار الوعيد في عينيه فأومأ برأسه بعد أن أدرك مغزى التحذير الناعم، وعاهد نفسه على أن لا تبوح بشيء.

❀ ✿ ❀

خلع النظارة الطبية ووضعها جانبه واستلقى على الأريكة، وصفاء بجواره تقلم أظافرها، فاستمال بوجهه نحوها وقال:

- الطبيب الشاب فاتحني مرةً أخرى في رغبته بالارتباط بسهير، فلما أخبرته بخطبتها ظل يدعو لها بالسعادة وبالغ في مباركته لي.

قالت صفاء:

- الزواج كالرزق، ولا أحد يأخذ رزق غيره.

تنهد زكريا ووضع كفيه تحت رأسه وقال ممتدحًا:

- شاب مهذب، تشعرين بالراحة في وجوده، صوته منخفض، كلماته قليلة، ليس عن ضعفٍ؛ بل عن حكمة ووقار.

فقالت له صفاء:

- شابٌّ كهذا يتمناه أي بيت، فلِمَ لمْ تخبره أن لكَ ابنةً أخرى؟

فقال زكريا وهو يبتسم:

- على نهج المسرحية القديمة «بلاها نادية.. خُذْ سوسو»، هو سمع عن سهير من شقيقته التي كانت تصلي معها في المسجد في شهر رمضان الماضي كما أخبرني، وليس من المروءة أن نُكرِم الضيف بطعام غير الذي اشتهاه، فما بالك والأمر أكبر من الطعام؟!

وضعت رباب كوبَين من الشاي أمام والديها وبقي مثلهما، دخلت غرفة سهير ناولتها كوبًا.

- فريد صديق حسام تحدث معه بشأنك وبرغبته في خطبتك.

قضَّبَت رباب جبينها وأفصحت عن شيء غير الحب:

- شاب وسيم، يبدو على مظهره الثراء؛ لكنه جريء، طاردتني نظراتُه حتى مللتُ منها ونخرت سكينتي وأنا في بيتي، وشعرتُ بالضجر ونفرت منه وشعرت بجفوة تجاهه.

نصحتها سهير بأن تتريث في الأمر وقالت:

- الانطباعات الأولى قد تكون خادعة، فلا تتعجلي في الحكم عليه.

ارتشفت رباب من كوبها وطالعت لوحة الغروب من النافذة، ثم استدارت وأسندت ظهرها للحائط وقالت:

- ما زالت كلمات الرجل الصالح تدور بخلدي «زوج ابنتك لمن يتقي الله؛ فإن أحبها أكرمها، وإن كرهها لم يظلمها» وأنا أنشدُ في فارس أحلامي أن يكون شابًّا مهذبًا ذا حياء، أما فاسق النظر الذي لم يُراعِ حُرمَة البيت؛ فحياتي معه ليست في أمان.

فقالت سهير بلسان من تدافع عنه:

- ربما من فرطِ إعجابه طاردكِ بنظراته وأراد أن يُشعرك بوجوده.

فقالت رباب بلسان الحزم:

- حتى لو كان الأمر كما تزعمين، انطباعي الأول عنه لا يبشر بخير، لا أريده أن يقف بشاطئي أو يبحر تجاهي، فمشاعري ليست مهيأة لاستقبال أي تشويش، فالحب أمان قبل الاشتياق، وقد أقسمت على قلبي أن لا يسكنه إلا مخلص، فأنا أنتظر اليوم الذي يدق الحب فيه بابي بيد حانية؛ ولكن هناك صبية يطرقون ويفرون على سبيل المداعبة، فيجب أن أتمهل حتى لا تُشنق مشاعري بحبل الندم، ولن أرغم قلبي على شيء وسأدع له حرية الاختيار. فبوسع العين أن تلفظ الأجسام الغريبة التي تقتحمها عنوة، أما القلب فيتجرأ ويردهم من على الباب.

❀ ✿ ❀

حسام مثال للشاب الملتزم، يصوم يومَي الاثنين والخميس، يحافظ على صلاة الجماعة، مصحفه لا يفارقه فله وِرْد يومي من القرآن، يحلم بحياة الصحابة وأن يكون على دربِهم، يتهجد بالقيام كل ليلة. وفي إحدى ليالي تهجُّده، خرجَ من غرفته ليتفقد حال أمه، فوجدها تجلس على الكرسي والوجع يكاد يفتك بها.

- ما بكِ يا أمي؟

اعتدلت في جلستها وحاولت أن تُخفي ألمها ما استطاعت:

- الحمد لله بخير.

وحاولت أن تتجلد وتكظم آهاتها. جلس حسام بجوارها ووضع يده على جبينها ليقرأ عليها الرقية الشرعية، فاستشعرت بمداهمة القيء لها، فأسرعت إلى دورة المياه وحسام يحيطها بيديه حتى لا تشعر بالدوار، ثم تقيَّأَت دمًا، ففزعت وكان حسام أشد منها فزعًا.

تحاملت عليه حتى استلقت على فراشها ودثرها بغطاء، وقالت بصوتٍ منخفض:

- ألمُ المعدة انتابني منذ أيام، ولم أخبرك حتى لا تنزعج.

تصبب وجهه لوعة وأسًى وقال بحرقة:

- ربما أكلتِ طعامًا حارًّا!

فقالت ليلى وهي تبتلع آهات وجعها وتبتسم قليلًا وتتظاهر بشيءٍ من التعافي، مع أن وخز الألم كان ينشرها بحدة:

- ربما أكلتُ طعامًا أضرَّ بمعدتي، سأصنع لنفسي كوبًا من الحلبة وسأكون بخير، فاذهب لصلاة الفجر ولا تقلق.

اضطرب فؤاده وثقلت على روحه الهموم هلعًا على أمه، فجثا على ركبتيه ووضع يده على جبينها ولسانه يلهج بالدعاء همسًا، فقلبه المهترئ ليس بوسعه أن يحمل صدمة جديدة على صاريه الهش. فقال والقلق يعتريه:

- في الصباح إن شاء الله سأذهب بكِ إلى الطبيب.

❀ ✿ ❀

انتهت عفاف التي استقدمتها أروى منذ شهر لتساعدها في أعمال البيت من إعداد المائدة، فجلس جلال يتناول الفطور مع زوجته بعد أن ذهب ولداه عمر وسارة إلى المدرسة.

أكلت أروى قليلًا ثم تظاهرت بالشبع وقامت إلى غرفتها، أمسكت بقميصه وجلست على حافة الفراش، رائحة العطر النسائي تفوح منه، وشعرات ذهبية تعلَّقت بأهداب معطف غرامه، قرينة أخرى أججت حسرتها، فلم يكن قلبها وحده يملك الأدلة الدامغة على ترديه، فقد امتدَّت علاقته هذه المرة أكثر من خمسة أشهر، وعطر عشيقته لم يتغير عكس المرات السابقة التي كانت رائحة العطر لا تبقى إلا أيامًا وتتبدل بغيرها.

ثم شردت بذهنها، هل طريقتها في اصطناع الغفلة طريقة مجدية أم من الأفضل أن تصارحه بما تعلمه عن تاريخ عهره؟ فلم يكن مجرد شعور؛ بل كانت على يقين من خيانته لها، فقلبها البريء لم يكن يخدعها؛ ولكن ماذا تصنع؟ هل تصارحه ليكف عن نزواته ولا يتلطخ بها من جديد؟ فقد جرح قلبها مرارًا وشجَّ كرامتها، فاعتصر الألم مهجتها ولم يعبأ

بوجعها مرة أو يبالِ بتعاستها، فكانت تنمو بينهما المسافات مثل غابة أشجار شاحبة، حملت بداخلها أنقاض الثقة وأطلال الأمان، ولم تلفظ منها شيئًا. تجاوزت مرارًا تفاصيل مؤذية وأكوامًا من وجع، وتجلدت وفي صدرها سنين من البكاء، رعدت وبرقت وأمطرت ولم تروادها فكرة الهجرة لوطن بديل، قص ضفائرها المجدولة وأهال التراب على قلبها، فمدت له يدًا حانية لتنتشله من دنسه وتعيده لقبلته التي كان عليها، وتشبثت بتلاليب الرباط المقدس وراهنت على عودته، تحملت الكثير من أجل بيتها؛ ولكن إلى متى ينحني قلبها للريح حتى تمر العاصفة بسلام؟! وعلاقته هذه المرة تختلف ومداها يطول. فإلى مَن تشتكي؟

طال شرودها وبقيت عالقة في طوابق حزنها، ومكثت تفكر في مَن تبثه شكواها، هل تشتكي لشقيقها يوسف أم ابن عمها خالد؟ وربما تكون نصيحة امرأة مثمرة أكثر؛ ولكنها لم ترغب أن تكشف ستر بيتها للغرباء، إذ لم تكن لها أخت تسكب دموعها وشكواها على صدرها، فهداها تفكيرها أن تواجهه؛ ولكن خشيت أن تأتي المواجهة بعكس ما ترجوه ويتمادى ولا يرتعد، أو يقترف جريمة أخرى ويكذب ويقسم بأغلظ الأيْمان أنها مجرد وساوس تعتري عقلها، وربما غضب وخاصمها وأشعَرَ الأولاد بقطيعة بينهما.

استدعت أفكارها وجندت صفوف رشدها لتعاجلها بحيلة تحفظ بها قلب زوجها المخترق وترده إلى معقله فما أثمرت خواطرها، أبحر بصرها ليعود لها بطوق النجاة فارتد خاسئًا وهو حسير، ثم قالت وملء جفنيها أسى: «سأكتفي بالدعاء له في كل صلاة، عسى الله أن يكفيه شر نفسه».

جلس حسام على مكتبه بوجه متعفر بحفنة من حزن، فقد تملك الخوف جوانحه وأُضرِمَت فيها نار الهمِّ والقلق على صحة والدته، السند الباقي لروحه والوتد التي تتكئ عليه أيامه. وفي مواجهته جلس أشرف يرتشف قهوته، فاسترعت انتباهه ملامح تعيسة ارتسمت على وجه حسام، فنهض عن مكتبه واقترب منه وقال:

- لستَ على ما يرام يا صديقي!

فأجاب حسام بصوت منكسر:

- والدتي مريضة، وفزعت عليها عندما تقيأت دمًا.

ضغط أشرف بأسنانه على شفته السفلى وقال:

- إن شاء الله ستكون بخير، فلا تقلق.

دخل المكتب رجل وزوجته لشراء سيارة، فتنحى بهما أشرف على الطاولة المقابلة. أتى سيد بكوب عصير ليمون ووضعه أمام حسام الذي أسند مرفقيه على المنضدة وأخفى وجهه بكفيه.

- ستكون بخير إن شاء الله وسيطمئنك الطبيب، فلا تدَعْ نفسَك فريسةً للتوتر، فأكثر ما يُخاف منه لا يكون.

ربت سيد على كتفه، فمنذ أن حكى له حسام في الصباح عن مرض والدته وهو لم يكف عن الدعاء لها.

أشار أشرف إلى ياسر القادم توًّا من الجراج؛ ليخرج مع الرجل وزوجته ليجربا السيارة.

عاد أشرف إلى حسام وطلب منه الانصراف ليذهب بوالدته إلى الطبيب، فولج حسام مكتب جلال ليطلب الإذن منه.

❀ ✿ ❀

جلست ليلى في فراشها وقد جرَّت صفاء كرسيًّا من أحد أركان الغرفة وجلست بالقرب منها ودعت لها بالسلامة وطول العمر.

- الحمد لله على كل حال، فقضاء الله خير. وقد طلب الطبيب مني بعض التحاليل والأشعة ليتوقف على حقيقة المرض.

فقالت صفاء:

- ليطمئن فقط؛ ولكنك بخير فلا تنزعجي.

فقالت ليلى:

- قد اشتد فزع حسام لمرضي أكثر من فزعي على نفسي.

ثم أطرقت رأسها وقالت:

- صفاء، أنتِ جارتي منذ ثلاثين سنة تقريبًا، وإن حدث لي مكروه فأرجو أن يكون الفرح في موعده.

فقالت صفاء:

- فليبارك اللهُ في عمرك وتغمري أولادهما بعطفك.

كبحت ليلى دموعها وزجَّت بها إلى حيث أتت وجاهدت نفسها لتتكلم بشجاعة، فانسابت كلماتها كالنشيج:

- حسام طيب، رقيق المشاعر، وخِطبته لسهير هي فرحة أولى تشق الطريق إلى قلبه الذي أدمَتْه وفاة والده، ولا أخفيك سرًّا إنَّ الخوف يجتاح

كياني، ليس قلقًا على نفسي؛ ولكن أشفق على حسام مِن هول صدمة جديدة، فربما لا يطول بي العمر، فهاجس الموت دائمًا يخالط أفكاري.

ثم بكَتْ بعدما لم يبقَ لها مقاومة، وقامت صفاء تربت على شجنها. ما أصعب أن يواسيَ الإنسانُ نفسَه بدموع تلظت بها حناياه، فتجده هشًّا محطمًا، عاريًا من كل بأس، قد استباح الألم دوحة أمانيه، فلم يخرج من معارك الدنيا إلا بهزائم وخيبات، عجنتها الفواجع بقهر عالي التركيز، فيجد آخر ما تبقى فيه وخزات غائرة وندبات خالدة، أبدعت محنة في نحتها على جدران قلبه.

عادل شاب في الثلاثين من عمره، يعمل مهندس بترول في كبرى الشركات بالكويت، نشأ في أسرة فقيرة الحال بالفيوم، كان يعمل في أثناء دراسته الثانوية أجيرًا في الحقول أو حمَّالًا في مخازن الحبوب، تفوَّق في دراسته في كلية الهندسة بجامعة السويس، عمل مندوبَ مبيعات في أثناء دراسته وجاب شوارع المدينة الكبيرة، ورغم معاول الهدم التي أتت عليه بالتناوب وأدوات التحطيم التي طرقت حياته من كل جانب؛ فقد حصل على شهادة البكالوريوس بتقدير جيد جدًّا. لم يرغب في العمل الأكاديمي في الجامعة فحزم حقائبه وسافر، تزوج هند التي أسرَّت فؤاده للوهلة الأولى عندما التقاها في حفل زفاف.

كل ثلاثة أشهر يقضيها في عمله يعقبها شهر إجازة، يعود إلى شقته الفاخرة في الدقي بالقاهرة. تزوج العام الماضي فعرفت السعادة طريق داره، حبه لهند ملأ حياته فقد رأى فيها وطنه وملاذه، الأشهر الثلاثة المتفرقة التي يقضيها معها يسترد فيها عافية فؤاده، لذا لم يكُنْ يفارقها إلا ساعاتٍ يذهب فيها لزيارة إخوته في الفيوم.

تأخُّر الإنجاب لم يؤرقه، كأن قلبه اكتفى بهند ابنة وحبيبة، لم يكُنْ له أصدقاء، مشكلات العصر والأحداث السياسة الكبرى لا تشغل باله، لم

يتجول يومًا في مضمار أخبار الرياضة أو يأبه لأحداثها، كانت حكمة برتراند راسل «السعادة هي عدم الاهتمام» أشبه بدستور يحكم توجهاته، فكان يعتزل ما يؤذيه من طباع البشر ويضع حدودًا لعلاقته مع من حوله. إلا أن قلبه كان بحجم السماء، يسع الجميع بعطفه ويشرح صدره قضاؤه لحوائج الناس.

عاد إلى منزله بعدما أحضر وجبة العشاء من أشهر المطاعم حوله كما اعتاد، حتى لا تنشغل هند عنه بتحضير الطعام. أصابته رجفة من قسوة البرد وماء الشتاء الذي أصابه، وضع ما يحمله على المنضدة واستدفأ بقبلة حارة وضم هند إلى صدره وأحاط خصرها بذراعيه.

- لو تناولت الطعام ربما تشعر بالدفء.

فظل ينهل من لهيب الحب، فانفلتت منه ووضعت الطعام على المائدة، فتناول قطعة من الغرام مع بعض حبات العشق ورقائق الوجد، وارتشف من رحيق عينيها حتى ثمل، فذهبت عنه رجفته، بينما شردت أفكاره إلا قليلًا.

- لم أعتَد منكَ أن تنشغل عني وأنا بجوارك.

- عذرًا؛ ولكن نوبة المطر أعادتني إلى أيام الطفولة.

علا وجهه شيء من الكآبة؛ فقد طرقت نوبة المطر ذكرياته الموصدة فأعاد عقارب يومياته إلى الوراء وقال بكمد:

- أنا أكره الشتاء! فقد هزمتني قسوته مرارًا ولطَّخت حياتي أوجاعه، فحمَلتْ ذاكرتي منه جراحًا غائرة.

❀ ✿ ❀

ذهب حسام إلى عيادة الطبيب الذي يتابع حالة والدته ليعرض عليه نتائج الأشعة والتحاليل، أخرجَ مصحفه وقرأ وِرْدَه حتى لا يضيع وقته في الانتظار، ثم راقبَ الطبيب بتوتر وهو يطالع الأوراق بعدما حان دوره، وساوسُ وقلقٌ نهشا صوابه، وأفكار سوداء دفعها ما استطاعَ من فرط حبه لأمه.

رفع الطبيب بصره عن الأوراق التي بيديه ورمق حسام بابتسامة خفيفة.

- لحيتك الكثَّة وسَمْتُكَ الطيب يُنبِّئان عن رصيدٍ رحيبٍ من الإيمان يجعلك ترضخ لقضاء الله وقدره.

استجمع قواه وقال:

- ما الخطب الذي سردت له هذه المقدمة؟

- الوالدة تعاني من سرطان المعدة، والحمد لله إن الورم حميد ولا بد من تدخُّلٍ جراحيٍّ لإزالة الورم.

فسأله حسام وكلماته تكاد تتعثر من هول الصدمة:

- وهل ستكون بخير بعد الجراحة؟

فقال الطبيب:

- الأمل في الله، وغالبًا ستكون أفضل من الحالة التي عليها الآن.

- وكم تتكلف الجراحة؟

- حوالي خمسين ألف جنيه.

امتلك الذعر جوانحه فلا يملك من هذا المبلغ إلا نذر يسير، وبقلب مرتجف سأله عن الوقت الأمثل لإجراء الجراحة، فرد الطبيب:

- اليوم قبل غد، فالتأخير سيزيد الحالة سوءًا بتكرار الأعراض والوهم الذي يصنعه المريض لنفسه.

واستطرد الطبيب كلامه قائلًا:

- الأمر لا يحتاج إلى مصارحة والدتك؛ فالحالة النفسية مهمة وحيوية للمريض، ووالدتك رقيقة القلب، وأخشى من رد الفعل عليها حين تعلم بحقيقة المرض، فربما يكون من الأفضل أن تخبرها بأن ما تعاني منه قرحة المعدة، وستتعافى بعد إجراء المنظار.

ترهلت في نفسه الكلمات وأصابها ثقل فلم تبرح مخارجها. فقام بروح منحنية إلا قليلًا يخطو خلف أوجاعه.

وضعت سالي هاتفها على المنضدة بعدما سئمت من صفحات التواصل الاجتماعي ونشدت لنفسها الراحة قليلًا من ضجيج الأغاني التي فقدت كثيرًا من دماثتها، والتفتت إلى أحلام وقالت:

- أنا فكرت في عروسة لفريد وأظنها ستنال إعجابه.

أخفضت أحلام صوت التلفاز وانتبهت لتعرف مَن وقع عليها الاختيار.

فقالت سالي بشيء من زهو:

- ميرفت صديقتي.

صمتت أحلام ثم قالت:

- بنت جميلة؛ ولكنها متحررة إلى حدٍّ ما، وأخشى من تكرار تجربتي مع والد فريد وينتهي الأمر بالطلاق.

- لم أسألكِ من قبل، ما سر انفصالك عن عمي صبري والد فريد؟

- حبه لي كان شديدًا وسقيته بمثله؛ ولكن نار الغيرة أحرقت علينا بيتنا، حياتي معه صارت جحيمًا، يغار من كل شيء، وأفكاره السيئة كانت تطارد خطواتي، وشكوكه تزداد مع رغبتي في الخروج والتنزه، من فرط غيرته كان يَغار حتى من اهتمامي بصديقاتي، ضجرتُ من تعليقاته

المتكررة على ملابسي وعطري المفضل وطريقة تصفيف شعري كأنه سجَّان! فقررت الانفصال حتى لا أُعكِّر صفو أيامي؛ ولكني أخشى أن يفكر فريد بعقلية والده مع فتاة عصرية كصديقتك فتذبل شجرة الحب، ويكون حظهما كتجربتنا المريرة فيفترقان في أول الطريق.

فقالت سالي:

- تغيرت الأيام وأظن أن فريد يفكر بطريقة مختلفة، فهو شاب متحرر وجريء، وإن كان يظنُّ أن الحرية له وحده فهو واهم.

منَّت أحلام نفسها لعل خطى ابنها تستقيم ويجد في الزواج رشده ويستميل بزورقه على ضفاف المكارم:

- لن نخسر شيئًا، فلنُرتِّبْ لهما لقاءً هنا قريبًا، ولعل الحب يُظلِّل عليهما بذراعيه فنسعد بقُربِهما.

❀ ✿ ❀

خرج هائمًا على وجهه، وهواجس قاتمة تملأ عقله، كأن السماء أمطرته بالصواعق. تمنَّى لو كان والده بجواره ليحمل عنه قهر فؤاده، لم يفكر في زواجه المرتقب، بينما كلمات الطبيب تطن في أذنه عندما سأله عن موعد الجراحة، قال: «اليوم قبل غد، فتأخير الجراحة سيزيد الحالة سوءًا».

غرقت أفكاره في بحر حيرة، ماذا يفعل؟ ومِن أين يأتي بالمال؟

إحساسه بالعجز كاد يقتله، دغدغَ اليأسُ بنيانه فأتى به من القواعد وخرَّ عليه سقف أحلامه وتفرَّق عنه شمل روحه، ورغم الإيمان الذي يغمر قلبه؛ فقد كان هشَّ النفس ضعيفًا لا يقوى على مواجهة العقبات التي تداهم طريقه. ضاق رأسه بالهموم فاتصل بفريد لينوء عنه بهموم روحه وعبءٍ جثمَ على صدره. هاتف أحمد الذي أبدى حزنه على مرض ليلى، وكذلك أبدى أسفه فليس بوسعه المساعدة، فقد وضع ماله الذي ادخره في السيارة الجديدة.

تاهت أفكاره وشردت خُطى قدميه وارتاد شوارعَ ليس له فيها ضالةٌ ينشدها، ثم واصل مسيره دون هدف وطاوعته قدماه على ذلك، فكيف يعود إلى البيت بوجهه القاحل الحزين؟ وبمَ سيخبر أمه؟ وهل سيحتمل أن يراها تتألم مرة أخرى؟ إلى أين يذهب؟ وما الحيلة في الأمر؟

ابتلع طريق الفواجع خطى أمانيه، سرقت منه الأيام ما كان في جعبة قلبه من تطلعات ورغبات وأحلام، فصارت رحى أفكاره ملتهبة كفوهة بركان. أجهده الإعياء من السير طويلًا وأبَتْ نفسه الطعام ومشى بخُطى متكسرة. أوشكت الشمس أن تُدلي بتوقيعها في دفتر الانصراف بعد أن انتهت من عملها، فأوصد باب أحزانه ليصلي المغرب الذي حان وقته.

❁ ✿ ❁

طفل صغير متوقد الذهن، تميز عن أقرانه في كل صفوف التعليم، يعيش في بيت متواضع مع والديه وثلاثة إخوة يكبرونه سنًّا، يفترشون الأرض بالليل ويتدثرون بغطاء واحد، سقف البيت كان من الحطب وفروع الأشجار وقش الأرز، فكانت قطرات المطر تتسلل من ثغراته وتتجمع في بِرَك صغيرة من المياه في أرجاء دارِهم، تسارع أمهم بجمعها في الإناء الذي تشرب منه الدواجن وتسكبها خارج البيت، وقد أخفَت بعض حزم القش في غرفة الحبوب لتضع بعضها على الأرض بعدما تجفف عنها ماء المطر. برودة قدميه تزداد ليلًا إذ إن جواربه المقطوعة لم تقوَ على مواجهة قسوة البرد القادم من زجاج النافذة التي حطمته الكرة التي صنعتها أمهم بوضع الخيوط والصمغ على كرة من البلاستيك، حذاؤه المثقوب كثيرًا ما لطخ قدمه بوحل مياه الشتاء أثناء ذهابه إلى المدرسة أو إلى عمله بالحقول أجيرًا.

وكانت العاصفة الأكبر التي لم تتحملها قلوبهم الصغيرة، حين غطَّى رداء الموت والدهم، بعدما صعد إلى السطح ليصلح سلك الكهرباء الذي طاشت به الريح، فصعقه التيار الكهربائي ولَقِيَ حتفه. والجانب

الشرقي من دارهم ترنح في وجه العواصف ثم انهار كمدًا، كأن المصائب لا تأتي فُرادَى! صنع لهم أهل القرية من الأَجوِلة القديمةِ جدارًا بديلًا ليناموا في ستره.

كانت والدته تخرج للعمل في حقول الجيران؛ لتحميهم من بطش الجوع ومذلته، وتربي الدواجن وتبيعها في السوق، ظلت تكافح حتى اشتد عود أبنائها واحدًا بعد واحد، وخرجوا يسعون إلى رزقهم وفي المساء يتدثرون بلحاف واحد، إلا هو؛ كان يلجأ إلى حضن أمه التي كانت ترعاه في صحوه ومنامه، بعدما رأت في منامها أنها تحمل أربع بيضاتٍ فوقعت أصغرها وتدحرجت وانكسرت.

أغناهم الله بقوة سواعدهم بعد سنوات الجوع والحرمان، فادخروا المال واشتروا بقرةً شربوا من حليبها ونهلوا من خيرها، فكأن الدنيا مسحت على بطونهم بكفٍّ خضراء. وذات يوم انفلتت البقرة من عقالها والأبناء في عملهم، فأسرعت أمهم تلهث لتأتي بها، فسقطت قدمها في وحل الشتاء ولم تقوَ على النهوض بجسدها الثقيل، أقبل جرار زراعي تفادَى سائقه الاصطدام بالبقرة الهائجة المنفلتة، فدهس فيها أحلامها الصغيرة وقطع وريد الغد الأفضل التي منت به نفسها، وسرى دمها في

الطين، وكأن أمهم ضحت بنفسها ليبقى لهم زاد بطونهم، فعادت حياتهم كئيبة كأن لصًّا طافَ بدارهم وهُم نِيام فسرق حُطام أرواحهم.

كانت تلك ذكريات عادل المؤلمة مع الشتاء، فلما أكمل طعامه وامتلأت عيناه بالدموع.

❀ ✿ ❀

دخل غرفة الإمام بعدما انتهت صلاة المغرب، ألقى السلام على شيخه وجلس.

تلمح خالد بؤس عينيه فأشفق على حاله وقال:

- لعلها المرة الأولى التي أراك فيها حزينًا هكذا منذ وفاة والدك، فما الخطب الذي ألمَّ بك يا صديقي؟

وقبل أن يستجمع حسام قواه اقتحم الغرفة مسعد عامل المسجد، فطلب منه الشيخ إعداد كوبين من الشاي، ومن صوت حسام الذي خالطه البكاء لم ينتبِه مسعد لكل التفاصيل الصغيرة التي حكاها، عكس الشيخ الذي انتبه جيدًا وقال:

- عشرة آلاف كانت معك لتشتري غرفة نوم جديدة قبل زفافك، ادَّخرَتها الوالدة من قبل لأداء العمرة، وعشرون ألفًا سيقرضها لك فريد، وتبقى مثلها.

فقال حسام بنبرة حزينة:

- كأني لا أرى أمامي، حالة والدتي سيئة وأنا عاجز عن أن أصنع لها شيئًا ولا أدري كيف التصرف.

فقال خالد:

- ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٍ﴾، لا تحزن، سيُدبِّر الله أمركَ من فوق سمواتٍ سبع.

فقال حسام بعدما انهمرت دموعه:

- ما تركت أحدًا من أقربائي إلا وطلبت منه العون، أغلق الجميع أبوابهم دوني.

فقال خالد:

- أحسِن الظنَّ بالله، فباب الله لا يُغلَق، والناس لا يملكون من الأمر شيئًا، فلا تُعلِّق قلبك بأحد، ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ٥٨﴾ ووالله لو كنتُ ادخرت للأيام شيئًا ما حجبتُه عنك، حتى حصاد زرعنا في القرية بقيَت عليه ثلاثة أشهر؛ ولكني لن أملَّ من الدعاء لك ولوالدتك بظهر الغيب.

جفف حسام دموعه وقلبه ينفطر بحرقة:

- الحل الأخير الذي هداني تفكيري إليه هو أن أبيع الشقة وأنتقِل إلى سكن بالإيجار.

ربت خالد على كتفه:

- بيتك لن يسكنه غيرك، فهو لك ولأبنائك من بعدك إن شاء الله، فلا تتعجَّلْ وتريَّثْ ولعل الأيام تحمل لك في الغد فرجًا. وضع يديه على

كتفيه وتأمل مناحته وقال بنبرة حكيم عجوز: «على درج الحياة عتبات بالية، فإياك أن تتعثر بها، فالحياة لا تخلو من تصدع وانزلاق وعتمة. ففوض الأمر لله ولا تُبال، وتملق ربك وقت السحر وتضرع له بدموعك عساه يرحم عبرتك».

تمزق أوتارك الفواجع وتبعثرك المواقف، ثم تجد يدًا حانية تمتد إليك وتعيد ترتيبك على الوجه الأكمل..

❀ ✿ ❀

أغلق هاتفه واتجه إلى السيارة وأدار محركها ونفث دخانه بغضب، وقرر الذهاب إلى بيته ليضرب زوجته التي أغضبت أمه، ثم قرر أن يكتفي بتعنيفها أمام الأبناء؛ ولكن لن يطيبَ لأمه صنيعُه هذا، فسرعان ما تصفح وتنسى وربما وجدت في نفسها شيئًا. زفر بحدة ومسح على صلعته ثم عدل عن رأيه وقرر أن يفاتحها في الأمر عند عودته في المساء بغير ضجيج. نزل من السيارة وأشار إلى خليل فأتاه مسرعًا وطلب منه أن يشتري له زجاجة خمر ليستعيد صفو روحه.

تردد خليل ثم أخذ المال من يده، واستدار وهو يفكر في اللعنة التي ستلحق به، فكر أن يمتنع عن جلبها له ويرفض طلبه؛ ولكن الطعام الشهي الذي أعطاه له أمس ما زالت لذته في حلقه، وما تبقى من المئة جنيه سينفق منها أيامًا على أولاده. أجهزت شرارة الغضب التي برقت في عين فؤاد على جموح نفسه، فمضى في طريقه واجمًا متعكر الوجه بهامةٍ منكسرة وفي قلبه غُصة من جبروت فؤاد؛ ولكن من عدا على ظهرك لا تلمه، فربما انحنيت له أولًا..

❀ ✿ ❀

دلف سيد المكتب ليخبر جلال بأمرها فأذِنَ لها بالدخول، فتاة خمرية تعرف عليها جلال في حفل زفاف أحد أصدقائه، تصغره بسنوات، في دراستها الجامعية لم تزل. رأى فيها جاذبيةً خاصةً وأنها مختلفة عن زوجته السيدة المحافظة التي يمنعها الحياء أحيانًا من التدلل ومخاطبة رغباته.

كل علاقاته العابرة مع النساء من قبل لا تتجاوز مدى الأيام القليلة؛ ولكن هذه المرة توهج غرامه بها في الأشهر الستة الماضية، حدثه قلبه بالارتباط بها لتشبع نفسه من عبير أنوثتها، فقد كانت بمَكْرها تجعله فقط يرتشف منها، فربما لو تجرَّعَها مرةً واحدةً للَفَظَها كغيرها، فقد جذبها بريق ماله ووسامة تحتفظ بها ملامحه.

أغلق سيد باب المكتب وعاد إلى حسام.

- إن شاء الله ستجد الفرج قريبًا ولن تحتاج إلى بيع بيتك، ووالله لو كنت أدخرُ للأيام شيئًا لأتيتك به بطيب نفس؛ ولكن اعذرني فلا أملك لك إلا الدعاء.

ومضى ليأتي له بكوب عصير، فوقع بصره على أشرف، فوجده عاكفًا على هاتفه فنظر إليه باشمئزاز واقترب منه:

- لمَ لا تشاركنا الخطب بمشاعرك، وتنفعنا ولو بدعائك؟

رفع أشرف حاجبه وقال بتبلد حاد:

- ما لي والهموم؟ دع الهمَّ لصاحبه، فلا تُعكر عليَّ صفوي وائتني بقهوتي المفضلة.

في حادثة الإفك دخلت امرأة من الأنصار على السيدة عائشة وجلست تبكي معها، ثم خرجت دون أن تتكلم، فقالت عائشة «والله لا أنساها لها ما حييت»، وما كانت إلا دموعًا، بينما لم يكن أشرف يحمل أوجاع غيره في قلبه جبرًا لخاطرهم، فقد كانت مشاعره في عُطلة مفتوحة، كما بدت عليه أعراض نقص حاد في المروءة، وعلى عهده بنفسه كان، زهد في الدنيا إلا من دنسها، رضي لروحه أن تبقى في الوحل، وكذلك جوارحه به تلطخت، بقايا خافتة من جذوة ضميره لم تُفلِح في ردِّه عن غيِّه، فحيثما سارت به سفينة أهوائه رسا معها على أي شاطئ. جرب الزواج مرةً فلم تحل له العفة، فتفتت رباطه المقدس، أخذه الحنين إلى الوحل فتمرغ فيه وغرق حتى أذنيه. تعرف في شبابه على ساقطة من سكان الحي الذي فيه يسكن، فسقط معها وتردَّى، ادَّعَت عليه بأنه أشعل عود الثقاب، فكيف لشرفها أن يحيا وألسنة الناس ستخدشه بالطعن والهمز؟ طلبت منه الزواج ليستر ما بقي من سمعتها فصفعها؛ فهو يعلم حقيقة أمرها، فقد تربَّتْ على يد الشيطانة زوجة أبيها سيئة السمعة من

قبل. انفلت منها وتركها وبقيت لعنة السقوط تطارده، فشل بأريحية في زواجه، ولم تتهيأ نفسه لتكرار الأمر.

خطا سيد ناحية أشرف وناوله قهوته، وناول حسام عصير الليمون، فارتشف منه قليلًا وسأله عن ياسر الذي تأخر على غير عادته، فأخبره سيد بإعداده لحفل خِطبته الخميس القادم.

خرجت الفتاة الخمرية من الباب الرئيسي، صادفها الشيخ خالد فغضَّ بصره عنها ونظر إلى العاملين بالمكتب، وقطب وجهه حين وقعت عيناه على أشرف دون مبرر لذلك، فلم يكُنْ بينهما حديث من قبل؛ ولكنه كان يشعر بالنفور منه دون سابق تعارف بينهما، فقد كان نقيَّ البصر والبصيرة، فمن غضَّ بصره لا تُخطئ له فراسة.

أشار له سيد بالدخول وذهب إلى حسام ليخبره بقدوم صديقه، فتعجب من الأمر قائلًا:

- كنت معه أمس ولم يخبرني بهذه الزيارة!

❀ ✿ ❀

استيقظ عادل من نومه فوجد عقارب الساعة تزحف نحو العاشرة، على غير عادته استيقظ مبكرًا، هند بجواره تغطُّ في نومها، فقبَّلها بين عينيها كأن القُبلة ألهبَتْ حرارة جسده، فأطلق ليده العنان تنحدر وتعلو على ربوعها، وزع قبلاته على خديها وارتشف من عبير أنوثتها، سكبَ غرامه في فمها، فما انتهى حتى نزع كلمة «حبيبي» منها، ولما رأت في هاتفها أن الوقت ما زال مبكرًا، تعجبت وسألته عن صحوه المبكر.

- رأيتُ في منامي ما أزعجني وأفرغ عيني من نومها.

توجست هند وقالت: حدثني عن رؤياك.

- رأيت أن بين يدي سمكة أكلت منها القليل، ثم أخذها رجل يرتدي ثوبًا أبيضَ وظل يأكل منها. ما تأويل ذلك؟

فقالت هند وهي تُبعد شعرها قليلًا عن عينيها:

- لست أدري، ربما كانت أضغاث أحلام. وأنت تحكي لي أمس عن ذكريات طفولتك لم تُكمل طعامك، لذلك حلمت بالطعام في منامك.

اضطربت نفسه لرؤياه وشردت منه أفكاره في جانب مظلم. فأحيانًا تسافر الكوابيس عبر الزمن وتأتي برسائل مزعجة.

نأى بالحديث في اتجاه بعيد حتى لا يُعكر صفوه وقال:

- على ذكر الطعام، أريد أن أدعو شقيقكِ أحمد ليتناول معنا الغداء اليوم.

- وما سبب الدعوة؟

- أريد معونته في أمرٍ ما.

قالت هند في مكر أنثوي شهي:

- وما هو ذاك الأمر يا عمري؟

حدثها عادل بتودد طفل جلس بجوار أمه ليستل مالها:

- سأخبره في حضورك يا قمري.

❀ ✿ ❀

أمسك جهاز التحكم وأشار به نحو «التكييف» فقد كان اليوم حارًّا، وعلَتْ ملامحه بوادرُ غضبٍ لم تنضج بعد:

- أنا لا أدير جمعية شرعية، والعمل لا يعرف الخواطر، هو موظف كفء وملتزم، ما الذي يجبرني على إقراضه عشرين ألف جنيه؟! فليذهب إلى جمعيات البر والإحسان.

فقال خالد وابتسامته تملأ وجهه:

- وأنت أهلٌ للإحسان أخي جلال، سيوقع لك على كل الضمانات التي تطلبها، وتوقيعي قبل توقيعه لتكون مطمئن البال. في خلال سنة سيكون قد سدد القرض بعد خصم نصف راتبه كل شهر.

فقال جلال والحرج يتملكه:

- أنا لا أعرف ما أقول؛ لكن حيائي منك يمنعني من رفض طلبك.

تهلل وجه خالد ممتنًّا وقال:

- الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، جعل الله قضاء حوائج الناس على يديك وجبر بك خاطرهم، فمن يفزع الناس إليهم لقضاء حوائجهم أولئك الآمنون يوم القيامة، بشرى من الله لأهل المروءة بالأمان، يوم تشيبُ الولدان.

فقال جلال:

- سأرتب معه الأمر. واستطرد في حديثه قائلًا:

- اتصلت بك أمس في الثانية ظهرًا وكان هاتفك مغلقًا.

ابتسم خالد قليلًا وأفصح عن سبب ذلك قائلًا:

- أجرٌ ساقَه الله إليَّ، فقد اتصل بي أحد أصدقائي لأحضر غُسْل ميت معه. خيرًا، فيمَ كان اتصالك؟

- بشأن فتوى.

فقال خالد:

- وعن أي شيء كنت تستفتي؟

فقال جلال وهو يتظاهر بالبراءة والعفة:

- أحيانًا تداهم مكتبي إحدى السيدات وتمد يدها تصافحني فأمتنع، فتكون مستاءة إحداهن وأخرى تشعر بالخجل، فأُنكِر على نفسي ما صنعت.

وقر خالد فيه تعففه الذي يدعيه وقال:

- أخي جلال، الشرع نهى عن مصافحة النساء سدًّا للذرائع، فما تفعله هو الصواب بعينه، ثبتكَ الله ودمت أهلًا للفضل والفضيلة.

❀ ✿ ❀

مضى خليل في طريقه إلى المطعم يحمل بين يديه خطيئته، وخياله يرسم له عقوبة الله له، هل تأتي في بدنه أو حياة أحد أولاده أو زوجته الطيبة؟ أم يخر عليهم سقف البيت المتصدع؟! توقفت خطاه في منتصف الطريق وقرر العودة إلى محل الخمور لينزه نفسه ويرد زجاجة الخمر ويستعيد المال، فلِمَ الصبر على كل هذا ويعرض نفسه للطرد من رحمة الله؟ لِمَ لا يترك العمل ويبحث عن بديل كما قال له الشيخ؟!

ولكن حتى يجد عملًا بديلًا، من أين يأتي بنفقات أولاده والبيت المتهالك والإيجار المتأخر؟ سدود منيعة تحول بينه وبين رغبته في ترك العمل، صرخات أولاده من الجوع زاحمت أفكاره وحديث نفسه. دفع كل هذه الأفكار من رأسه واستردَّ المال الذي دفعه، غسل يديه من ذنبه وطهَّر قلبه من امتعاضه، وعاد ليواجه بريق الغضب في عين فؤاد. استشعر راحة تملأ صدره وهو يردد: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ﴾.

شعر بأنه قد تأخر كثيرًا في اتخاذ هذا القرار وأراد أن يعبر الطريق إلى الرصيف المقابل بعد أن لفحت الشمس وجهه وهو يحلم بعمل جديد فيه البركة ورضا النفس، فقد تحررت يداه من ذنبه الذي حمله وغلبت راحة

قلبه توتره ورجفة أفكاره، وإذ بسيارة مسرعة دهست أحلامه وبعثرت أمانيه من حوله، وأجهزت على نبضه بوحشية وصبغت الأرض بدمائه وولت هاربة.

❁ ✿ ❁

جلست أروى في فراشها وقد التفت يداها حول ركبتيها، قدمت لها عفاف الكاكاو الممزوج باللبن وأغلقت الباب وانصرفت، حان أنسب الأوقات للتفكير كما ظنت؛ إذ إن الزوج العاشق في عمله والأبناء في المدرسة، نثرت أفكارها أمام عينيها وقلبت فيها بحثًا عن طوق نجاة تحافظ به على بيتها، وتعيد زوجها من براثن نزوة ممتدة تخشى توابعها، تماوجت أفكارها فغاصت في أوهام ومخاوف على مستقبل بيتها، فبحثت عمن تبثه شكواها ليشاركها التفكير ويبحث معها عن حل، فكرت في كل صديقاتها ولكنها أبت الحديث معهن؛ حتى لا تفشي سر زوجها الذي ينظر إليه الجميع بعين التبجيل والتوقير.

تركت الكوب الدافئ وخرجت من الغرفة وقررت أن تتكلم مع عفاف في الأمر؛ فهي امرأة مثلها ولعل عندها تجد النصيحة.

كانت عفاف قد تجاوزت الخمسين من عمرها، عملت بعد وفاة زوجها الثاني بائعةً في محل ملابس عشرَ سنين، ومنذ ثلاثة أشهر أتى صاحب المحل بفتاة حسناء بدلًا منها، فأتت بها أروى لكبر سنها إذ تعلم عن زوجها شغفه بالنساء.

وجت إلى المطبخ وتظاهرت بأنها تتابع ما تصنعه، ورفعت أغطية أواني الطعام ثم تنفست منتشيةً برائحة الطعام.

- الطعام جميل كالعادة، سلمت يداكِ.

ابتسمت عفاف وامتنت لثنائها وقالت:

- طيب الله خاطرك.

- وكيف حال ابنتكِ جيهان مع زوجها؟

فقالت وهي ترتب الأطباق التي انتهت توًّا من غسلها:

- تعيش في سعادة والحمد لله.

فقالت أروى:

- هل يشوب علاقتها بزوجها ما يُعكِّر صفو الحياة؟

اعتزت عفاف بحكمة ابنتها وقالت مفتخرة:

- جيهان عاقلة وحكيمة، لا أقول ذلك لكونها ابنتي؛ ولكنها تعرف كيف تدير دفة الأمور وتتجاهل أحيانًا لتستمر الحياة، فهي تحب زوجها وتعلم جيدًا كيف تحافظ عليه.

فسألتها أروى:

- وهل زوجها يحبها حقًّا؟

قالت:

- نعم، أكثر مما تحبه.

فقالت أروى:

- ولكن بعض الرجال يدَّعون الحب ليخدعوا زوجاتهم، ولهم علاقات محرمة ونزوات كثيرة، والزوجة الغافلة لا تعلم عنها شيئًا أو تعلم ولا تدري كيف التصرف الأمثل في مثل هذه المواقف.

سردت عفاف ما ظنته مبررًا لخيانة الرجل زوجته:

- أحيانًا الزوجة هي التي تدفع زوجها إلى خيانتها.

كأن أروى قد التقطت طرفَ الخيط الذي تبدأ به ما يؤرق مضجعها بتكتم وسألتها:

- كيف ذلك؟

وهي تظهر عدم الاهتمام بالأمر، فتحت الثلاجة وأخرجت تفاحة وقضمت منها كأنها غير مكترثة بالأمر، وقد أخضعت جوارحها لتسمع بنهم.

قالت عفاف:

- تتعلق أعين الرجل بكل امرأة جذابة جميلة، فيتمنى أن تكون هذه المرأة الساحرة بأنوثتها وتبخترها ونظرة عينيها رهن إشارته، فلكل امرأة

طابع خاص من الفتنة، فإذا عاد إلى بيته ورأى في زوجته كل النساء اللاتي تمناهن؛ سيكتفي بزوجته وينعَم بها.

فقالت أروى:

- وإن لم يجد في زوجته ما أبهره في غيرها؟

فقالت عفاف:

- هناك أمران لا ثالث لهما؛ أن يكتفي بزوجته على مضض ويتحسر، أو ينجرف وراء نزواته إن لم يردعه ضميره.

قضمت من التفاحة ثم حدجتها ببصرها وسألتها:

- كيف بوسع المرأة أن تقنع زوجها بالاكتفاء بها؟

فقالت عفاف:

- أن يراها متجددة دائمًا ليسكن لها قلبه، ويكون حظه منها التدليل، فالرجال أطفال كبار، ومهما بلغ بأس الرجل فهو يلتمس من زوجته الرعاية.

تبقى المرأة لزوجها كالشمس يعشقها ساعة ويرفضها ساعة؛ ولكن لا يستغني عنها، وحاجته لها لا تنقطع، ليس للفراش فحسب؛ لكن على الدوام.

سألتها أروى وانتظرت الإجابة بشغف:

- وكيف تتجدد المرأة في عين زوجها؟

فقالت عفاف:

- الرجل يحب أن يرى زوجته مثيرة، تلهب مشاعره بالكلمات واللمسات ولا تكون تقليدية، والمرأة العاقلة تقوم في حياة زوجها بكل الأدوار، فتارة تكون زوجة وتارة تكون عاشقة ولهانة، وتارة تكون أمًّا حنونًا. وأريد أن أصارحكِ بشيء ولكن لا تغضبي من صراحتي.

وضعت أروى ما تبقى من التفاحة من يدها على المنضدة وقالت:

- لن أغضب فربما ينفعني كلامك، فمن عبر البحر ليس كمن وقف بشاطئه، وربما صهرتك التجارب أكثر مني.

وأبدت اهتمامًا بالنصيحة القادمة.

- ملابسك في البيت محتشمة وغطاء رأسك لا يفارقه، ولعلك متحفظة كذلك في العلاقة الخاصة مع زوجك. أنا لست ملمة بأمور الدين، حتى صلاتي لا أحافظ عليها؛ ولكني سمعت شيخ المسجد المجاور لمحل الملابس الذي كنت أعمل به يقول وما زالت ذاكرتي تحتفظ بكلماته جيدًا: «لا حياء بين الرجل وزوجته، ولا حدود للمتعة إلا بما ورد تحريمه». ولقد تزوجتُ برجلين، كل منهما كانت له سجية مميزة ومزاج

مختلف ورغبات خاصة لم أقابلها بالرفض مطلقًا، مع حرصي على تهيئة الجو المناسب، وقد كنت بارعة في علاقتي دون أدنى تحفُّظ، فالعلاقة الخاصة بين الرجل وزوجته إن شابَها الحياءُ أفسدت عليهما طعم الحياة.

وطال الحديث بينهما حتى عاد عمر وسارة من المدرسة.

❁ ✿ ❁

دقَّ هاتف حسام فكان على الطرف الآخر زميله ياسر يدعوه لحفل خِطبته، فاعتذر حسام عن الحضور وتعلل بمرض والدته التي حدد لها الطبيب اليوم لإجراء الجراحة.

صلى ركعتي قضاء الحاجة وأطال سجوده ودعا: «يا رب أسألك باسمك الذي ملأ أرجاء العرش أن تعافي أمي وتكتب لها السلامة».

زكريا وصفاء أصرَّا على الذهاب معهما، جلس الثلاثة في انتظار ليلى التي مكثت في غرفتها تبكي، احتضنت صورة زوجها وضمتها لصدرها برفق، تمدد نظرها في زوايا الغرفة كأنها تشيعها الوداع الأخير، فكان يُساورها قلق بخطورة الجراحة مع أن حسام أخبرها أنها مجرد جراحة بسيطة بالمنظار.

قرَأتْ أكثر من جزء وصلت ركعتي قضاء الحاجة ودَعَت بدموعها، وغاب قلبها في سجدة طويلة ضارعًا بين يدي الله، تأملت الأركان فدار بخلدها الماضي الجميل، فأمطرتها الذكريات بالحنين لزوجها وقامت تودع بقاياه، فتحت خزانة ملابسه التي اعتادت كل جمعة من بعد وفاته غسلها وكيَّها، أخرجتها قطعة تلو الأخرى تضمها لصدرها وتبكي، كأنها تبحث عنه ليكون إلى جوارها في هذا اليوم العصيب. أشياء عليها

الدهر قسَا ما زالت تحتفظ بها من عهد زواجهما، حتى إن حذاءه كانت تضع عليه الورنيش في كل حين ليحفظ رونقه، قارورة عطره تنسمت منها حنينًا يعتريها دومًا، رمقت متاعها وكأنها تودعه فكانت تخشى أن يكون ذهابها بلا عودة.

دق حسام الباب فبدت متماسكة، فأحيانًا تكون الشجاعة هي أن لا تُفصح عن خوفك، أعدت بعض الأغراض لتأخذها، وضع حسام قبلة على جبينها وأحاط بذراعه كتفها، وكل منهما يهمس في صمت: «يا رب».

ذهبا إلى الصالون ليحتسيا الشاي هناك بعد هذه الوجبة الدسمة، صنعت هند لنفسها مشروب النعناع الذي تفضله ولحقت بهم.

فقال أحمد وهو يحتسي قهوته:

- ما الذي طرأ في أمر سفرك؟

- حجزت تذكرة العودة الثلاثاء القادم إن شاء الله.

تعجب أحمد وقال بشيء من الغرابة:

- وطلب مد الإجازة الذي أخبرتني بقبوله؟

تبرمت كلمات عادل في مطلعها:

- وافقت إدارة الشركة في البداية ثم مرِضَ ابن أحد الزملاء وسافر ليطمئن عليه، فاعتذروا عن قبول طلبي. ولا أخفيك سرًّا؛ بدأت أفكر جديًّا في وضع عصا الترحال، فالحياة قصيرة فما داعي أن تلتهم الغربة أيام عمرنا؟ ومجال العمل هنا مفتوح حتى لو كان الراتب أقل، فالغربة مريرة وحنيني فيها إلى موطني لا ينقطع.

رمق هند بعينيه فابتسمت في خجل، وتظاهر أحمد أنه لم ينتبه لهذه الترنيمة الغرامية بينهما، واسترسل عادل في حديثه بكلمات نطقت بها عيناه وهو يرمقها: «أحتسي من عبيرك وأنا أتأملك فأطرح كل سخافات

العالم تحت قدمي، وأقرأ نشرة أخبار الاشتياق في عينيكِ فتنعم الأرض بالسكينة، حبك موطني ولو بيدي لأوسعت العالم بها لحنًا لقصتنا، سوف نبقى هنا في حضرة عينيك ليحلو نغم حياتي ويزول جدار الألم»، أفصحت كلماته الرامية إلى أحمد عن سر دعوته:

- أريد مساعدتك في عمل من أعمال الخير.

فقال أحمد:

- ليت بوسعي ذلك، فما ذاك الخير الذي تنتويه؟

- معي مبلغ من المال، وأريد أن أتصدق به على الفقراء.

فقال أحمد:

- من يتسولون تضج بهم الشوارع، اخرج وضع المال بنفسك في أيديهم.

فقال عادل:

- لم تَعِ مرادي، أنا أريد أن يصل المال إلى أهل التعفف ومن لا يسألون الناس إلحافًا ويعيشون في فقر حقيقي، أما من اتخذ التسول مهنة فلا حاجة في نفسي إلى كفه الممدودة.

شرد عادل بذهنه قليلًا، واستعاد ذكريات طفولته والبيت ليس فيه طعام والجوع يكاد يفتك به وإخوته، ووالدته تأبى صدقات الجيران أو فضال طعامهم.

عاد من شرود أفكاره على قول أحمد:

- اذهب بالمال إلى أهل قريتك وفتش جاهدًا عن الفقراء بينهم.

ابتسم عادل قليلًا وقال:

- شجرة تحجب ظلها عن ذويها فلتسحقها المعاول، يا صديقي سامحك الله! وهل هذا الأمر يفوتني؟ خُذ المال وتصدق به كما تشاء، ألا تبتغي الثواب؟! كانت أمي تحدثني وأنا صغير بأن اليد التي تناول الصدقة لها أجرٌ كمَنْ تصدَّق، فاذهب واحتسب خطواتك لله.

ناوله عادل خمسة آلاف جنيه فوضعها في جيبه.

- أنا لا أعرف أحدًا بعينه؛ ولكني سأجعل إمام المسجد المجاور لي يتصرف في الأمر.

وهنا قالت هند:

- أليس هذا الإمام من «العاملين عليها»؟

فأخرج عادل من جيبه خَمس مئة جنيه وقال:

- هذه خاصة بالإمام.

❁ ✿ ❁

عاد جلال إلى بيته في المساء، سيرة الحب التي تشدو بها كوكب الشرق تفوح شذى كلماتها في أرجاء البيت، أرسلت أروى الأبناء ليبيتوا عند جدتهم، أعدت الطعام الشهي بنفسها بعد أن أعطت الخادمة إجازة اليوم.

ألهبَت شفتيه بقبلة حارة بعد أن هيأت نفسها لوصاله بثوب يغازل أنوثتها، كانت تقتني في نفسها وشاحات عتيقة من الحياء واليوم تخلت عن بعضها، جلست على فخذيه ورمقته بنظرة ضالعة ذهبت ببعض فؤاده، دغدغت مشاعره بسحرها كأنها عاشقة أتى بها من ملهى ليلي.

كأنه يحلم فظل يتأمل أركان البيت ليدرك الحقيقة التي أخذت بعقله، خلع بعض ملابسه التي يستدفئ بها في الشتاء، كأن اللهيب الذي أشعلته في جوانحه يكفي لإذابة الجليد.

أحاط خصرها بيده واتجها إلى غرفة النوم، فأشارت إلى المائدة وجلست تطعمه بيدها ويدور بخلده: «أين كان هذا الإيقاع الرومانسي منذ عهدنا الأول؟!». فلو وجده من قبل ما تدنس بنزوة، كيف تغيرت بين يوم وليلة؟! سنوات عشر مضت على زواجهما لم يرَها ساحرةً كهذه الليلة، حتى عصير الليمون الذي ينعشه مذاقه لذيذ غير سابق لياليه!

وضع الكوب الفارغ بجوار الفراش، فاستلقت على صدره تمسح بيدها عفن كل الساقطات اللاتي مررن من هنا. التحف بها وكلما خمدت شهوته كانت تُلهب مشاعره لتثور وتفور، توهجت حواسه بعبير أنوثتها، جريئة كانت في عزفها معه لتلك الوصلة الغرامية، ذهبت معه في قبلة بعيدة لو علم بها العشاق لطرحوا ليالي غرامهم في اليم.

لملمت حروفًا من لغتها حين تجتمع تقتل وبادرته بسؤال:

- مَن أجمل، أنا أم هي؟

وهنا انحبست أنفاسه، وقال متوترًا:

- من هي؟!

همست بصوت رخيم:

- أروى الليلة أم أروى الليلة الماضية؟

فالتقط أنفاسه وداهم صرح أنوثتها بما بقي فيه من قوة، ولثمها بقبلة حارة توسلت عنه لتخطيه سؤالها الماكر. ثم رمقها بنظرة والهة، فربَّ نظرة شافعة!

❀ ✿ ❀

استقل الشيخ خالد سيارة أجرة ذاهبًا إلى حي «إمبابة» بعدما أخبره أحد أصدقائه بوجود خمس حالات وفاة في حوادث متفرقة في مستشفى الحي، وهم في حاجة إلى مساعدته في الغُسْل والتكفين.

شرع في الغسل فانتبه لملامحه المستكينة فقد رآها قريبًا، استجمع ذاكرته حتى يصل إلى ضالته التي عاجلتها يد الردى. أجل هو، العامل الجديد في مطعم فؤاد!

تذكر الحديث الذي كان بينهما، انتهى من مهامه وحمل الرجال الجنازة على أعناقهم ليذهبوا بها إلى المسجد.

سمع أحد المشيعين يقول:

- تغمدك الله برحمته يا خليل وتولى أمر أولادك، ليس لهم من يعولهم.

اقترب منه خالد وسأله:

- وأين أهله وذووه؟

فأجابه مغتمًّا:

- أهله يعيشون في الصعيد، فقد أتى به أبوه منذ عشرين سنة من سوهاج؛ فرارًا من الثأر. مات والداه وكان له أخ وحيد، سافر إلى ليبيا منذ سنة وقد انقطعت أخباره، والبعض يقول إنه قد مات.

فقال خالد:

- رأيته يعمل في الأيام الماضية في مطعم أسماك، فما كان عمله في السابق؟

- كان حرفيًّا ماهرًا يعمل في ورشة بلاط، فلما انتشرت صناعة الخزف والرخام وحازت رغبة الناس؛ توقف نشاط الورشة حتى أغلقها صاحبها.

- وهل أولاده بوسعهم العمل والكسب؟

سأله خالد ليطمئن على أطفاله، فأجابه الرجل وقد أبى الغم أن يدعه:

- ابنه الأكبر دون السابعة.

- وهل تعرف داره؟

فأشار الرجل إلى الدار التي التحفت بالحداد، ولم يتوقف الحديث بينهما عن أسرة خليل حتى وصلا إلى المسجد.

❀ ✿ ❀

انتهت الجراحة بعدما استغرقت ثلاث ساعات.

تنفس حسام الصعداء وأبت قدماه أن تستريحا من قبل بدء الجراحة، توسطت رباب جلستها بين سهير وصفاء، بينما ذهب زكريا ليجلس على المقهى.

أخرج الممرضون ليلى إلى غرفة الإفاقة، فاطمأنت قلوب محبيها.

ناشدهم حسام بالعودة إلى منزلهم، وتحت إلحاح منه اصطحب زكريا زوجته وابنتيه ليغادروا المستشفى، صادفهم فريد عند باب الخروج فحياهم وتوارت رباب خلف أمها. طمأنه زكريا أن ليلى بخير، وأرشده إلى الدور الثالث حيث تقيم.

أطفأ فريد لفافة التبغ، وخطى ناحية حسام الذي دس وجهه بين كفيه، ربت فريد على كتفه، فقام حسام وعانقه وأجلسه بجواره.

- سيعافيها الله وتكون بخير فلا تقلق. وربت على كتفه مجددًا: أنا على يقين أنك لم تأكل منذ الصباح.

فتح فريد أكياس الطعام التي أتى بها وناول حسام وأكل معه ليشجعه، ولم يتوقفا عن الطعام إلا بعد سماع صراخ وعويل، ففزعا ونهضا من مكانيهما، وضع حسام يده على صدره خشية أن يداهمه قدره

بفاجعةٍ تنوء بها نفسه، تحرك فريد نحو الصراخ ليعلم الخطب، فعلم أن أحد المرضى قد تُوُفِّيَ أثناء الجراحة فاشتد نحيب أهله عليه.

أعاد حسام قلبه المخلوع إلى ضلوعه واستكانت أنفاسه ورمقه فريد بنظرة تُخفي خلفها أمرًا:

- اعذرني، فربما يكون الوقت غير مناسب، حفل خِطبتي غدًا، الأمر أتى بسرعة عجيبة، فاعذرني مجددًا.

- ومن العروس؟

- زميلة أختي في الجامعة.

- وهل أخبرت أباك بالأمر؟

أومأ فريد برأسه وافترشت وجهه مسحة من حزن وقال:

- نعم؛ ولكنه لن يأتي، فقد أصابته وعكة مفاجئة.

اعذرني، كنت أود أن أقضي الليلة معك؛ ولكني مشغول ببعض الأمور.

حاول حسام جاهدًا أن لا يُفسد عليه فرحته وتظاهر بالغبطة له:

- لا عليك، فقد اتصل بي أحمد وأخبرني أنه سيأتي في التاسعة مساءً وسيقضي الليلة معي.

❀ ✿ ❀

جلست أروى على أريكتها في بيتها وقد تحررت من حجاب رأسها وارتدت ملابس وردية مبهجة. أمسكت بهاتفها الجوال وطلبته.

- السلام عليكم ورحمة الله، شيخ خالد كيف حالك والأولاد؟

- جلال بخير والحمد لله.

- كنت أريد منك بعض أسماء كتب عن السعادة الزوجية وفن تربية الأبناء لأشتريها.

وصمتت قليلًا..

- أكون شاكرة لك، ولكن مع من سترسلها؟

- نعم لقد عاد يوسف أخي من عمله أمس.

- حسنًا سأرسله لك غدًا.

وضعت الهاتف من يدها.

كانت عفاف بالقرب منها تمسح الأتربة من على التحف واللوحات المعلقة على الجدران، نادتها أروى وطلبت منها أن تجلس لتستريح.

- لم تخبريني ما سر انفصالك عن زوجك الأول والحب بينكما كان جارفًا كما أخبرتِني.

- حدثت ظروف لا دخل لنا بها.

- إن لم يكن الأمر سرًّا، ما هذه الظروف التي فرقت بينكما؟

نخرت في قلبها قسوة الذكريات فاشتد وجومها ثم قالت بعد صمت:

- مات شقيق زوجي وترك أولادًا صغارًا، فأراد زوجي أن يتزوج أرملة أخيه ليتولى تربية الأبناء؛ ولكني امرأة شديدة الغيرة فأبيت أن تكون لي ضرة تشاركني قلب زوجي، وأصر هو على رأيه، فلم يكُنْ لنا خيار غير الطلاق.

- وهل كان الأمر سهلًا عليك؟

أطرقت عفاف رأسها وتنهدت بأسى واختبأت في أحد أركان عينيها دمعة مكابرة وقالت:

- شعرت بالندم بعض طلاقي، أبيتُ أن تزاحمني في قلبه أخرى فخسرته إلى الأبد. ربما كانت حماقة مني ولكن سرعان ما نسيت، فذاكرة المرأة تنبع من قلبها، واليوم الذي يشغلها لا الأمس، وقد وهبني الله مسحة من الجمال، فتزوجني مصطفى ورزقني اللهُ منه جيهان، وبعد تسع سنوات توفاه الله، وزهدت في الرجال من بعده وقررت العمل حتى لا تقف حياتي. وكبرت جيهان وتزوجت، وعشت وحيدة وقد ذبلت روحي وأنا أعيش بمفردي، فكان ندمي للمرة الثانية.

رقت أروى لشجنها وخريف سطا عنوة على شجرة عمرها وسألتها:
وعلامَ كان ندمك هذه المرة؟

بصوت تخالطه الحسرة أتت على كسرتها بقليل من السرد لتوضح العلة والتعليل:

- لرفضي الزواج بعد وفاة مصطفى؛ فلم يخطر ببالي الوحدة التي أعاني منها الآن عندما أعود كل مساء إلى بيتي وأجده خاليًا إلا من ضجري.

- ولِمَ لم تتزوجي الآن لتأنسي بحياتك؟

تمددت تعاستها على أريكة عمرها فأخفت مناحة قلبها وتظاهرت بالابتسام:

- أراها منك مجاملة لطيفة، فقد ذبلت الروح من قسوة الوحدة حتى جفت معها قسمات وجهي، ولا أُخفي عليكِ لم أعد أنظر في المرآة خوفًا من أن تباغتني ملامحي بما لا أرجوه، حتى قلبي لم يسلم من براثن الوحدة فتشقق من يبس مشاعره.

اشترى خالد بعض علب الطعام والبقوليات وذهب إلى أرملة خليل في صباح اليوم التالي، وأعطاها بعض المال اقتطعه من راتبه.

بصوت حزين سألته:

- من أنت؟

عرفها بنفسه وبالغ في تعزيتها.

صبغ القهر حروفها فتناثر معها أنين قلبها:

- قهرتني فاجعة رحيله ولم يعد لي سند تتوكأ عليه أيامي.

رق قلبه لشجنها ولكن ليس بوسعه شيء يصنعه لها إلا الدعاء، حدثها عن رحمة الله وعن ثواب الصبر وأن لا تحمل هم الرزق فالله قد ضمنه، وأن لا تخشى على أولادها من الضيعة فالله لن ينساهم. كل هذا وهو يقف على الباب، ثم ودعها وانصرف.

حتى أشجع الرجال فتَّ في أرواحهم وجع الفراق، وهدَّ في قلوبهم فقد الأحبة، ففي يوم خيبر اقتلع علي باب الحصن بيد واحدة، وعندما حمل جنازة فاطمة قال «أعينوني».

أغلقت الباب خلفه وبكت عيناها مع قلبها واشتد نحيبها، فقد تجرعت اليُتم في صباها وترملت وهي شابة يافعة. مشت على شوك

الأحزان حتى دمت سريرتها، هشَّمَ اليأس حناياها فمكثت روحها في سرادق الأوجاع تستقبل لطمة بعد أخرى. استيقظ علي دون إخوته على تأوُّهها، فضمته إلى صدرها وبكيا معًا، تحاملت على نفسها وتعالت على أحزانها، وقامت تبحث في مَا أحضره الشيخ لتُطعم أبناءها الذين باتوا جوعى، ليس حزنًا على أبيهم فحسب؛ ولكن لخلو البيت من الطعام.

لم يقوَ فؤاد على الذهاب لحضور جنازة خليل؛ فقد كان يشعر بعقدة الذنب، فهو الذي أرسله في طريق السيارة التي صدمته، ازداد شعوره بالذنب أن وافته المنية وهو في طريق عودته من محل الخمور، ولم يكن يعلم أن الدقائق الأخيرة في حياة خليل حملت توبته وتبرئة ساحته.

مصرع خليل صرع فيه شهواته وغيه، حدثته نفسه بالذنب تجاه أولاد خليل اليتامى وزوجته الأرملة الشابة، فقرر أن تحنو عليهم يد عطفه، وفكر مليًّا في طريقة يساعدهم بها، فسأل بعض العاملين حتى أعلمه أحدهم بمنزله، استشعر في نفسه أن العمر لحظة وأن الحياة قصيرة، فبدأ يرتاد المسجد وتحركت بساحة صدره نوازع الخير بعفوية تجاه الفقراء وعاملي النظافة، فكان يقدم لهم الطعام ويجلب الدواء لمن يشتكي منهم؛ فقد داهمه إحساس بأن يد الموت قد تخطفه في وقت قريب.

وطلب من أمه أن لا تكف عن الدعاء له، وقد كانت تداوم على الأمر من قبل لبرِّه بها.

راجع نفسه في كثير من الأمور وحدث نفسه بالتوبة من ماضيه الملطخ بالخطايا، فموت خليل المفاجئ قد عكر صفو نزواته ومعاقرته للخمر، عظة الموت جعلته يستفيق من غرور دنياه قبل أن تتغرغر النفس

بحشرجة الروح، فحثته خلجاته على توبة نصوح، وسمع صوتًا قادمًا من أعماقه، بين ركام الذنوب وحُطام المعاصي يُناديه بالعودة، فاستشعر بين جوانحه ندمًا، والندم توبة، ولمس في أروقته صدقًا وإقلاعًا وعزمًا وأوبة، فبدأ يتحسس طريق الهداية لعل الله يغفر له ما مضى. وناجى ربه قائلًا:

- «يا رب إن تعثرت في طريقي إليك فترفق بضعفي».

صبَّ الشيخ خالد في قلوب سامعيه زخات وعظه بعد صلاة العصر، وأنهى درسه قائلًا: «إلهي إن قضيت علي بالعذاب غدًا فلا تُخبرهم بعذابي، لا لأجلي؛ بل صيانة لكرمك، حتى لا يُقال عذب الله من دلَّ عليه» ثم أجهش في البكاء. مضى وقت غير قليل حتى كفكف دموعه، وقام ليستريح في غرفة الإمام، فتبعه أحمد ودق الباب وحياه وجلس.

- أنا أحمد صديق حسام محسن.

فقال خالد:

- حياك الله وبياك.

رمق أحمد دواوين الشعر على مكتب الإمام ثم ابتدره قائلًا:

- قد حدَّثني حسام عنك كثيرًا وعن قضائك لحوائج الناس، وأريد معونتك في أمرٍ ما.

ابتسم خالد:

- وما ذاك الأمر أخي الفاضل؟

- أعطاني زوج أختي خمسة آلاف جنيه لأقسمها على الفقراء، وقد اشتريت بيتًا جديدًا بالقرب من هنا منذ أشهر، ولا أعلم كثيرًا من فقراء الحي.

أمسك خالد بكراسة مدون فيها أسماء الفقراء وعناوين بيوتهم:

- بداية جزاكما الله خيرًا على هذا الأمر، وهذه قائمة بأسماء بعض الفقراء لتمد لهم كف إحسانك.

مدَّ يمناه للشيخ فوضع عليه الطيب من زجاجة تناولها من على طاولته، فمسح أحمد يديه ببعضها وقال شارحًا:

- هو اشترط، أو بمعنى أدق طلب أن توزعها فضيلتك على أهل التعفف ومن يحسبهم الجاهل أغنياء، لا من يدَّعون الفقر ويحترفون التسول بحيل وادعاءات مختلفة.

- أخي الكريم، اعلم يقينًا أنه بمجرد أن خرج المال من يده فقد حاز الأجر، حتى لو وقع في يد من هو أغنى منه.

فقال أحمد:

- ولكن الفقراء به أولى.

فقال خالد:

- واليتامى به أشد حاجة، وأنا أعرف رجلًا كان يعمل في مطعم مجاور للمسجد، وافته المنية أمس وترك أرملة وأبناء ثلاثة، فلو أعطيناهم المبلغ كله وتاجروا به ليُدِرَّ عليهم ربحًا ونكفيهم شر السؤال لكان أفضل من أن نوزع المال مئة هنا ومئة هناك.

قلَّب أحمد عينيه في السقف وصمت يفكر ثم قال:

- الأمر إليك، وتعامل بما يحلو لك.

ناوله المال. وتهيأ أحمد للخروج ثم تذكر المبلغ المتبقي معه، فأعطى للشيخ خَمس مئة جنيه وقال وهو يصرف بصره حتى لا يرى حياء الشيخ:

- هذه خاصة بالشيخ الجليل صاحب الفضيلة.

فتوهج وجه الشيخ خجلًا، وودعه أحمد وانصرف.

❀ ✿ ❀

استقرت حالة ليلى وعادت إلى بيتها بعد عدة أيام، فعادت من كدرها تتحرك ببطء وتصلي وهي جالسة، تأتي إليها رباب بعد خروج أحمد كل يوم لتساعدها في شؤون بيتها، فلم يكن مألوفًا أن تذهب سهير، فهذا ينافي أعرافًا اعتادها الناس.

طمأنها الطبيب على حالتها ونصحها ببرنامج غذائي معين. كانت تتماثل للشفاء، بينما كان أحمد يحيا في كمد، يخشى على أحلامه أن تنساب من بين أصابع الغد، فاحتوته الهموم.

عاد إلى بيته في المساء، ألقى السلام على والدته وقبَّل يدها، بعد أن وضع في المكتبة كتاب رياض الصالحين الذي اشتراه.

أشفقت ليلى على نصبه وقالت:

- الطعام جاهز.

- أخفض بصره حتى لا تفضح عينيه شكاية قلبه وقال:

- سأنام أولًا ولو ساعة واحدة.

دخل غرفته واستلقى على فراشه، ولم يخلع عنه ملابسه فخلعت عليه رأسه هواجس أفكاره.

«اليوم العاشر من مارس، الموعد الذي حددناه من قبل للزواج، وقد أتت الرياح بما لا تشتهي سفني فتغيرت الظروف؛ المال الذي كان معي واقترضت عليه من العمل. هل يكفيني نصف راتب أعيش به؟ والمال الذي لفريد، ومعاش والدي قليل لا يكفي احتياجاتنا. سنة كاملة أسدد دين جلال، وسنة أخرى لدين فريد، وثالثة لأجهز فيها البيت وأشتري ما أحتاجه من أثاث جديد. ماذا بوسعي أن أصنع؟! هل تنتظر سهير هذه السنوات الثلاث معي؟ ولكن ما ذنبها؟».

اكتظت ردهة أفكاره حتى آخرها بعشب يابس، فخيَّم اليأس على خلجاته، فقد ألمت بثمر أحلامه آفة فأهلكته قبل حصاده، ظل يفكر ما بوسعه أن يصنع، فقطار أمنياته أصابه العطب، لم يختَرْ لنفسه هذه الظروف. أغمض عينيه لينام لعل غفوته تكون أرحم به من واقعه المخيف. لم تجرؤ أحزانه أن تداهمه في كهفه إلا ليلًا، وكأنها تأبى أن تعمل بالطاقة الشمسية.

❀ ✿ ❀

بيته صار جنة بما أضفته زوجته من أجواء رومانسية ورونق خاص للعلاقة الحميمية بينهما، تعطرت جنبات البيت بنسائم الحب التي فاح شذاها، فكانت كل ليلة ترتدي أفضح أثواب العشق فيرقص قلبه طربًا، فقد وجد ما افتقده سنوات طويلة، غطى رداء الغرام نشوتهما في كل ليلة، فلم يعد لدى جلال أدنى مبرر للسير خلف نزواته، فاستقام حاله وتبدلت عاداته وترك الشقة التي استأجرها، فلم يعد يطيق السهر خارج بيته؛ فزوجته أغنته عن نساء الدنيا. كأن كلمات عفاف أذابت جبال الخجل وطحنت صخور الحياء التي كانت تخفي خلفها أنوثة ساحرة لم تتجرأ على الظهور من قبل، فأخذت بزمام عقل زوجها حتى آخره كأنه يعرفها من عهد قريب، فاستحال كخاتم في أصبعها تحركه كيفما شاءت، مع أنها لم تُرِدْ ذلك؛ فقط كانت تريد الحفاظ على بيتها.

جلست تأكل بجواره الفطور، وضعت جزءًا من قطعة التفاح في فمها، واقتربت بالجزء البارز من فم زوجها، فتناوله بعدما اختلط الطعام في فم كل منهما بريق الآخر.

وضع يده على شعرها الناعم فامتنعت بتدلل وعادت إلى مقعدها، وقالت لتُهدئ من ثورته:

- أعارني الشيخ خالد بعض الكتب مع أخي يوسف، وقد انتهيت من قراءتها وعاد يوسف إلى عمله في السويس. فهل لك أن تتولى أمر إرسالها إليه؟

- وهل هذه الكتب هي سر التغيير الجميل الذي حرك المياه الراكدة؟

كأنها لم تنتبه لسؤاله، فقالت بشيء من المواربة:

- لقد استفدت بهذه الكتب الممتعة في مجال تربية الأطفال، وليت بوسعي أن أكافئ الشيخ خالد على صنيعه هذا.

وضع جلال كوب اللبن من يده وقال:

- أكثر من مرة أريد أن أسألك عن أحواله المادية ويطرأ على بالي ما يشغلني.

فقالت أروى:

- أحواله المادية ليست جيدة، فهو لا يمتلك سوى راتبه.

فقال جلال برغبة صادقة:

- وهل تريدين أن نساعده بالمال؟

هزت رأسها برفق وقالت بعد صمت:

- فكرت في ذلك أكثر من مرة، ولكن أخشى أن نُدمِي إحساسه.

فقال جلال:

- نبحث عن طريقة أخرى نساعده بها.

❀ ✿ ❀

أحلامي لا تنتهي بالنسبة لأهل قريتي، ويكفيني أن نيتي صادقة في مساعدة الجميع، خاصة الفقراء منهم، ولو طال بي العمر سأصنع لهم الكثير والكثير مما حدثتك به.

تزينت سماء أحلامه بمصابيح الخير التي استحضرتها نيته فقالت له هند ممتنة:

- رزقكَ الله على قدر نيتك الطيبة.

عادل:

- بمَ أخبركِ الطبيب اليوم؟
- أخبرني أنه ليس هناك موانع للحمل.
- مسألة وقت، ولا تكترثي كثيرًا لأمر الإنجاب.

ناشدت أمانيها شطر زينة الحياة الدنيا لتكمل سعادتها وزوجها:

- ألا تحب الأطفال؟!
- أنتِ طفلتي وأمي وخليلة قلبي، فقد رأيت فيك كل النساء.

فتبسمت وقالت:

- ولكن لا غنى عن الأولاد، بهم تكتمل سعادتنا.

- سعادتي بقربك. وضع كفه على كتفها وتأملها صامتًا ثم قال: سبحان من جعل النعيم في عينيكِ. قبَّل كفها: أنا أخشى أن تنشغلي عني.

- وما سيشغلني عنك يا عمري؟!

استلقى على الأريكة ووضع رأسه في حجرها وخبأ يده عندها، مسحت بيدها على شعره ووضعت قبلة حانية على جبين ولهه.

- سيشغلكِ الحمل والتعب والطفل بعد ذلك يا قمري.

ناشدت هند حنين مشاعره:

- البيت في غيابك لا يُطاق، ولولا شغفي بالقراءة لأصابني الجنون، فلو كان معي طفل لآنس وحدتي.

استلقى على بطنه وحدجها ببصره وأحاط خصرها بيديه، وأخذ رغبتها مأخذ الجد وقال:

- عندما أعود في الإجازة القادمة سأتابع معك الأمر باهتمام.

نزع يديه عن ضفتيها وتبسم ثم نهض وقال:

- سأذهب إلى الفيوم أودع إخوتي قبل السفر غدًا.

بدَّل ثيابه ومضى وأمسكت برواية رومانسية.

❀ ✿ ❀

وضعت أسماء أمامه مشروب النعناع الذي يفضله، بعدما سرد على قلبه أذكار المساء، فإن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة، فكان ينشد راحة قلبه في جنة الأنس بالله.

- هل تريد شيئًا آخر؟

أشار برأسه أن لا، أتاه أنس ليساعده في حل مسألة حسابية، فتبسط في شرحها وأعطاه غيرها ليتمرن على الحل وحده. جاءه حمزة ليقرأ عليه سورة «المجادلة» التي أتم حفظها، فقرأ متعجلًا ليلهو بهاتف والده، فربت خالد على كتفه وقال: اقرأ بتدبر يا ولدي لتنعم بالسكينة «اقرأ القرآن وكأنه عليك نزل» ولما فرغ أذن له بوقت فيه يمرح. ثم نادى زوجته.

أتت وجلست بجواره وقبلت يديه كما اعتادت، واعتاد هو أن يقبل جبينها.

- أريد أن أخبرك بشيء.

مكث أنس في غرفته قليلًا ليبحث عن حلول وإجابات لمسائله، وسرعان ما خرج فكافأه والده على إجاباته الصحيحة بإعطائه خمسة جنيهات لتحفيزه.

انتبهت أسماء للأمر وسألته مستعلمة:

- وماذا ستصنع الأرملة بالمال؟ أخشى أن تنفقه ثم تعود إلى نقطة الصفر مرة أخرى.

استغرق وقتًا غير قليل ثم قال:

- لذا أفكر في أن أجهز لها الأمر بنفسي.

- ومتى تذهب إليهم؟

- غدًا إن شاء الله.

- ستذهب وحدك؟

كأنه استلمَحَ مغزى كلامها.

- بعد كل هذه السنين ما زلت تغرسين الشكوك حولي؟!

قطفت أسماء الحكمة من شجرة الأيام، فالعابد «برصيص» هلك من هذا المدخل، فكان من حقها أن تغار ليس على سبيل الشك؛ ولكن دفاعًا عن ممتلكات القلب، فالوقاية خيرٌ يتجدد وغنى عن العلاج.

- أنا أحافظ على بيتي، وكما أخبرتني إن الأرملة شابة صغيرة. أما تخشى على نفسك من الفتنة؟!

طافت بخلده مواقف وقصص سقط الكثير من أبطالها في هذا الفخ، وشيَّعت رغباتهم نواياهم إلى الاتجاه المعاكس، فتقهقرت خطى أفكاره

عن معونة الأرملة ورغبت نفسه عن المعروف، ثم هدأت خواطره وعقد يديه على صدره وأطرق رأسه، ثم أراد أن يُبرئ نفسه فحدجها بعين قوية وقال تنزيهًا لساحته:

- أسأل الله الثبات، وكما تعلمين لم تكن المرأة يومًا نقطة ضعفي، ومع ذلك لن أذهب وحدي.

يتظاهر المرء بالحكمة ويرى في نفسه قوة رادعة على كبت رغباته، وحين يقف بساحل الحقيقة وتتلاطم الأمواج أمام عينيه؛ تناديه ظنونه بأنه في معزل، حتى إذا أراد أن يستعصم ويخرج سالمًا؛ يرتعش قلبه وتخونه ظنونه، وتتجلى حكمته سرابًا لن ينفعه بشيء وتتلطخ ثيابه.

انصرفت زوجته إلى المطبخ، فقام إلى مكتبته وتناول منها رواية رومانسية.

❀ ✿ ❀

توسد زكريا فراشه وجذب الغطاء عليه واستسلمت عيناه طواعية لجيوش النوم الغازية، أتت صفاء بعدما انتهت من سماع المسلسل التركي، وكررت نداءها:

- زكريا... زكريا...

حتى انتبه له وقال:

- نعم.

فقالت:

- أريد أن أعرف رأيك في محمود ابن أختي سمية.

- وما الداعي إلى ذلك؟

فقالت صفاء وهي ترفع عنه الغطاء:

- سأخبرك بعد أن تخبرني.

اعتدل في جلسته بعدما تحررت عيناه من النوم وقال:

- شاب طموح ومجتهد ولم أسمع عنه من قبل شيئًا يجرح سيرته، وأنا بصفة شخصية قد تحدثت معه كثيرًا، فهو دمث الخلق نقي السريرة.

- أخبرتني سمية برغبته في الارتباط برباب.

باركت عيناه الأمر وقال:

- ليس عندي مانع، فمثله لا يُرد؛ ولكن ما رأي رباب؟

فردت صفاء:

- أنا واثقة ستوافق؛ ولكن محمود جاهز ويريد الزفاف قريبًا.

- وسهير... ثم صمت واجمًا.

فقالت صفاء:

- تحدث مع حسام بهذا الشأن.

❀ ✿ ❀

مشى مسعد بجواره في هذا الحي الشعبي وقد عطرت أنفيهما روائح المخبوزات الصباحية والقهوة، ضجيج الأغاني وهتاف الباعة ملأ الشارع حتى حافته بالصخب، لم يبال شيخه بتلك الجلبة فاسترسل في حديث عن الأرملة وأبنائها؛ ولكن مسعد بدا غير مكترث بما يسمع فكان يوزع نظراته بين الباعة على جانبي الطريق، وسائقي التوكتوك يهرعون من حوله فخطى منزعجًا.

دق الشيخ خالد الباب، فأشرعه علي، وأذنت لهما سعاد بالدخول بعدما وضعت غطاء رأسها، فاتحها الشيخ خالد عن رغبته في عمل مشروع تجاري يدر عليهم دخلًا ثابتًا يكفيهم الحاجة من الناس.

- ومن أين نأتي بالمال وقد بات أولادي جوعى ليلة وفاة أبيهم؟!

وأشارت إلى علي فأخفض صوت التلفاز قليلًا، فقال خالد:

- المال موجود؛ ولكن أود أن أسألك أولًا، أين أهلك وإخوتك؟ ولمَ تركوك تقاسين وحدك شظف العيش؟

فقالت سعاد بصوت مكلوم:

- ليس لي إخوة ولا أعلم شيئًا عن أهلي، جئت وأنا في العاشرة من عمري مع أمي من ريف مدينة طنطا بعد وفاة أبي، فقد اضطهدنا عمي

بعد أن رفضت أمي الزواج منه، واحتال عليها وجعلها توقع له على عقد بيع الدار والأرض. كانت أمي تخدم في البيوت وكنت أذهب معها لأساعدها، فقد كانت مريضة بالسكر، ولما صرت شابة أساء البعض منهم الأدب معي، فخشيت أمي وزوجتني وأنا صغيرة من خليل.

على صينية صدئة من معادن الناس قدمت بيان حالتها، من عتمة الذكريات خرجت حروفها تحبو على أرض الوجع. رق مسعد لنزيف عمرها فكان يسمعها بقلبه، وبدت في عينيه نظرة عطف استخرجها من ردهات قلبه. تأمل خالد متاع البيت القليل وصورة خليل المعلقة على جدار مثقل بتجاعيد تركها الزمان عنوة.

- أعطاني أحد المحسنين مبلغًا لأعطيه لمن اشتدت بهم الحاجة، وربما أنت وأطفالك أولى به من غيرك؛ ولكن ماذا تصنعين بالمال؟

وهنا بادر مسعد بالكلام وقال:

- لاحظت أن في الشارع كثيرًا من الباعة، أمام منزلك يكون لك فرش بضاعة تجلسين بها طول النهار، وفي المساء تردينها إلى البيت.

فقال الشيخ خالد:

- وما البضاعة التي تتاجر فيها؟

فرد مسعد:

- الخضراوات والفاكهة.

قدَّم علي لهما الشاي بعدما ساعدته أمه في إعداده.

- ومن يحضرها لي ولا أقوى على مزاحمة الرجال في الوكالة؟

شعر مسعد نحوها بشيء لم يعتَده صدره من قبل وقال متحمسًا:

- مصطفى ابن عمي يملك سيارة أجرة ينقل بها البضائع من سوق العبور إلى المحلات والباعة، اليوم أذهب إليه وأخبره بأمرك.

تعجب الشيخ خالد من حماسه الزائد ورغبته الجامحة في بذل المعروف عكس ما اعتاد منه!

❀ ❀ ❀

جلس جلال في مكتبه وعلت ملامحه ابتسامة خفيفة وهو يسرد على قلبه نسمات من همس قمره البارحة، فقد كانت زوجته متوهجة بغرامه، جريئة وكانت تجاريه وتبدؤه وتُنهيه، «فلو كانت هكذا من عهد زواجنا لما سقطتُ في نزواتي، فقد استخرجَتْ من جواهرها الخفية ما يُغنيني عن كل نساء العالم.وهل أتمادى من جديد في نزواتي؟!» سأل نفسه وشردت أفكاره وما عادت إلا بعدما دق سيد الباب ووضع القهوة وخرج، فعاد إلى شروده السابق وحديث نفسه وحسم موقفه بما يُثلج صدره وقرر أن يُغلق الباب جاهدًا على نزواته.

وعلى هذا الحال من جموح الأفكار انزوى حسام ولم يحسم موقفه بعد، وما انتبه إلى سيد وهو يضع كوب الشاي أمامه، شغله تفكيره في عثرته وكيف سيكون المخرج هذه المرة. حطب أحلامه أكلته النار وانعرجت ظروفه مع أصهاره في زاوية حادة، خاصة بعدما تمت خِطبة رباب ومحمود.

عاد إليه سيد ليستبدل له كوب الشاي البارد، رفض حسام وأشار بيده لكي يدعه وقال:

- ماذا تصنع لو كنت في ظروفي هذه؟

كأنه ألقمه حجرًا فطال صمته ثم قال:

- تتزوج شقيقتها الصغرى، وهي تنتظرك حتى تتحسن أوضاعك.

- وما ذنبها ليضيع من عمرها ثلاث سنوات وأكثر هدرًا؟

- لو كان حبها لك صادقًا ستنتظرك حتى آخر العمر.

رمق دبلة الخِطبة في أصبعه:

- خيال الحب لا يقوى على مواجهة مرارة الواقع، فلا بديل عن التضحية.

شخص سيد ببصره وسأله في ذهول:

- التضحية بماذا؟

تجاوز رأسه الحد الأقصى للتفكير فبدت ملامحه في إطار من الحسرة، تنهد بأسى ونزع الحجاب عن أنين روحه وقال:

- بقلبي؛ إذ إن الظروف الحالكة أقوى من رغابتنا وأحلامنا.

فقال سيد بعدما رفع صوته قليلًا محذرًا إياه:

- لا تتعجل الأمور، وتمهل فرب متعجل وقع في بئر بوار، فانتظر حتى ولو سنة واحدة؛ فربما تتغير الأحداث.

هاجرت ألحانه من أوتارها وقررت أن لا تعود، فخلع دبلة الخِطبة من يده ووضعها على المكتب.

- الانسحاب مبكرًا هو أقل الأضرار، أما تمادي السير في هذا النفق المظلم سيجعل الجرح أعمق عند الانسحاب المتأخر.

كان هش القلب، كسيح العزيمة، مهيض الإرادة، إحساسه بالعجز صرع مشاعره، فاستسلم دون مقاومة للريح المضادة.

جلس يرتل أهاته بحروف متعبة على تويتر:

«ما زلت أبحث في نصوص المتعبين عن كناية عن وجعي، ونداء لآهاتي، وحال يصف ألمي، وتورية بها أشدو حتى تُمسي بلا ليلى حكاياتي».

أشرقت شمس اليوم الأخير، حانت لحظة السفر ليودع وطنه بحدود الجغرافيا، وملاذ روحه وموطنها، ومسعى غرامه وقبلة مشاعره، فقد أعدَّ بنفسه حقيبته البارحة، واتصل بأحد أصدقائه ليُقِلَّه بسيارته إلى المطار.

سبقته هند إلى المطبخ لتُعِد له طعامه بعدما بدأ يومه بحمام دافئ، ناولته المنشفة وارتدى ثيابه، وجلست تطعمه في فمه.

- متوتر كأني أسافر لأول مرة، سوف أتصل بكِ كل ساعة لأسمع صوتك.

فتبسمت وأمسكت بكفه تقبلها، تجولت عيناه ببساتين عينيها وقال:

- عند عودتي سأذهب معكِ إلى الطبيب.

- أرجو من الله أن يرزقني منك بعشرة أولاد.

تبسَّم ضاحكًا من قولها:

- ولد وبنت فقط حتى لا تنشغلي عني بهم. أنا أعلم شغفكِ بالقراءة؛ ولكن إن داهمتك قسوة الوحدة والشعور بالملل اذهبي إلى بيت أحمد وامكثي عنده ما شئت.

شبع من طعامه ولم تشبع عيناه من استشرافها، فكان تطلعه إليها نسيمًا يروي عروقه بالسعادة، فهي مأوى روحه وجنته التي وجد فيها نشوته بعدما أكلت ألسنة الوجع من شبابه حتى ضجت. أينعت حياته في قربها. فكان يحيا كل لحظة معها بسعادة غامرة، وكأنه يسحب من الحياة كل مدخراته من البهجة ليُنفقها اليوم قبل الغد.

كان موعد إقلاع الطائرة في الثانية ظهرًا، فنظر إلى الساعة فوجدها العاشرة، تأججت مشاعر الوداع بداخله فامتطى صهوة اشتياقه ودعاها إلى لقاءٍ أخير.

❀ ✿ ❀

انتهت رباب توًّا من محادثة محمود عبر الهاتف، ثم خرجت من غرفتها ووقفت على باب غرفة سهير وترددت في الدخول على شقيقتها التي انفسخت خطبتها الأسبوع الماضي، بعدما ذهب حسام إلى والد سهير في مقر عمله، وأخبره بظروفه الطاحنة وديونه الكثيرة، ولا ذنب لسهير أن يتبدد عمرها في انتظاره.

فتحت الباب ببطء، فوجدت سهير تجلس على السرير، وقد التفت يداها حول ركبتيها وطأطأت رأسها وتقطرت من وجهها حسرة، فقد سل الزمان عليها سيف الفراق.

- وما جدوى دموعك؟ لم يخطئ أحدكما في حق الآخر؛ ولكنها الظروف. وكما يقولون «رُبَّ خيرٍ لم تَنَله كان شرًّا لو أتاك»، قدَّر الله وما شاء فعل.

- لم أُخطئ عندما أحببته، ولم أُخطئ عندما تألمت لفراقه، ولم أُخطئ عندما انتظرت عودته وتركت الباب مفتوحًا، فلا تتهموه بالتخلي وقيدوا جناية الحب ضد مجهول.

تنهدت بحزن فقد احترق بيدر الأحلام وأعيا فؤادها هجره فهمست بصوت مكلوم:

- لمَ نثرت في طريقي الشظايا؟ فقد خشيت أن تُدمى أناملك، لو بيدي لانتظرتك حتى آخر العمر، فلمَ تعجلت الرحيل؟

- حسام يهواك بشغف منذ سنوات، وأظن أن الأمر لم يكن سهلًا عليه، وأنا على يقين أنه أقدم على هذه الخطوة بدافع الحب، فظروفه قد تغيرت بعد تكاليف جراحة والدته التي تكبدها، وهو أدرى بحاله وربما ضحى بقلبه حتى لا تخسري عمرك في انتظاره.

أرادت أن تُحلق بغرامه فهشَّم عامدًا أجنحة الوداد، فناح الفؤاد وتحررت منه الدموع، فخذلان الحبيب يقتل إكلينيكيًّا، ينخر في الروح فتتآكل شرائحها رويدًا، وينخل الذاكرة فتتناثر منها قطع الثلج والنار على القلب المكلوم.

- أرواحنا ائتلفت ولم أرغب من الدنيا سواه؛ ولكن ما ذنب قلبي وقد عصف الفراق بكل أحلامي ولفحَ مشاعري دون جناية مني؟! أنين الجرح يكاد يفتك بي، فكل طعنات الهجر كانت مدوية.

بقدر ما حاولت ترميمه قوَّض أركانها، انتظرته كي يحارب العالم من أجلها؛ فأجهز عليها ومضى واثق الخطى. علَّمته الرماية فلما اشتد ساعد قلبه رماها مع سبق التنكيل بكل وعود الحب.

فقالت رباب لتُدثر قلب شقيقتها من عصف الأشجان:

- لا تستسلمي ليأسك، الدنيا لا تقف على أحد، مُدِّي يديك للحياة ولا تبكي على الأمس.

كانت مشاعرها تصرخ بعدما تهاوى في أعماقها جبل المودة، هبت رياح الخريف فطمست فيها كل معاني الربيع، واقتلعت كل بيارق الفرح من ساحة وجدانها، وتركتها مضرجة بالوعود الزائفة، فلم تدر بأي ذنب قُتلت مشاعرها، قامت وأمسكت بعقد الياسمين الذي أهداه لها، تقبله تارة وتشمه تارة، تبحث فيه عن عبق ذكريات حبها الأثير.

وضعت المصحف على جبينها وقبلته، وأحكمت قبضتها على المسبحة حتى لا تنفلت حباتها كما انفلتت سنوات الحب الضائع من عمرها.

رفض حسام أن يسترد هداياه، الشبكة فحسب، وكأنه يقول: فليكن نصيبي منك ثواب القراءة في المصحف والتسبيح.

- لا تتشبثي بيد انفلتت منكِ طواعية، ومن أراد الرحيل أغلقي خلفه باب العتاب.

تخدلت أفكارها بما سمعت وتنهدت بأسى، وكأنها تسأل ماذا يُقال في الوداع الذي طاف بدوحة الحب، وهبط فيها هبوطًا اضطراريًا:

-لا يطعنُنَا من الخلف إلا من نمشي أمامه، أما من عاشوا بداخلنا فقد أشبعونا طعنًا من كل الجهات، فقد كانت خناجرهم نافذة حتى شغاف الروح. فليته توجد صيدليات تمنحنا مضادات حيوية للحب أو مسكنات للحنين أو أقراص للنسيان.

❀ ✿ ❀

تعاطف أهل الحي مع بؤسها وفاقة التحفت بدارها، تعاملها المتكرر مع الناس أخمد نار حزنها، فاستردت نضارة وجهها إلا قليلًا واستعادت شذرًا من روحها الغائبة مع رحيله، وقد علقت على جدران روحها شرائح الذكريات، فأبدًا لم تنسَه، تدعو له وتتصدق عنه بما تجود يدها، وكانت تتبسم بين الناس جاهدة حتى لا تتخمر الأحزان أكثر. وكان مسعد يحنو على كسرتها المختبئة بإحدى زوايا عينيها، فكثيرًا ما كان يتردد عليها بزعم الشراء منها أو الاطمئنان على أبنائها، ويتعمد أحيانًا الذهاب في المساء فيحمل ما تبقى من البضاعة إلى صحن الدار، وقد ادخر من راتبه في الأشهر الخمسة الماضية ثلاثة آلاف جنيه أعطاها لسعاد بزعم عدم حاجته إلى المال في الوقت الراهن؛ حتى تُكثِر من البضاعة ليزداد ربحها.

كان مسعد في الخامسة والعشرين من عمره، لم ينشغل من قبل بامرأة، إلا هذه الأرملة الشابة التي ملكت فؤاده وتمناها زوجة، وقد كانت فكرة الزواج من قبل لم تشغل باله كثيرًا، فقد كان فقيرًا يعمل أجيرًا مع عمال البناء الذين تضج بهم الأرصفة في كل صباح بحثًا عن لقمة عيش جديدة، حتى قيض الله له من يساعده في العمل بالأوقاف وقد كان عفيفًا

لم يتدنس بفاحشة، وازدادت عفته وطهارة نفسه بعد عمله بالمسجد وتأثره بوَعْظ الشيخ خالد وخُطبه، وظل يتحيَّن الفرصة المناسبة ليُفاتِحها في رغبته بالارتباط بها فقد مضى على وفاة زوجها ما يربو عن العام.

كان يلاحقها بنظراته وكانت تعلم ما يدور بخلده لكونها امرأة، فلم تشأ أن تصده أو تنهاه عن تلميحاته المتكررة، فربما وجدت فيه السند ليربي معها الأولاد؛ ولكنها تمهلت حتى يستقر قلبها على أحدهما، فقد كان له غريم.

❀ ✿ ❀

يعلم أن قضاء الله خير وربما النصيب لم يأتِ بعد، فلم يتعكر صفو إيمانه، يحافظ على صلاته حتى في أوقات عمله ويحافظ على ورده وأذكاره وبره بأمه لم ينقطع، ولم يفقد جمال نفسه، استكان جرحه أو هكذا كان يظن. ولكن كلما صعد الدرج أسرع خطاه حتى لا يتعثر فؤاده على أعتاب حبه الأول.

انغمس في عمله أكثر بعدما أفلت كل نجوم الفجر الذي انتظره، ولكن قلبه أبى النسيان، فكان يسأل عنها أحيانًا أو يتابعها من خلف النافذة عندما تخرج في صحبة أختها.

تظاهر بالسعادة وقتما كان البكاء فرض عين على القلب، أفلت نجوم الفجر الذي كان يرجوه؛ ولكنَّ جرعة الإيمان من دروس شيخه كانت تملأ قلبه باليقين حتى آخره، مطالعته لكتب العلم وحفظه للمتون كانا من أهم أسباب تماسكه، فقد حفظ متن «الأربعون النووية» وبقيت صفحات قليلة ليُتم حفظ كتاب رياض الصالحين، لم تفُته صلاة الفجر في جماعة، وكذلك التهجد قبلها بساعة. استأنف حياته بشكل حثيث، فسرعان ما رمم جدران قلبه المتصدع بنبضات إيمانه. ورفض أن يُفسح في قلبه متسع لأحزانه.

دق الباب بطريقته المميزة، فعلم أنه فريد.حيَّاه وأشركه في كوب الشاي الذي أعده لنفسه.

تطلَّع حسام في ملامحه المرحة:

- أحيانًا أغبطك على مرحك وروحك المشرقة التي لا تحمل همًّا للدنيا.

تهلل وجه فريد وانشرحت أساريره وقال:

- كل ما عليك يا صديقي أن تكون مبتهجًا حتى الظهيرة وسيمضي بقية اليوم على هذا النحو؛ ولكن أخبرني عن نفسك، ألم تفكر في الارتباط مجددًا؟

فقال حسام بصوت حزين:

- لا تكثر على جراح الماضي.

- لمَ لا تخلص للوهلة التي تحياها وتجرد مشاعرك من حزن على الماضي أو قلق من المستقبل؟

هز حسام رأسه وقال بأسى: ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة.

- لم أعِ مرادك تمامًا؛ ولكن أنت الذي صنعت مناحتك يا صديقي قالها نزار من قبل: «الحب ليس رواية شرقية بختامها يتزوج الأبطال»

فالنهايات السعيدة لا تكون إلا في قاعات السينما، فالحب في ذاته رحلة بغض الطرف عن نتائجها، وأنا أعشق الترحال.

- تعشق الترحال!! ملتحفًا بعباءة من جلد النساء، كم أنت وغد يا صديقي! فقد توكأ الكثير على عصا الحب وفي نفوسهم اختبأت مآرب أخرى.

نكس رأسه وبدت ملامحه في إطار باهت وقال بشيء يُشبه الأسى:

- كلما جادلتك فضحتني أمام نفسي..

- كفاك الله شر نفسك، وأخبرني عنك.

رمقه فريد وقال وهو يبتسم:

- مفاجأة من العيار الثقيل.

- وما هي تلك المفاجأة؟

تجاوزت فرحته حدها الأقصى فقال وهو لا يزال مبتسمًا:

- حفل زفافي الخميس القادم!

ألمت بحسام دهشة وقال متعجبًا:

- ولمَ تم الأمر بهذه السرعة؟!

فقال فريد بعد أن توارت ابتسامته:

- الوعكة الصحية التي ألَّمت بأبي زادت عليه ولم يعد قادرًا على متابعة تجارته، وأولاده من زوجته الخليجية ما زالوا صغارًا، فطلب مني

أن أذهب إليه لمساعدته في ذلك. أنت لا تحتاج إلى دعوة، الفرح في فندق أطلس.

فقال حسام:

- تمهل عليَّ، التزامي وسمتي لا يسمحان لي بارتياد أماكن اللهو والغناء والاختلاط.

أزاح تجهمه لوحة المرح من على وجهه ليُخبره باستيائه من رفضه لدعوته:

- ما زلتَ متشددًا كما عهدتك منذ زمن، لا تُضيق على نفسك فتهرب منك.

ابتسم له حسام وقال:

- أسأل الله الثبات، ومتى سفرك؟

- عصر الجمعة.

- عندما تعود أخبرني لأزورك في بيتك.

فاجأه فريد بأمر لم يخبره به من قبل:

- لقد بعت شقتي التي تعرفها في المنيب، واشتريت غيرها في شارع شهاب.

❀ ✿ ❀

جلس زكريا في المقهى، فقد استأذن من رئيسه في العمل وجلس يتابع الجريدة، لمح كريم يخطو إلى المركز الطبي الذي يعمل به، فاستوقفه وسلَّم عليه، دعاه ليحتسي معه الشاي، نظر كريم في ساعة يده ثم جلس، فقال زكريا وهو يرمقه بعين التبجيل:

- كل الناس هنا يحبونك ويشيدون بكفاءتك وحسن خلقك.

فقال كريم وهو يكاد يذوب من الخجل:

- الحمد لله فألسنة الخلق أقلام الحق، وأسأل الله أن يجعلني خيرًا مما يظنون ويغفر لي ما لا يعلمون.

فسأله زكريا:

- لم أعُد أراك منذ مدة!

- كنت مشغولًا بإعداد رسالة الماجستير، والحمد لله نلتها بتفوق.

تهلل وجه زكريا:

- لكل مجتهد نصيب، أعانك الله ويسر لك أمورك.

حدثه كريم وهو يحتسي من كوبه عن كفاحه ومثابرته ورغبته في نفع الناس بعلمه، صمت قليلًا ثم رمق ساعته وجنح بكلامه في اتجاه اليسار من ناحية قلبه المخدوش:

- لعل الأستاذة سهير أتت لك بحفيد.

فقال زكريا بصوت يملؤه الشجن:

- في الحقيقة، سهير لم تتزوج بعد.

فسأله كريم في دهشة:

- وما علة تأخير الزواج؟!

فقال زكريا:

- لقد انفسخت خطبتها، ولعل الله يقدِّر لها الخير بعد ذلك. فالزواج رزق محجوز بأسبقية السعي.. ثم سكت بعدما ألقى عمدًا حجرًا في غديره.

فعاد كريم ليجلس مجددًا بعدما كان يتهيأ للانصراف بعدما تجددت أحلامه القديمة، فلم تزاحمها في قلبه فتاة أخرى، فلم يكن حُبًّا من نظرة فأبدًا لم يرَها؛ ولكنها مست فؤاده بمجرد أن حدثته أخته عنها، ففاح شذى حبها بين ضلوعه.

❀ ✿ ❀

كثيرًا ما كانت تقوده مشاعره نحوها ويحمل الحنين خطاه إليها، فوجد علي يجلس مكان والدته يبيع ويزن بسماحة أمه المعتادة، ويعامل زبائنه باللطف واللين، كانت هذه هي المرة الخامسة لزيارة فؤاد لهم وقد أجزل لها العطاء في كل مرة. إذ زارهم في البداية بدافع العطف على اليتامى، ثم أكمل مسيره في طريق إحسانه معتمدًا على هوى نفسه وخلجاته، فسرعان ما أخذت بعقله وفي المرة الأخيرة صارحها بأنها لا بد لها من رجل تعيش في حماه ويحنو على أطفالها، وباح لها بأنه يعتبر علي وإخوته كأبنائه، ويتمنى أن يرغدوا في كنفه ويستظلوا بنعيمه من هجير الحرمان.

عادت سعاد وهي تحمل طفلتيها الصغيرتين وطلبت من علي أن يذهب ويشتري أكياسًا من محل الجملة، فقال فؤاد وهو يرمق جسدها الممشوق:

- لعلكِ فكرت جيدًا في الأمر.

فردت سعاد وهي تعيد وضع بعض الخضراوات أمامها:

- أنت رجل متزوج ولك بيت وأولاد، فلا حاجة لك بنا.

حرك فؤاد يده على صدره وقال:

- أنا لا أريدك من أجلي؛ ولكن من أجل أولادك، أريدك من أجل مستقبلهم والحياة الكريمة التي سأوفرها لكم...

كان يتسول كلماته من سلال العشاق، رغم ذلك بدت أبجديته جنينًا مشوهًا لفظته لغة الحب.. حتى الحب يُشترط فيه الإخلاص ليحظى بالقبول، فظل يتشدق بوعود السعادة والراحة.

عاد علي يحمل الأكياس وقد صادف مسعد في طريقه فأتى بصحبته، أشارت سعاد إلى فؤاد بأن يذهب مؤقتًا، من زجرها له خبأ دهشته في كم ثوبه ومضى، فلما رآه مسعد مُدبرًا ظل يتابعه بتوجس حتى غاب في الزحام.

❀ ✿ ❀

هبطت الطائرة في أرض المطار والقلق يعتريه، كأن شيئًا يهمس في أذنه: «ارجع من حيث أتيت، عد إلى موطنك»، وما زال صوت أمه يهمس به ويأخذه من يديه ليردَّه إلى أن وصل الاستراحة الخاصة به وجلس قليلًا، وما زالت حقيبته في يده كأنه ينتظر الإذن بالعودة. أخرج هاتفه ليتصل بزوجته ويطمئنها بوصوله، فقال في نفسه: «لعلها نائمة، سأكلمها في الصباح» فلم يعرف صباحه الخيرات ولا إشراقه السعادة إلا على ضفاف قلبها.

فتح الحقيبة وأخرج منها صور زفافه، فقد أتى بها جميعًا دون أن يجد في نفسه مبررًا لذلك، ولم يترك شيئًا منها، ولم تعلم هند بما صنع. خلع عنه ملابسه وكذلك أوجاعه ليخلد إلى النوم، جمح خياله إلى التفكير في إنجاب زوجته للأولاد، ليكونوا سندًا له وعونًا لهند من بعده، عاتب نفسه على عدم اهتمامه بهذا الأمر من قبل، حنت إليه خواطرها فاستحضرتها ففاضت على قلبه من نداها بردًا وسلامًا.

غلب النوم عينيه وطيف أمه يجول بأحلامه، فرأى في المنام أنه يجلس بجوار إخوته الثلاثة، وتأتي أمهم تطلب الماء لتشرب، فانتظر أن يقوم أحد إخوته ليسقي أمه، فلم يتحرك منهم أحد؛ فقام هو ليسقيها.

❀ ✿ ❀

اقترب يوم زفافه وليلة العمر التي ينتظرها منذ زمن، طلب إجازة عشرة أيام تبدأ من الأسبوع القادم، فوافق جلال وقدم ياسر الدعوة لكل زملائه، وذكَّر حسام بعدم حضوره حفل خطبته فلا مفر من حضور حفل الزفاف.

جلس أشرف يتابع المقاطع الإباحية التي أدمنها عبر هاتفه، وأراد أن يجتر حسام إلى هذا الوحل وأوهمه أنه يشاهد غرائب الطبيعة، وفاجأه بمشهد مقزز فأسرع حسام إلى دورة المياه وتقيأ. وأشرف يضحك ببرود، جفف حسام وجهه وصفف شعره ومشط لحيته وعاد إلى مكتبه، فوجد سيدة قد ارتادت المعرض لتشتري سيارة، فطلب منه أشرف الخروج معها لتجرب السيارة، فامتنع عن ذلك إذ لا يختلي بامرأة ويكون الشيطان ثالثهما كما سمع من شيخه: «لا تخلون بامرأة ولو كنت ستحفظها القرآن». وقد كانت هذه طبيعة عمل ياسر الذي خرج مبكرًا لإتمام تجهيزات يوم زفافه. فقال سيد بصوت منخفض:

- المرأة تقترب من الستين، وترتدى ثيابًا محتشمة، والضرورات تبيح المحظورات.

فخرج معها حسام على مضض وعينه لا تكاد تبرح موضع قدمه. ببراءة تكاد تُجاور الغفلة نصحه سيد ربما لم يقرأ مقولة «دعاء عبد الرحمن» «يترك الشيطان البداية للملائكة بينما يسكن هو كل النهايات».

❁ ✿ ❁

أعاد كريم كوب الشاي إلى فمه وارتشف منه قليلًا، وقد جدد زكريا ترحيبه به، تعجلت صفاء سهير بالخروج من غرفتها، تلكأت خطاها أمام المرآة وكأنها تطلب مشورتها. رفضت طلب رباب بوضع شيء من أدوات التجميل، فكانت جميلة بطبيعتها كأنها وُلدت على كفي بستان، سواد عينيها أضفى على وجهها فيضًا من الحُسن، أسدلت على قوامها الغض من حشمتها فتوهج صرح أنوثتها.

حيته من غير مصافحة بعدما جلست، زعمَ أبوها أن شبكة المحمول ضعيفة وسيقف في الشرفة ليجري مكالمة.

تلعثم نبضهما ولم يدر أحدهما كيف تكون ضربة البداية لخيط الكلام ليفر من طوق صمته، قاوم كريم توتره بعدما ألهمته هالة النور التي أحاطت بها كيف يُحطم حاجز السكون بالكلمات، فتحدث عن نفسه فالمرء مخبوء تحت لسانه، فتكلم لتراه بقلبها:

- لقد استخرت الله وشعرت بانشراح صدري، ولقد أخبرنا الرسول عليه الصلاة والسلام: «الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة». وما سمعته عن تدينك والتزامك هو ما دفعني إلى زيارتكم، وقد علمت عن خطبتك الأولى، فأنا أرجو أن لا تجعليني في موضع

مقارنة مع أحد، واعلمي أن البيوت لا تُبنى على الحب؛ إنما هي مودة ورحمة».

أسهب كريم بالحديث عن نفسه، وسرد كل مفردات الحب في سياق حديثه، فقد كان كريمًا بكلماته التي مست شغاف قلبها.

❀ ✿ ❀

كان الشيخ خالد ورعًا يخاف الله، صان قلبه من ضغائن تُفسد صلاحيته، ومشاعر صدئة تتآكل بها أعمدته، وكذلك حصن نفسه بالعلم الشرعي وقد نال أسانيد وإجازات علمية، وقد كان شغوفًا بقراءة الأدب والروايات وله محاولات في كتابة الشعر والزجل، وقد اعتاد المكوث في المسجد بعد صلاة الفجر يقرأ أذكاره ولا يخرج إلا بعد أن يصلي ركعتي الضحى ويشكر ربه قائلًا: «لك الحمد يا رب على نعمة الزوجة والأولاد، لك الحمد يا رب على نعمة المسكن والمأوى، لك الحمد يا رب على ما سُقتَه إليَّ من رزق...»، إذ إن شُكْر النعمة يجلب المزيد منها. نسجت الشمس خيوطها الذهبية على أحلامه ومزيد العطايا الذي ينتظره.

مر بأحد محلات البقالة واشترى بعض ما يحتاجه وعاد إلى بيته ليستكمل نومه، استيقظ في العاشرة متوتر النفس وجِلًا ولم يجد لذلك مبررًا، فنشد طمأنينة قلبه بالذكر والاستغفار حتى اطمأنت نفسه وسرت في جوانحه السكينة، فقد كانت دعوته الأثيرة اللهم املأ قلبي بحبك واجعل لساني رطبًا بذكرك. أفرط في قوله «لا حول ولا قوة إلا بالله»، وأكثر من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. إذ تتوق نفسه إلى زيارة

البيت الحرام، وكانت أمانيه تراوده على الأقل عمرة، فتكاليف الحج باهظة وراتبه بالكاد يكفيه وأولاده، ومن فرط حسن ظنه بالله استشعر أن فرج الله قريب وسيقضي حاجته عاجلًا.

ونادى أنس وأعطاه «بسكويت» لنفسه وآخر لأخيه، وطلب منه أن يذهب به إلى أخيه حمزة.

فقال أنس:

- ادعه ليحضر وتعطيه أنت.

فقال خالد:

- لا، ليس هذا ما أردته؛ إنما أريد أن تعطيه أنت له كأنك تهديه، والنبي (عليه الصلاة والسلام) يقول: «تهادوا تحابُّوا» وأشدُّ ما أرجوه أن تتآلف قلوبكما في المحنة والرخاء.

الشقيق هو السند، فأراد أن يشدَّ عضده بقلب أخيه ليحمي ضعفه بحزمته، فيصد جاهدًا عنه بطش ثعالب البشر، ويكونا لبعضهما عونًا، فلا تهتك صدورهما يد الفرقة الحمقاء، ويبقى كل منهما للآخر هشامًا في تأشيرة ضيافته لشكواه.

من يُطارد عصفورين يفقدهما، وهكذا كانت تصنع سعاد. صراع احتدَّ بين عقلها وقلبها، فتحت مزادًا على أنوثتها وتولت المساومة لتحسم ثمن الصفقة، مالت مشاعرها تجاه مسعد الشاب صاحب المروءة الذي يتفانى في معاونتها، ولمست فيه العطف على أولادها ورأت في أعينهم تعلقًا به وشغفًا بمداعباته. فقد تمثل فيه حنان والدهم وعفوية مشاعره.

شاب في مثل عمرها، رقيق الحال، يعيش في غرفة مستقلة على سطح أحد المنازل، راتبه قليل، فقد عُيِّن منذ ستة أشهر بعد أن حصل على تزكيه من أحد نواب البرلمان، وإليه لجأت مشاعرها ووثقت به، سيكتفي بها عن نساء الدنيا ويغلق قلبه عليها. أغمضت عينيها قليلًا وكأن سكة سفر على قضبان الغرام تناديها، فاستيقظت من غفوتها بعرق يتصبب من جبين الأحلام، فاحتدت أفكارها وشخصت لتتأمل نصف كوب الحب الفارغ.

فؤاد على أعتاب الخمسين من عمره، ميسور الحال، بإمكانه أن يتكفل معها بتعليم أبنائها وتكاليف زواجهم عندما يكبرون كما وعدها؛ لكنها

خشيت من تاريخه المدنس بمعاقرة الخمر ونزواته المتعددة، كما حدثها عنه خليل، كما أن له زوجة وأولادًا وبيتًا ربما يضيق عليها. وأمرٌ آخر كانت تخشاه وتتوجسه؛ أن يلفظها بعدما ترتوي غرائزه.

❀ ✿ ❀

قام أحمد بعدما صلى سنة الظهر وألقى السلام على الشيخ خالد، الذي سأله عن حاله وحال الرجل الكريم الذي تصدق بماله.

فقال أحمد:

- لقد سافر أمس، ولا تنسَه بدعائك.
- رزقه الله حسن الخاتمة.
- آمين.

وخرج من المسجد متعجبًا من دعاء الشيخ؛ فكان أولى أن يدعُو بأن يحفظه الله في سفره أو يخلف عليه بالمال.

دخل الإمام غرفته وتبعه مسعد، وأمسك بكوب الماء الساخن وأكياس مغلفة أمامه، وسأل شيخه:

- شاي أم نعناع؟
- شاي لو تكرمت.

فقال مسعد:

- أريد أن أفاتحك في شيءٍ ولا أعلم كيف أبدأ.

فقال خالد وهو يبتسم:

- ابدأ من اليوم الذي دق قلبك لها.

وكان الشيخ صاحب فراسة قلما تخطئ، وداهمه بسؤال:

- وهل انتبهَت لمشاعرك؟

فتعجب من فراسة الشيخ وقال:

- حاولت ذلك بالتلميح أكثر من مرة، فكانت تصدني تارة وتتجاوب معي تارة.

كان يبحث لنفسه عن موقع على خارطة الحب. فما عادت خارطة الأيام من حوله تتقلد مكانة في صدره.

- المرأة إذا وجدت منك عاطفة صادقة انجذبت إليك وأناخت مشاعرها على أعتاب قلبك. وبدافع من حبي لك أنصحك قائلًا: نظرتك للزواج يجب أن تتخطى متعة الفراش، فالزواج مشاركة واحتمال سند ووتد دعم واحتواء، كسلم خشبي مزدوج إن عطبت إحدى ساقيه قامت الأخرى بالعبء كله، تخطو بمودة مستندة على جدار الرحمة. قدم الله لك الخير ولعل اليتامى الذين ستتولى أمرهم مع أمهم وتكفلهم يأخذون بيدك إلى الجنة.

ارتدت أفكاره ثوب عُرسها، ورصعته بالشوق رغباته، وانتظر أن يتسع صدر السماء لفضاء أحلامه.

❀ ✿ ❀

كانت ليلة ممطرة، فتسلل من جوار زوجته ودخل غرفة نومه، وتدثر بغطائه، فجسده النحيل تهزمه قسوة البرد دائمًا، ظل يفكر في أمر ابنتيه والمال الذي يحتاجه لتدبير جهازهما، وإن كانت رباب لا تمثل عبئًا بعدما ساعدهم محمود وتحمل عنهم بعضًا من التكاليف، فقرر أن يذهب في اليوم التالي إلى مكتب البريد ليسترد وديعته في دفتر التوفير.

وبالخارج كانت تجلس زوجته متعكرة المزاج، وجلة القلب، دموعها تنهمر مع مهند في «العشق الممنوع»، بينما كانت رباب في غرفتها تشدو مع ماجدة الرومي في ضوء الغرفة الخافت: «وأنا كالطفلة في يده.. كالريشة تحملها النسمات».

وفي الغرفة المجاورة جلست سهير تضع خطوطًا فاصلة بين الأمس واليوم، الأمس الذي تاهت خطاه وماتت فيه كل الأحلام مكبلة، وتذكرت الفارس الذي لم يكن أمينًا على أحلامها وتركها مع أول عقبة واجهت حبهما، ولم يبذل أي محاولة ليبقي على وعود الهيام، علمها فنون الحب ولم يختبرها إلا في الهجر. همست في طويتها: «هل كانت الشمس ساذجة لهذا الحد وهي تعدُنا بالدفء؟»، ترنح قلبها بين ما تُحبه وما تريده، ودت لو ناشدته: أعنِّي على نفسك بكثرة الغياب؛ وخذ معك كل

ذكرياتك كي تلتئم أوتاري وتصلح للعزف، ولكن بقيت خيوط الحنين تجذبها إلى عقر داره. رددت في نفسها قول شاعر «ماذا أقول له لو جاء يسألني هل ما زلت أهواه؟» ألف مرة تطرح السؤال على قلبها في الرواح والبكور ليُغدق عليها بقولٍ فصل دون جدوى.

- علمتنا قواعد اللغة أن الضمير يغيب، فليتها تُخبرنا هل تُرجى عودته، فماذا لو عاد معتذرًا؟

لصرخت في وجهه وصفعت قلبه وبكيت على صدره حتى أنام، فنحن العالقون بين قلب يميل ونفس تأبى الغفران.

لو أكلت نار الحب بعضها حين تفقد ما تتغذى عليه، ما نهش قلوبنا ماضيها؛ ولكنَّ حنيننا يشد على يديها فتشتعل أكثر، وتزكيها لوعة الحرمان، ويزفر في وجهها الاشتياق فلا تخبو أبدًا، فظلت تراقبه من خلف النافذة المشرعة في ذهابه وإيابه، ومرات تفتح الباب قليلًا لتشبع عينيها منه ليهدأ قلبها، ليس بالأمر الهين أن تسارق النظرات لحبيب، كان يعمل بدوام كامل في القلب، حتى فقد حقه في المواطنة. أمسكت بهاتفها وكتبت على صفحات التواصل: «مُستهلكون يا حب وهذه بضاعتنا رُدت إلينا وجعًا وخذلانًا». قطعا أميالًا من الوعود ودروبًا من الأماني وحين ناوشته الحياة كتب بمداد قلبها براءة ذمة عاطفية من كل ما سبق،

أغمضت عينيها وتنهدت وقررت أن تدع زمام مشاعرها لعقلها الذي كان يدفعها دفعًا لترى المستقبل.

طبيب متميز، كفء، دمث الخلق، طموح، يأمل أن يذيع صيته في العالم العربي من المحيط إلى الخليج، بعد زيارات أربع عقبت حفل الخِطبة شعرت به يتسلل إلى قلبها مع ألم قليل يُصاحب التئامًا، منحت لوعتها صك توبة فتعافى جرحها، وقد أبدى عقلها موافقته من قبل عليه فحظي بإجماع آراء الروح والفكر والقلب، فالحب لا يجلس كثيرًا في محطات الانتظار، يترقب بكلف عربات الوافدين لينسق حقائب التلاقي، فقامت إلى عقد الياسمين الذي كانت تتنسم منه عبق الأمس، وطرحته في سلة القمامة، فقد حسم القلب أمره ولفظ نفاياته وبقي المصحف والمسبحة الزرقاء ليبقى الأجر لصاحبهما.

❀ ✿ ❀

لم يحتمل الغربة فعاد إلى مسقط قلبه فقد اكتفى بها وطنًا، وضع الحقيبة من يده وأحاط خصرها بيديه، وظل يقبلها حتى استشعر طعم النعناع من فمها، وقال:

- جذبني الحنين إلى أريجك يا عمري.

أجلسها على ركبتيه وتحسست شفتاه شعرها المرسل على جبينها، فقبلها بين عينيها وأشار إلى الحقيبة وقال:

- لا تفتحيها بعد اليوم.

فضت زقزقة العصافير اشتباك نومها مع الأحلام، فانتبهت متوترة وشيء من القلق يفترش ردهات قلبها، فانتظرت أن تسمع صوته عبر الهاتف، فحياتها دونه غربة. تستحلفه أن يعود من غربته، وأغمضت عينيها تستحضره، بعدما تدثرت أيامها به وهي الفتاة الحالمة، لم تعرف الدنيا إلا على يديه، فقد كان كل دنياها، أتاها على جواده الأبيض كفارس أحلام تنتظره، أَسَرَها في مملكته فكان لها العالم كله، ترى الدنيا بعينيه وعين من تقرأ لهم من الأدباء، مرهفة المشاعر كانت ولم تتذوق طعم الحب قبله، له ادخرت مشاعرها وما أطعمتها إلا لفؤاده.

نداء الأنثى بداخلها احتواه بعنفوان رغبته، سقته حتى الثمالة من عبير روحها فبها تعلق، أرض الحرمان التي كانت عليها تحيا أمانيها؛ أعاد حرثها من جديد فأينعت وأضاءت لها الدنيا، تعاظمت مشاعرها فتدفق حبها ميمون الغدوات مبارك الروحات.

أمسكت بهاتفها وأرسلت له هذه الرسالة: «أيامي معك أجمل سنين العمر».

❀ ✿ ❀

لم تفلح أي محاولة منه تجعله يلتزم بصلاته، ولم يرضخ لدعوته إلى طريق الهداية والعفة، في تربة غير صالحة أراد لدعوته أن تُثمر، في مناخ غير صحي أراد لورعه أن يستقيم، كان عليه أن يعي أن المريض هو الذي يُعدي وليس العكس، وقد قيل لغيره: دع أرضك فإنها أرض سوء. بينما كان أشرف يتذمر من وعظه المتكرر له واعتبره نغمة شاذة بينهم، كان تنسكه يُعكر عليه صفوه، ويأخذ شيئًا من شهيته للحياة، ويُفسد عليه نوبات مجونه. فجلس يخطط لواحدة من اثنتين، إما أن يتحرر حسام من قيود التزامه حتى لا ينغص عليهم حياتهم، أو يترك العمل ويدعهم. فكان ينشد أرضًا فارغة تُشبهه، فضفاضة بقدر ما تحوي قمامته، فبدأ يتحين الفرصة ليُشعل فيه حماس جواده، ويرفع الحواجز عن جموحه، فيروق لخلجاته الأمر ويرواغ نواهيه ويتخطى محاذيره التي صنعها تنسكه، حتى يرى الدنيا بغريزته لا بورعه، وقد ساق إليه القدر فتاة جميلة ممشوقة القوام أتت أول أمس، واختارت سيارة واليوم أتت ومعها المال لتستلم السيارة.

فطلب من حسام تحرير العقد لها لانشغاله ببعض الأعمال الإضافية، جلس حسام ولا يكاد يرفع رأسه من الأرض وهو يتكلم معها ويطلب

منها بعض البيانات، حتى انتهى من تحرير العقد، فقامت الفتاة ومدت يدها له لتشكره بحركة عفوية منها تتعارض مع سمته، فتردد ثم مد يده وصافحها، دلف ياسر من الباب الفرعي ورأى تلك المصافحة فتعجب.

فقال أشرف بزهو بالغ عبأ به صدره:

- على نار هادئة سيذوب الجليد بالتدريج، وما يكون صعبًا يكون أكثر إمتاعًا لنفسي وربما تكشف لنا الأيام أن الضريح الذي كنا نتبرَّك به سكنه بالخطأ «فالنتاين».

لم يهتم ياسر بمغزى كلماته؛ فقد كان الترتيب ليوم زفافه هو ما يشغله.

❀ ✿ ❀

عجن المرح أنوثتها فتشكلت بأنامله، أخذت الغناء مأخذ الجد، هامت بالموسيقا الصاخبة، وكذلك ملأ الصخب حياتها حتى حافتيها، صيحات الأزياء والهواتف الحديثة عالمها الممتع الذي تحياه، لم تفقد من روتين حياتها إلا غياب صديقتها ميرفت، فاتصلت بها:

- كيف حالك يا قمري الغائب؟
- وفريد بخير؟
- دبي جميلة كما نراها على الفضائيات؟

قالت بلهفة في شيء من الذهول:

- حقًّا قضيتم ثلاثة أيام في برج الخليفة؟!
- في الصيف القادم نزوركما أنا وأمي.

ثم صمتت سالي قليلًا.

- لا أحد في الوجود يستحق أن يحظى بمفتاح سعادتي وشقائي في يده، يعبث به ويهمله ويلقيه زاهدًا وقت ضجره، فأنا لا أفكر في الزواج، فالحياة جميلة ولا تريد منا إلا التحرر والانطلاق، فلمَ أضع حدودًا لمرحي وشغفي بالحياة وأجلب لنفسي متاعب الحمل ومشقة تربية الأبناء، وأجعل نفسي رهينة لزوج لا يأبه بي إلا لغايته؟!

كانت لا ترى من الحياة إلا بهرجة بريقها، نصف كوب ممتلئ بخيال خالطه عرق من مجون، تركت كل لهو يلمس الجانب البعيد في أعماق روحها فترنمت حياتها بالعبث.

تذكرت أمرًا مهمًّا فسألتها عنه:

- وكيف الحالة الصحية لوالد فريد؟

وصمتت قليلًا وقالت وهي فزعة:

- ومتى سيجري الجراحة؟

- أخبري فريد بتحياتي له، وغدًا سأتصل به وأطمئن منه على والده.

❀ ✿ ❀

تجاوزت العاشرة وجعًا بتوقيت الفراق، فاستيقظ معالي ضميره متأخرًا، وداهمت أروقته لوعة أحرقت فؤاده ندمًا على ضياعها، لقد كانت كنزًا بمشاعرها الرقيقة وقلبها الذي ابتغاه؛ ولكن بحماقته فرط في هذا الكنز، فكان جواد عزيمته كسيحًا، تراجع وكَلَّ وغارت قدماه في الأرض بعدما رأى العاصفة، لقد كانت حلمًا تعجل الصحو منه، كل الطرق التي كانت تؤدي إليها تركها وأعرض عنها واختار لنفسه نفقًا مظلمًا يحيا فيه وحده. زغاريد فجة الإيقاع انطلقت من بيتها نهارًا، لهثت إلى سمعه فكأنما أطلقتها حناجر شامتة، فتمزق فؤاده.

وضع أفكاره على وسادة الحسرة، بعدما أجهده حديث نفسه فتجمد الدمع في عينيه وبكى قلبه، بعدما باح بالذي يُضنيه ففاضت أحزانه، فلا يُعلَم عمق المحبة إلا ساعة الرحيل، كأنها لم ترحل إلا اليوم، فقد كان يُعزِّي نفسه بعدما فك ارتباطه بها بقرب جوارها وأنه سيستعيدها مع الأيام. فجاء غيره وكذَّب ظنونه وخيَّب آماله وقطع عليه الطريق الذي كان يدخره لأحلامه المؤجلة، تمنى لو عاد الحجر إلى كف راميه! عبثًا تمنى فلن يسترد المرء ما ذرفته مآقيه. أكمل ليلته على فراشه برجفة خلجاته

عاقدًا يديه على صدره، وقد خططت أحلامه من قبل أن تلتف يديه حول خصرها وتحتضن حب عمره في نفس القاعة..

تنهد بأسى ونادى في أعماقه:

«إلى كل دموعي المختبئة.. فلتملئي الليلة كف وسادتي».

❀ ✿ ❀

لم يعد شيء من الماضي يتربص بها؛ فقد تجاوزت كرة مشاعرها بكامل استدارتها خط الحنين، أفرغت قلبها منه شيئًا فشيئًا حتى اعتصرت آخر قطرة من غرامه، أيقنت بسخافة ما يقوله البعض إنما يبكي على الحب النساء؛ فلفظت ماضيها دفعة واحدة، أسبغ الله عليها شذرًا من نعمة النسيان، فتفقدت قلبها فلم تعد تراه، أغلقت بابًا حرصت على بقائه للود مفتوحًا فصاحت خواطرها في وجه ذكرياته، وودت لو أسمعته خلف جداره: «الفراشة التي أهملتها مضغت ألمها سرًّا وتعافت حد النسيان، وعفوًا قد نفد رصيدكم من الودِّ فلا كيل لكم عندي ولا تقربون». وتهيأت زهرة الجوري لبهاء العمر الذي تنشده، كان كل شيء جاهزًا لإتمام الزفاف، رغم أن مدة الخِطبة كانت قصيرة، وفي قاعة متوسطة المستوى وحضور تجاوز مئتَي شخص، وقف بعضهم يلتقطون الصور مع كريم وسهير، قامت رباب وقرصت سهير في ركبتها تقليدًا لما يصنعه البعض في الأحياء الشعبية، وشيء آخر قد قامت به؛ أحكمت حجاب شقيقتها التي رفضت أن تنزع حجابها يوم الزفاف، فتألقت في إشراقتها كأميرة وقد كانت أميرة بالفطرة، أثمر الربيع في عينيها بعدما أغدقت سحب الحب على بوار قلبها بمطرٍ كريم. بإشارات ضبط السعادة تجلى وجدهما وتوحد توقيت الحب بقلبيهما.

عمت القاعة بهجة وسرور وبشر وحبور، فتمايل زكريا طربًا من النشوة، أو ربما كان يُحدث حركة في جسده يستدفئ بها حتى لا يهزم البرد جسده النحيل، حلَّق كريم ببصره عليها ليُعلن للجميع أنها آلت إليه بعصمة الحب، رأى فيها عمره القادم، وعدها بعينيه أن يصب السعادة في قلبها حتى يفيض، غلبه وقاره فكان متحفظًا في حركاته ولا يهوى المشاعر المفتعلة، فالفرحة الجليَّة مهدها في القلب وتنطق بها العين. وقد أفصحت عيناه عن بلاغة فرحته.

أغمض محمود عينيه على أنغام أغنية «ضميني»، وتمايلت رباب على وقع النغمات، في حين كانت صفاء تصفق بيديها ودموع الفرح تنساب من عينيها، فقد تحقق شطر أمانيها.

وفي آخر القاعة كانت دموع من نوع مختلف، دموع حزن وأسى ذرفتها عينا ليلى، تنظر إلى كريم كأنه لص سرق فرحة العمر من ابنها الذي نصحها بأن لا تذهب حتى لا يداهمها الحزن وتشعر بالغربة بينهم.

❀ ✿ ❀

الساعة الثانية ظهرًا بتوقيت القاهرة؛ ولكن قلبه بقيَ متعلقًا بتوقيت مكة، بعدما انتهى توًّا من تحضير خطبة الجمعة، وكانت بعنوان: «فضائل مكة والمدينة»، جلس يتابع البث المباشر من بيت الله الحرام لصلاة العصر، ويبدو أن موضوع خطبة الغد قد هيج مشاعره فخالطت الدموع عينيه.

بوجه لا يُرى عليه إلا قليلًا بدا مهزومًا، وبكى وقت خلوته وكان في معزل إلا من أهله، خرجت أسماء من المطبخ وفي يدها طبق به حلوى، فما إن لمحت دموعه حتى وضعت الطبق على المنضدة وقالت بلهفة:

- ما بكَ يا حبيبي؟ لمَ تبكي؟

مسحت أنامله دموعه وهدهد نشيجه:

- شوقًا إلى مكة! والله لا أدري هل مكة في القلب أم القلب في مكة، نفسي تتوق إلى زيارة بيت الله الحرام.

حتى في أحلك ظروفه كان يحتفظ برشاقة كلماته، كما كان نبيلًا حتى في كسرته. فقالت أسماء وهي تربت على كتفه:

- لا كلف الله نفسًا فوق طاقتها، فالحج يحتاج إلى المال الكثير، ولا تستطيع إليه سبيلًا.

تطلعت رغباته لما هو أيسر من ذلك:

- على الأقل عمرة أنعَم فيها بالزيارة وصلاة في الروضة.

قالت أسماء في لهفة وبادرته بفكرة ولجت رأسها توًّا:

- ما رأيك لو ادخرت من راتبك شيئًا كل شهر، ثم...

قاطعها قائلًا:

- بعد كم من السنين؟!

أيقنت أن الحالات الحرجة من الاشتياق لا يُجدى معها الانتظار، فدعت له بصدق:

- أعانك الله ورزقك من حيث لا تحتسب، وكما علمتني لعل دعاءً وقت السحر تُقضَى به حاجتك.

خرج حمزة من غرفته بهاتف والده الذي دق وهو يمارس ألعابه، لم يرد خالد على الهاتف بعد أن علم أن الشيخ صلاح هو الذي يتصل به.

فقالت أسماء:

- لمَ لا ترد عليه؟

فقال متبرمًا:

- الشيخ صلاح أخبرني من قبل بجلسة تحكيم بين عائلات متنازعة، وأنا حالتي المزاجية سيئة.

حمزة:

- أرد عليه يا أبي وأخبره أنك نائم؟

احتد صوته وامتلأت عيناه غضبًا:

- من علمك هذا يا بني؟!

أجاب حمزة مذعورًا وقد تملكه الخوف:

- في منزل أحد أصدقائي.

أشفق على جزع صبيه فهدأت فيه ثورته وقال:

- وهل أنا نائم الآن؟

زجرته غمغمة أمه ونظرات أبيه فقال مرتجفًا:

- لا يا أبي.

ترفقت به كلمات أبيه وكذلك نظراته وخاطبته في دعة:

- فلمَ تكذب والكذب يورد صاحبه جهنم، ومن شبَّ على شيء شاب عليه؟!

ربت والده على كتفه وأشار له أن يمضي لغرفته. فقالت أسماء:

- اذهب إليهم، لعل حاجتهم تُقضَى على يديك، وكما علمتني نفحات السعادة التي تمنحها لمن حولك ترتد على قلبك بردًا وسلامًا،

فالله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه. وطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه.

كانت عيناها تشعان دفئًا على برد أحلامه، شدت من أزر خواطره وربتت على كتف أمانيه فهدأت خلجاته فكان همس حديثها نغمة حالمة يطرُب لها سمعه.

نهض خالد وودعها بعد أن أخبر صاحبه بقدومه.

❀ ✿ ❀

قرأ الرسالة على هاتفه فكاد قلبه يطير من «برقان» في الكويت إلى حي الدقي. اتصل بها سريعًا وهو يقود سيارته إلى مقر عمله.

- صباح السعادة يا عمري.

أغمض عينيه منتشيًا وقال بزهو عاشق:

- آه كم تشجيني هذه الكلمات، كأنها إكسير الحياة بالنسبة إليَّ!

- وكيف حالك؟ وهل يزورك أحمد؟

- وهل كان وحده في زيارته لك؟

- في المرة القادمة عندما يكرر أحمد وزوجته الزيارة، أخبريهما بتحياتي لهما.

- لقد فكرت في أمر وهو حل وسط بالنسبة للعمل هنا، سأطلب إجازة مفتوحة لمدة سنة، أعود فيها إلى الفيوم أرتب كما أخبرتك بعض الأمور، ويرزقنا الله فيها بطفلة رائعة مثلك يا طفلتي الكبيرة، وأعود إلى العمل بعد ذلك. وإن رفضت إدارة الشركة سأُنهي تعاقدي معهم، فأنا لا أحتمل الحياة ولستِ بجانبي.

أخذت في قلبه ملامح قريته فكان حنينه لها لا ينقطع، وتشكلت فيها خريطة وطنه فهام بها في صحوه ومنامه.

سكت قليلًا وقال:

- كنت أعلم أنك ستكررين كما اعتدت هذه الجملة الرومانسية الرائعة: «قد تكون بالنسبة للعالم مجرد شخص، وقد تكون بالنسبة لشخص العالم كله».

- لقد وصلت توًّا إلى مقر العمل، سأكلمك لاحقًا.

أمطرت سحابتها بأرضه فاشتدَّ بها وجده، فمنذ نعومة أظافر قلبه ولم ينبض بالحب إلا في حضرتها، تسامت روحه بحبها فتسابق معها حتى آخر شواطئ الغرام.

❀ ✿ ❀

كسر بخاطرها بعدما تفلت من كل وعوده الحالمة لها بدعوى ظروفه القاسية، وها هي تتزوج بأول من يتقدم لخطبتها، كأنها ترد له الطعنات بمثلها، ثم قلَّب الأمور بعصا الانصاف أمام عينيه ليراها من وجهة نظر مختلفة وبعين محايدة، استشعر خطأه بفسخ الخِطبة سريعًا وكأنه وقف في صف الصخرة التي حطمت سفينة أحلامه وانحاز إليها، امتزج بداخله التحسر بالتمني، ودَّ لو أعادت الأيام المشهد القديم لرتابة أدائه ليُبدع أمام جمهور مشاعره. تعجب في نفسه حتى بعدما دفنا ذكراهم نبت على قبورهم الحنين، عاد على روحه يُعنِّفها ولم يكف عن تقريعها إلا بعدما وقف أشرف أمام مكتبه.

- هل تأتي معنا غدًا لحضور زفاف ياسر؟

صمت حسام مترددًا ثم قال:

- لم أحسم الأمر بعد.

فقال أشرف:

- اعتذرت له من قبل عن حضور الخِطبة، فمن الواجب أن تذهب لتهنئته غدًا، أو قدم له مبررًا قويًّا لعدم تلبية دعوته.

عاد بجذْعِه وألصق ظهره بالكرسى وعقد يديه على صدره وقال:

- ما أجده من تبريرات ربما لا تكون مقنعة له.

رمقه أشرف بنظرة المستعلم وقال بنعومة الأفعى التي تسكنه فقد كانت له من الوجوه ألفًا، بارعًا كان في ارتداء أقنعته:

- وهل بوسعك أن تخبرني أنا بها؟ فربما تكون حقًّا مقنعة.

أقر حسام بما يُمليه عليه التزامه وتنسكه:

- حفلات الزفاف لا تخلو من التبرج والاختلاط والمعازف الصاخبة، وهذه مخالفات شرعية.

فقال أشرف وهو يتظاهر بالاقتناع:

- ربما يكون معك حق؛ ولكن من الممكن أن تذهب وتهنئه وتنصرف سريعًا.

فصمت وكأن الأمر قد بدا له، وغفل «رب لدغة أتت من مأمن».

❀ ✿ ❀

الحالة الإيمانية التي حلق فيها بفؤاده في فضاء نسمات الطاعة وأعمال البر والصلاح لم يدم عليها طويلًا، وعاد الكرَّة إلى حياته من قبل، ظل ينفث دخانه ويحملق في السقف وهو يفكر في الأمر، صبَّ في كأسه قليلًا من الخمر من الزجاجة الملأى التي اشتراها أمس، وكانت هذه المرة الأولى التي يعاقر فيها الخمر من بعد وفاة خليل.

أسند ظهره إلى الكرسي وعاد برأسه إلى الخلف ومسح بيده صلعته، كأنه يجدد الدماء التي تصل إلى وعيه وإدراكه ليحسم الأمر. هل تعلقه بسعاد مجرد شهوة مؤقتة سرعان ما تزول؟ فقد كان سحر أنوثتها يكاد يذيبه وخصلات شعرها الناعم التي خرجت من تحت حجابها وافترشت جبينها تجذبه دون رفق مع عينيها الخضراوين. فهل كل هذا الولَه بها مجرد هوى عابر أم يجدد بها حياته ويستدفئ بحبها قلبه وتبقى طول العمر بجانبه تروي بصباها دنياه؟ وربما يجد فيها ما يكتفي به عن النساء بقوامها الغض الممتلئ وصدرها الشامخ وأنوثتها المتوهجة، فلم يكن يرى المرأة إلا بعين نيوتن؛ كلما زادت الكتلة زادت الجاذبية، فصار بها هائمًا كعصفور لم يُنثر له القمح إلا من شرفتها، فصار في قلبه ركنًا يخصها. فالاعتراف بالحب فضيلة. فقد تجاوزت مشاعره الحد الأقصى للشغف،

فحسم أمره وأطفأ لفافة التبغ وقرر أن يذهب إليها حالًا، دفعه الشوق ليرسم لوحتها الخلابة على جدران قلبه ولم يعُد يبالي بالسخط الذي سيفترش أوعية بيته.

❀ ✿ ❀

زغاريد تنطلق وشربات يُوزع على الحضور وزينة وأنوار كثيرة، وهي تتألق بجواره بثوبها الأبيض، والفرحة لا يكاد قلبه أن يتحملها، وعلي يقترب منه ويمد يده يصافحه.

افترشت السعادة حنايا صدره بعدما وهبه خياله هذه الأفكار وهو في طريقه إلى سعاد ليحسم أمره.

وصل إلى السوق وجد علي يجلس على الفرش فحياه.

- أهلًا عمي مسعد.

- أين سعاد؟

- ذهبت تشتري أغراضًا لها.

جذب مسعد قفصًا فارغًا وأكفأه وجلس عليه ووضع يده على كتف علي وقال:

- أنت تعلم يا علي مقدار حبي لك.

- وأنا أحبك كما كنت أحب أبي.

فقال مسعد مبتسمًا:

- وأنا أريد أن أكون إلى جواركم دائمًا، فهل ترضى بذلك؟

ناول علي أحد الفقراء صدقة كما عودته أمه أن لا يرد سائلًا وقال مبتسمًا دون أن تدري براءة طفولته مغزى السؤال:

- أنت دائمًا إلى جوارنا، تأتينا في كل يوم تساعدنا وتلعب معي أنا وإخوتي.

- ولكني أريد أن أعيش معكم في البيت.

اعترضت كلمات علي طريق كلماته:

- كيف ذلك وأنت لست من أقربائنا؟

رمقه مسعد بنظرة حانية وتبسم في وجهه:

- فما رأيك لو تزوجت والدتك؟ وكنت معك أنت وإخوتك أساعدكم كما اعتدت ونخرج إلى الحدائق والملاهي في كل يوم جمعة، وأساعدك في مذاكرة دروسك؟ فأنا حاصل على الشهادة الإعدادية ويكفيني أني أحبكم حقًّا، لا أدَّعي ذلك.

نظر علي إليه نظرة لا تُنبئ عن شيء، وعاجله بسؤال ليُلقي الكرة في ملعب غيره، فالأمر ليس بيديه وحده:

- وهل ترضى أمي؟

صمت مسعد واجمًا فمسوغات القبول افتقر للكثير منها، فاستباحت رأسَه الوساوس.

- لستُ وسيمًا ولا أُجيد كلمات الغزل ويداي فارغتان، فلن أجد مهرًا أُقدمه إلا صدق مشاعري، فليتها ترضى يا علي.

أبت خواطره أن تستقر على رأي، فما تجمعه الأحلام تفرقه اليقظة.

❀ ✿ ❀

خرج عادل من مقر إدارة الشركة إلى موقع العمل، قاد سيارته ببطء حتى انتهى من كتابة منشور على صفحة التواصل الاجتماعي، وبعض أحلام المستقبل تراوده بالعودة إلى مسقط رأسه وأن يبني له بيتًا واسعًا تحيط به الأشجار ومن حوله تقف أبراج الحمام شامخة كتلك التي كانت تبهره في طفولته في بيت عمدة القرية.

ناوشته ذكريات الصبا فعاد بالزمن إلى الوراء وتذكر معاناة والديه في تربيته وإخوته، فقرر حين عودته أن يرد لهما نذرًا يسيرًا من إحسانهما ويصنع صدقة جارية لكل منهما، وأن يحج عن أمه كما حجَّ العام الماضي عن أبيه بعد أن يؤدي العمرة مع هند كما وعدها فور عودته، وأن يمتد ظلُّ إحسانه على إخوته الثلاثة فيقيم لهم مشروعًا تجاريًّا، يدر دخلًا لهم يدفع عن كواهلهم ضغوط الحياة وشظف عيشها، وقد خطط لمشروع آخر سيديره بنفسه لينتفع به فقراء القرية. وضع في أُفق الخير جدولًا جليلًا لأحلامه.

غاص في خياله ليخطط للمستقبل، فتعلقت أمانيه التي خطها قلبه على جدرانه بأهداب واهية، وانفجرت إحدى إطارات السيارة،

فتدحرجت وتردَّت وأعلنت إشارات ضبط العمر تجاوزها خط النهاية، ومعها تردَّت أحلامه من على جسر الخير الذي ربط بين غربته وقريته، فرحل في صمت ولم تبقَ إلا نية العطاء التي احتوتها ضلوعه.

❀ ✿ ❀

لم تكن فرحة واحدة فحسب؛ بل تهيأ قلبه لاستضافة فرحة جديدة، فبعد مُضي شهر على زفافه افتتح عيادته الخاصة في حي شعبي ليساعد الفقراء والكادحين، وكانت قيمة الكشف عشرين جنيهًا، اكتظت العيادة بالمرضى، ليس للأجر الرمزي الذي يتقاضاه؛ ولكن لكفاءته ولكلماته الرقيقة ووجهه البشوش ولصدره الرحب الذي يتسع للجميع.

يقتطع ثماني ساعات يومي الاثنين والخميس ليعمل في أحد المستشفيات الخاصة. يوم الجمعة يكون في صحبة سهير يستدفئ بحبها، لم يكن رومانسيًّا متفرغًا للحب ومطارحاته؛ فقد كان بداخله رجل شرقي لا يُقر بالعشق إلا ليلة الجمعة، يكفيه لقاء حميمي بضوء خافت لترتوي مشاعره، قليل الكلام ليس عن عجز وضعف؛ بل حكمة وتمام عقل، لينَ العريكة، يعودُ من كدره سريعًا. جادًّا كان في حياته لا يمزح؛ ولكن يقبل مداعبات من حوله، كريمًا بعلمه على كل من يستوقفه ليسأله عن علاج لبعض الأمراض الخفيفة كالحمى ونزلات البرد، في طيات ملابسه ورقة وقلم دائمًا لمثل هذه المواقف. وكانت نفسه تُحدثه بتخفيض قيمة الكشف تأسيًا بالطبيب محمد مشالي «طبيب الغلابة».

فقد كان يحوي بين ضلوعه قلب طفل صغير؛ ولكن بمواقفه كان كبيرًا، كان كالربيع في أوج عطائه، فمنح كل من قصده كف إحسانه، فأحبه الجميع.

جلس العروسان في الكوشة، وحولهما التف الأهل والأصدقاء، زغاريد وألعاب نارية وآلات تنبيه السيارات.

فرحة عارمة بالخارج عمَّت جموع الشعب المصري بعد فوز المنتخب الليلة ببطولة إفريقيا للأمم التي أقيمت بأنجولا، وفد حسام من بعيد وخطواته تكاد تتعثر ببعضها من فرط حيائه، لم يحضر مثل هذه المناسبات من قبل؛ فقد كان يكتفي بحضور عقد القران في المسجد ولا يرتاد مثل هذه الساحات. اخترق في صعوبة الصخب والزغاريد والأماني وليلة العمر والحناء والعيون المبتهجة.

صافح ياسر وعانقه وتراجع سريعًا قبل أن يجد نفسه مضطرًا إلى مصافحة العروس.

ناداه أشرف ليجلس معه ولكنه أبى، فطلب منه أن يجلس خمس دقائق فقط وينصرفا معًا، فجلس على مضض وعيناه لا تفارقان الأرض خشية أن تقع على ملابس فاضحة وفجور، ونادته نفسه بالنهوض حتى لا يتدنس سمعه بمعازف وشرور.

استفز خجله أشرف وأراد أن يبطش بحيائه وعفة بصره.

- انظر معي، هل هذا هو سيد الذي يقف مع الفتاة التي ترتدي الفستان الأزرق؟

فظل يتنقل بعينيه، والحقيقة إنه لم يكن في الحفل من ترتدي فستانًا أزرق وسيد لم يأتِ بعد.

انتهت الدقائق الخمس فبادره بسؤال: لمَ لم تفكر في الزواج مرة أخرى؟

تململ شيء بداخله ثم بدا في عينيه تحد بالغ وقال:

- أنا أبحث عن فتاة مثالية ربما لم تلدها أمها بعد، فلا تغرك كثرتهن فعند الاختيار لن تجد شريفة إلا من أنجبتك. فكل النساء اللاتي عرفتهن سقطن في حوادث ثقة متفرقة.

كاشفه حسام بما يُخجله ليرده عن ضلالة آرائه:

- لا تتجنى عليهن في الحكم، أنت الذي أطلقت بصرك على الساقطات فلم تعد ترى غيرهن.

تناول أشرف كوب ماء من على الطاولة ليتجرع غيظه مع الماء ولا يُبديه، وردَّ على ملامته بحماس:

- الطاهرة التي تتحدث عنها هي التي تمنح ما تبيعه الأخريات، ولا عجب فعقل المرأة عمره سنة، وقلبها عمره سنتان، أما غريزتها فعمرها

ألف سنة، وأصارحك القول: شربت حتى الثمالة من حقارتهن حتى من كنت أراها قديسة دعتني لأعزف على قيثارتها أنغامي، فالمرأة تعرف بالسليقة من أين يؤكل الرجل، وأزيدك من الشعر بيتًا؛ لا يوجد في العالم إلا زوجة صالحة وكل زوج يظنها زوجته، وتمعن معي يا صديقي «الخطيئة والرغبة والغريزة والنار» كلمات مؤنثة، أتظن أن الأمر أتى مصادفة؟ كلَّا وألف.

ردَّ حسام على هاتفه وأخبر سيد بأنه ينتظره بصحبة أشرف، في الجانب الأيمن لبوابة الدخول ثم عاود الحديث: عندما تقف على أرض مستوية بالمعروف وصلبة بالحق الذي معها؛ فلا تنزعج ممن يتطاول على ثوابتك.

- كل منَّا له قناعاته وتوجهاته التي تحكمه؛ ولكني أرى المرأة بغير عينيك، أتنكر على أمك فضيلتها وعفتها أو على أختك شيئًا من ذلك؟ هيهات، فكما تزخر ذاكرتك بأسماء الساقطات فأرجاء المعمورة تضج بالكريمات، يا صديقي إن الفضائل لم توجد في الدنيا عبثًا.

ابتسم أشرف مستهزئًا وقال:

- تأمل حال الكريمات حولك حتى أعود إليك.

أخفض حسام بصره تارة وتجول بنظره بين الحضور تارة أخرى، زج به فضوله فتتابعت نظراته خاصة بعدما تركه أشرف وقام ليُسلم على أحد أصدقائه.

توًّا جاء سيد وجلس إليه وكل منهما يمني نفسه بمثل هذه الليلة، وإن كان حال كل منهما في تعسر مادي شديد.

فقال منتشيًا بهذه الأجواء المبهجة:

- الزواج نعمة وراحة واستقرار، ولعل الغد يحمل لنا الخير.

تحركت في القلب لواعجه فمزجت الحسرة كلماته:

- قد كان الخير في أيدينا ولكن بفرط حماقتنا أضعناه. أيها المشردون على قارعة الحب أفسحوا لي مكانًا يسعني وأوجاعي. ليت بوسعي أن أغني لأحلامي لتنام وأرجوها أن لا تستيقظ إلا بعد عام ونصف قرن.

رق سيد لنواحه وتخدل منطقه، فلو كان الدق على حجارة لتصدعت، فما بالك والدق على قلب صديق! شردت عيناه مجددًا عن الحضور ووضع يده على صدره ليهدهد مناحته وصاح في أعماقه: «أيها الحنين الذي يرتع في قلبي إلى متى أنت مستبد؟!».

فالمرء لا يحترق إلا بمن تسلل بداخله، فهلاك الشمعة على يد خيط احتوته، ثم داهمته خواطره بالقاضية كملاكم ألقى منديله مُعلنًا استسلامه.

«قد يطلب أحدهم متبرع كلى فمتى يُصادفني من أمنحه قلبي والشحن مجَّاني؟».

❀ ✿ ❀

أكل الحزن كبدها غمًّا على فراق زوجها، كم صرخت في أعماقها وتألمت وبكت وانتحبت على وداعه! تجرعت وحدها مرارة فقده، وبعد أن انقضت أيام السنة التي عقبت وفاته خلعت ملابسها السوداء لتعيش حياة جديدة.

فأقبلت بخُطى متمايلة ترتدي عباءة خضراء وطرحة سماوية اللون لفتها ببراعة فاستدار وجهها كالقمر.

فقابلها مسعد باسمًا:

- تحدثتُ مع علي ووافق.
- وافق على أي أمر؟
- على أمر زواجي منك.

فاحمر وجهها خجلًا وقالت بصوت هامس:

- ما دام علي قد وافق؛ أنا لا أردُّ له كلمة.

نخلت الأيام آخر حصى أوجاعه فودع مراثيه القديمة، ووضع كل أحلامه على كفي الدنيا لتُدللها.

- والزفاف الأسبوع القادم.

فقال علي:

- ولكني لم أوافق على هذا!

فسأله مسعد باستكانة سرقت شيئًا من فرحته:

- لمَ يا علي؟

فرد قائلًا:

- ليس عندي ملابس جديدة أحضر بها حفل الزفاف.

فجذبه مسعد من يده وقال:

- تعالَ لنشتريها حالًا!

ومضى الاثنان في طريقهما، رصدت سعاد كل ظواهر الحب في عينيه فانتظرت حتى تستطلع هلال الشوق في قلبها، فبدت شواهده في عينيها، فدقت طبول أيامها وتمددت نشوتها بين ضلوعها، ستجد الظل الذي تأوي إليه مشاعرها، والرفيق الذي يعاونها على مكابدة الحياة.

وإذا بظلٍّ جديدٍ يقف أمامها ليواري عنها الشمس:

- أنا رجل صريح ولا أبغي إلا الحلال، وأريد أن أدخل البيت من بابه. أنا مشفق على تعبك وإرهاقك في السوق، سأشتري لك شقة ولن أبخل على أولادك بالمال، وما تطلبينه مني سيكون عند قدمك.

سكت فؤاد ليسمع ردها على طلبه.

فقالت دون تردد:

- سأتزوج الأسبوع القادم.

طعنت وريد أمانيه فتجهمت خلجاته وعلى أثرها ملامحه، ولبث مشدوهًا بها سمع ثم سألها بصوت أجش:

- تتزوجين من؟!

- مسعد، عامل في المسجد المجاور لمحلك.

عبس وجهه وصار قاسيًا وزفر بقوة وقد اشتد حنقه عليها وقال في غضب شديد:

- عامل في المسجد! من فقر إلى فقر؟ راجعي نفسك فقد جئت أنتشلك من هذا الوحل الذي أدمت كفيكِ أنيابه.

رفع قلبها هامته وتباهت حروفها بحبه وقالت:

- لا أريدك أن تغرد معي؛ فقط دعني لتبرأ أوتاري الممزقة. أنا حسمت أمري وقلبي ليس بيدي، وقد أحسنتَ لنا كثيرًا وليس هناك داعٍ لإحسانك بعد اليوم؛ فسيكون لي زوج، وتدٌ يشد من أزري ويحمل معي عبء أيامي، فضلًا عن حب أولادي له وتعلقهم به.

لم يطُف بباله أن تلفظه مشاعرها وتأبى نفسها قُربه، جرفت أمواج رفضها سفينة أحلامه من شاطئ غرامه إلى شاطئ مخمصته، فتبلدت نظراته واحتمى بصمته واستدار إلى الظل لعله يستفيق من صدمته، فأحلامه بها كانت صارمة أكثر مما ينبغي.

❀ ✿ ❀

ها هي البيضة الصغيرة قد تدحرجت وانكسرت كما رأت أمه في منامها، وقد وقعت الرؤيا على هذا النحو، فاستحالت حياة هند إلى عدم، وامتنعت عن الطعام وأشرفت على الهلاك لتلحق به، كأن عجلة الزمان قد توقفت عن الدوران ووصلت رحلة الأيام إلى محطتها الأخيرة، فقد عاشت مرارة العذاب وتجرعت ألم الفراق، خيط رفيع ما زال يصلها بالحياة، فالسيارة التي دهسته دهست نوارة عمرها وطمست كل معاني الوجود فيه، فانتحبت أيامها كأن سيد الأحزان استجمع رعاياه من صدور كل المقهورين واستوطن عنوةً قلبها المهترئ. ظلام حالك يتجدد، هكذا بدت الدنيا في عينيها، فلم تعرف السعادة طريقًا إلى قلبها إلا حينما التقى بها في حفل زفاف إيهاب شقيق أميرة.

سحرته للوهلة الأولى التي تطلع فيها سواد عينيها، جرته أهدابها إلى غرامه فجاء يُنقب حول ضالة قلبه المُدقع، ولم يغادر الحفل حتى علم عنها كل شيء وصارحها برغبته في خطبتها، وفي اليوم التالي زارهم في البيت، وكانت مشاعرها تجاهه عادية، جلست معه تلبية لرغبة والدتها، فلم يقتنع عقلها بهذا الخاطب الذي هبط فجأة في حياتها دون قصة حب وغرام.

ولكن بدأ يلتفت قلبها إليه، حين قال في نهاية حديثه بعدما أفاض في الحديث عن نفسه ومثابرته:

- أعلم أن الزواج عن حب هو حلم كثير من البنات؛ ولكن أحيانًا يكون زواج الصالونات أبقى وأدوم، وتحضُرني مقولة يرددها البعض: إن الزواج عن إعجاب محاولة لا بأس بها لإطالة القصة القصيرة، ونحن لم نلتقِ إلا أمس؛ ولكني أشعر أن روحي التقت بكِ منذ زمن بعيد، فاستخيري الله في هذا الأمر، ولقد تركت رقم هاتفي مع شقيقك أحمد وسأنتظر منه مكالمة في آخر الأسبوع. لقد عانيت في حياتي كثيرًا وأسأل الله أن يكافئني بك.

ومد يده كي يصافحها فتمنت أن ينتهي الأسبوع سريعًا لتخبره أنه استوطن قلبها البكر الذي دق للمرة الأولى، فقد قرأت كل هجاءات العشق في عينيه، فأصابت قلبها رعشة كانت تنتظرها منذ أمد.

طرحتها الصدمة الساحقة على فراشها أيامًا، وقد مكثت أميرة إلى جوارها حتى استردت وعيَ قلبها وشيئًا من عافية الروح.

❀ ✿ ❀

حسام وأشرف يحتسيان الشاي وهم وقوف، والحديث بينهما عن حفلة الأمس، الشيخ خالد يقبل عليهما فأسرع حسام خطاه ليبدأه بالسلام وعاد أشرف إلى مكتبه.

عانقه خالد بحرارة وعينه ما زالت ترمق أشرف الذي تظاهر بالانشغال بترتيب بعض الأوراق على مكتبه، فقال مكفهرًا وقد قطب جبينه:

- هذا الشاب فراستي فيه لا تنم عن خير، كالذي استهوته الشياطين.

فقال حسام:

- ولكني أدعوه إلى الهدى، ائتنا.

فقال خالد وما زال ينظر إليه باستهجان:

- ملامحه لا تدل على فضيلة أو عفة، وأرى بعينيه مكرًا ودهاء، فاحترس منه واحذره، وكما تقول الحكمة «من يُصادِق الثعبان فليملأ داره بالترياق». وقد أخبرتنا عِبر الحياة بأن الوقاية خير من العلاج، فأرجو أن تلوِّح له بقلبك وداعًا، وإن لم ينتبه فأسمعه فراق بيني وبينك، لا أريد أن أشغلك عن عملك. كيف حال والدتك؟

- بخير والحمد لله.

عاد حسام إلى مكتبه وهو يكرر حكمة شيخه، الذي اتصل به جلال أمس وطلب منه أن يتكرم بزيارته فولج إلى مكتبه.

- خيرًا أخي جلال؟

- بداية، لك جزيل الشكر على هذه الكتب التي أعرتها لأروى، وقد كلفتني منذ أيام بردها إليك؛ ولكن شغلني التفكير في أمر يخصك.

- وما ذاك الأمر الذي يخصني وانشغلتَ به؟

- شيخي الجليل، أنا أعلم ظروفك المادية جيدًا، فقد أخبرتني بها زوجتي أروى، وربما لو قدمت لك المال لمنعك الحياء من أخذه، فكرت في أمر يعود على كلينا بالنفع، وربما تشتاق إليه نفسك وقد حالت دونه ظروفك.

دبت على وجه خالد بادرة فرحة فقال مبتسمًا:

- بشرني بذاك الأمر، بشَّركَ الله بالخير.

- أتكفل لك بنفقات العمرة، وتذهب تُعبِّئ صدرك من روحانيات مكة ونفحات المدينة.

تهلل وجه خالد وانشرحت أساريره ونبعت في قلبه عيون السعادة:

- والله يعلم كم أشتاق إلى مكة، وكم دعوت الله ساجدًا أن يرزقني زيارة بيته الحرام!

فقال جلال:

- صدقت نيتك فاستجاب الله دعوتك. أرسل لي غدًا جواز سفرك مع حسام، وتجهز للسفر من الآن، وسأخبرك لاحقًا بكل التفاصيل.

تهلل وجه خالد وصافحه ممتنًّا بكلتا يديه. بعدما أفضى له بكل ما في لغته من كلمات الشكر.

أطفأ لفافة التبغ العاشرة وشرب نبيذه المفضل دون أن ينتبه لطعمه، فالمرارة التي استشعرها برفض سعاد الزواج به عكَّرت صفو حياته، كيف تأباه وترضى بحياة الفقر من جديد بعدما قدم لها فرصة قلما جاد الزمان بمثلها لتنعم بالراحة والرفاهية وتضمن مستقبل أولادها؟ «وما دامت تحب آخر فلمَ لمْ تخبرني من البداية؟!».

داهمته نوبة حادة من الاشتياق، ولم يُطاوعه قلبه على النسيان فليس بوسع المرء أن ينسى نفسًا سكنت نفسه، وروحًا تعلَّقت بها حناياه. فترفق بأحلامه وقبل طعنها على أحكام صادرة بالحرمان وظل يترقب العفو. أبى لنزعاته أن تذهب أدراج الرياح أو تعود مشاعره من رحلة الحب بخُفي حُنين. لم تعرف تجارته الخسارة فاحتج أن تلحق بمشاعره. فكان على أتم الاستعداد أن يخوض معركة مع زوجته وأولاده من أجلها، ورغم رقة قلبه أضمر الشر في نفسه، جلس يجهز خطة محكمة لتستحيل كخاتمٍ في أصبعه يحركه كيف يشاء. ظل يتأمل رقعة الأحداث ليُباغت غريمه الملك على قلبها لتنتهي اللعبة سريعًا.

أمسك بهاتفه وظل يفكر بمن يستعين لتنفيذ خطة الشر التي أحكم خيوطها ولم تبقَ إلا صافرة البداية.

تصالحت مع الحزن فكانت تنشد راحتها في البكاء، تدور راغبة في فلك ذكرياته كنجمة مغتربة أبت أن تبرح مداراها، فقد ترمل قلبها وصارت مشاعرها ثكلى وهي الشابة الصغيرة، فقد رحل زوجها وضمه قبره، وهي تترقب عودته ليرتوي قلبها بأريج عطفه. يبست من الحزن غصونها، وماتت فيها أجزاء كبيرة على حدة، فانتظرت أن يأتيها الموت الأكبر ويلملم رعاياه ويرحل.

عاد إخوة عادل إلى قريتهم بعدما تكررت زيارتهم الثانية لهند، فقد اطمأنوا عليها هذه المرة حين بدت متماسكة أمام الجميع رغم أن كل طياتها كانت تنزف وجعًا، فقد سئمت من نظرات الشفقة في أعينهم، فتظاهرت بأن كل شيء جيد وأبدًا لم يكن كذلك. رفضت أن يصطحبها أحمد إلى بيته وجلست وحيدة تلملم من الأركان بقاياه، فقد كانت تتعاطى كل ليلة من ذكرياته مع مشروبها المفضل لتنام. كانت تذهب بالذكريات لبعيد ثم تعود باكية فحسب، قاومت حتى انطفأت منها أجزاء كبيرة على حدة. مرت الأيام بعد رحيله متشابهة الحدود والأبعاد، على وتيرة متجانسة من الوجع والانكسار والتيه. كان الحزن يقاسمها الفراش ورغيف الخبز ومكعب الضوء الذي بقي في أعماقها.

ختمت القرآن بعد فراقه أكثر من عشر مرات في شهر، ووهبت له ثواب حروفه، دعت وتضرعت على فراشها وفي صلاتها بعين ألفت البكاء، تنهدت تنهيدةً حارةً كأنما خرجت من عينٍ حمِئَة، أفقدها موته القدرة على الكلام، فلم تتعلم الكلام إلا في حضرته، هيَّجت الذكريات دموعها فانسابت دافئة بكامل أناقتها، تصفحت هاتفها وقرأت تعليقات ودعوات لها بالصبر، ثم قرأت منشور عادل الأخير على صفحة تواصله: «ليت العمر بنا يطول ليستظل القلب بنبت أحلامه».

انهمرت منها الدموع على فراقه وتجدد نحيبها عليه، كسرها رحيله، ولوَّح قلبها بالراية البيضاء. رمقت الساعة المعلقة على جدار كهفها بنظرة شاحبة، وتعجبت هل عقارب الساعة حمقاء لهذا الحد؟ فما داعي الركض المستمر دون جدوى؟ فأبدًا لن يعود، ولن تعدَّ الأيام هذه المرة، وظلت تردد في نفسها: «سامحني يا ربِّ فقد ضجرت من الحياة دون زوجي».

ضاقت بها الأرض حين احتوت من كانت بالقلب سكناهم، فبدت مهزومة وقد اجتهد الحزن في طمس آيات البهاء على صفحات وجهها، وعاثت مناحتها فسادًا بربيع أنوثتها، شعرت بأنها نصف إنسانة بنصف روح ونصف قلب، وبقيت ذكرياته على دفعات منتظمة تأتيها وهمساته تطوف بخيالها لا تبرحه، في كل زوايا صحوها تراه، وكلما خطر ببالها أنه

لن يعود يتمدد الوجع في حناياها؛ ولكن البشرى للصابرين، فحاولت جاهدة أن تتدرع بالصبر وترضى بقضاء الله، فلن يردَّ الدمع غائبًا. وهكذا بيدها مع الأيام مزقت رويدًا ستائر الليل الحزين؛ عسى شمس الحياة تشرق وتبدد ظلام قلبها المكلوم.

❀ ✿ ❀

فرغ الشيخ خالد من صلاة سنة الظهر، رجل ينتظره كي يقرأ على ابنه القرآن فجلس يرقيه. ومسعد يخبره أن إدارة الأوقاف أرسلت في طلبه فسيذهب ليرى الأمر، وشاب باكٍ يخبره بوفاة أمه وليس معه ما يشتري به الكفن، فيعطيه واحدًا من أكفان الصدقة، فعلى كتفه اعتادت رؤوس المتعبين أن تميل، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه.قام إلى غرفة الإمام ليمارس هوايته في كتابة الشعر والإنشاد.

ظل يكتب خواطره وما تجود به قريحته، ثم أتى بكتاب «لا تحزن» وظل يطالعه. مكث ما يربو على ساعة ثم قام وأعد لنفسه مشروب النعناع.

عاد مسعد واجمًا والحزن يقطر من وجهه، فقال خالد متعجبًا:

- لقد عدت بوجهٍ غير الذي ذهبت به، ما الأمر؟

فاضت الحسرة من ملء جفونه وقال بصوت متهدج:

- أخبروني في الإدارة بنقلي إلى محافظة سوهاج.

- سوهاج! لِمَ؟ هل اشتكاك أحد إلى الإدارة؟

سقطت من علو شاهق كل الأحلام، فتجهمت ملامحه وتكدست في عينيه حقائب الأحزان وقال بسخط:

- لا أعلم شيئًا، وأنا من هول الصدمة عاجز عن التفكير.

- ربما جاء أحد المفتشين ولم يجدكَ في المسجد.

هوى مسعد على الأريكة ومسح وجهه بكفيه وقال متحرقًا:

- أنا أنتظم في عملي كما ترى، حتى لو افتقدني المفتش ولم يجدني في المسجد؛ أقصى عقوبة لي خصم ثلاثة أيام من الراتب.

تنهد خالد تنهيدة خافتة وساورته شكوك وقال:

- لا بد أن في الأمر سرًّا وعِلة، هل ستنفذ النقل؟

- لقد اتفقت مع سعاد على الزواج وحددنا الأسبوع القادم، لو سافرت أنا هل ترضى بالسفر معي؟

ترنحت أفكار خالد وهز رأسه برفق:

- لا أظن ذلك، ربما ترفض أن تواجه المجهول معك؛ ولكن شاركها الرأي، فالمواقف وحدها تمنحك إجابات نموذجية لكل تساؤلات الحب.

احترقت قطعة السكر التي كان يدخرها لأحلامه فقال بأسى:

- دبر لي أمري يا إمام.

تجاوز خالد بصره سقف الغرفة إلى عدالة السماء وقال:

- سبحانه ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

توسلت نظرات مسعد له واستنجدت به عيناه:

- ألا تعرف أحدًا في الإدارة يلغي قرار النقل الجائر؟

- أعرف بعض المفتشين؛ ولكن الأمر أكبر من ذلك.

صمت خالد وذهبت به أفكاره بعيدًا حتى وصلت إلى ميدان التحرير واستناخت على أعتاب مبتغاه:

- وجدت الشخص المناسب وسأدلك عليه، فلعلَّ الله يقضي حاجتك على يديه.

❀ ✿ ❀

بعدما خرج مع شاب وخطيبته ليجربا سيارة جديدة؛ عاد حسام إلى مكتبه لينهي بعض الأعمال، فقد ازدادت أعباؤه في غياب ياسر، وقد عاد سيد هو الآخر بعدما اشترى لهما الطعام، فجلس الثلاثة على الطاولة وأكلوا، وكان أعجلهم شبعًا أشرف الذي بدا عليه أنه ينتظر شيئًا ما، حتى دق هاتفه فخرج من الباب وما لبث أن عاد كأنه اطمأن وهدأت نفسه.

اقتربت الساعة من الرابعة، أوشك العمل أن ينتهي، دخلت المكتب فتاة جميلة تألقت في إشراقها بشعر ذهبي ناعم، جلس معها أشرف قليلًا ثم قام وذهب إلى الخلاء، وأشار إلى حسام ليقدم لها صور أحدث ما لديهم من السيارات الجديدة.

فتاة جميلة، ذات نظرة ساحرة، بنبرة حريرية تهمس، تطلع إليها أكثر ما تطلعت إليه، ثم قامت وتناولت حقيبتها وقالت:

- سأعود إليكم غدًا لأعرف تفاصيل أخرى؛ إذ إنني على موعد الآن.

لم تصافحه، ودَّ لو فعلت.

ثم رمته بنظرة وانصرفت وتبعها بعينيه، قدم أشرف نحوه وقال:

- فتاة مثالية حقًّا!

تعجب حسام من تبجيله لها وسأله في غرابة:

- عجيب أن تمدح امرأة! ما الذي بدَّل قناعاتك؟

- الحق يُقال، أنا أمدح الجانب المشرق فيها، فأنوثتها متوهجة، فيا حظ من تكون له بنكهتها الغربية!

ابتسم حسام وقال: أفصح عن قولك يا رجل المعارك؟

امتزجت كلمات أشرف برائحة التمني:

- الحكمة تقول: المرأة المثالية إنجليزية حتى عنقها، إيطالية حتى خصرها، فرنسية في باقي جسمها، فقد تجسدت فيها حضارة أوروبا، فلو جاد الزمان بها ليلة لكانت ليلة العمر.

ابتسم حسام وقال: بالطبع تقصد بشرعية الحلال.

- عن تجربة أحدثك، إما الزواج أو الحب، أحدهما يقتل صاحبه.

أفصح له حسام عن فلول مشاعر لم ترحل بعد، وجرح لم يزل يثعب منه الحنين:

- وعن خبيئة صدري أُحدثك، الحب الصادق الطاهر يمرض ولا يموت.

يتسلل إلى القلب لحن قديم فيرتد بصيرًا بأنغامه، ويعود هائمًا يشدو، نُفيت واستوطن الأغراب في قلبك ولفظوا كل ذكرياتي إلى العراء؛ ولكني على عهدك باقٍ وسأدعو لك بالسعادة حتى لو مكثت عمرك على الضفة المقابلة.

حدجه أشرف بنظرة توحي بالسخرية وشيء من الشفقة:

- الحب الطاهر في زمن الميديا معلبات فاسدة انتهت صلاحيتها للتداول.

هزَّ حسام رأسه ولم يقل شيئًا، فربما آلمه كشف جرحه فطوى أحزانه تحت إبطه واستدار لمكتبه. ظن أنه تعافى، فبقيت ندبة تشير إلى شارع الألم القديم بردهات قلبه العلوية، فجلس يلملم شظايا فؤاده وطحنها بلا هوادة، وعجنها برفق ليعيد تشكيله كما أراد، وكتب على الشريط اللاصق الذي أحاطه به: «يُحمل من هذا الجانب حتى لا يتحطم مجددًا».

تدرعت بالصبر وتعالت على أحزانها وحاولت أن ترى الدنيا بغير عادل، صَعُبَ الأمر عليها في البداية؛ ولكن مع الأيام بدأت رحلة النسيان تجرفها لتتعايش مع قضاء الله، كأن جرحها بدأ يلتئم مع لوحة ترسمها الطبيعة للغروب في كل مساء، ويأتي الليل ثم تنجلي ظلمته وتشرق الشمس من جديد.

تعافت روحها رويدًا وإن لم تزَل تحمل في نفسها ركنًا مظلمًا، فقد تبلَّدت مشاعرها واصفرَّت ورقاتها بخريف الأحزان، وكان أحمد يزورها في كل يوم ويجلس معها بالساعات.

هند:

- الغريب في الأمر أني لم أجد أي صورة من صور الزفاف، وقد بحثت عنها جيدًا.

أحمد:

- ومتى انتبهتِ إلى غياب الصور؟

- منذ أيام؛ ولكنها كانت موجودة في الغرفة قبل أن يُعِد عادل حقيبته بنفسه.

- قد يكون هو الذي أخذها.

- فكرت في ذلك، ولكن لمَ؟

كلما خطر ببالها سبب يكون قد حمله على ما صنع، تفكر فيه بتروٍّ ثم في النهاية يلفظه قلبها؛ لكونه غير لائق عاطفيًّا.

أعياه البحث هو الآخر عن برهان قوي يطمئن له قلبه، فقد ركضت أفكاره في اتجاهات شتى ثم عاد يقول:

- لا أجد تبريرًا للأمر! وقبل أن أنسى، لقد صدر قرار من شركة البترول بصرف تعويض مادي كبير، وجدتُ خطابًا بذلك على الباب، وعلينا أن ننتهي من تنفيذ الإجراءات كافة في وقت قريب.

تنهدت وأسندت رأسها على أريكتها وقالت:

- وما جدوى المال في غيابه؟!

ثم أطرقت رأسها وشردت الأحزان بجَزَعها إلى بعيد، وبدت كطفلة تاهت من يد أمها في محطة قطار، أفقدتها الدهشة قدرتها على البكاء. عز على أحمد أن يراها هكذا فتعاطفه وحده لا يكفي، فليس لها ملاذ بعد الله غيره، فأراد لها أن تسترد نضرة روحها فناشدها:

- جئت أقترح عليك أن تأتي للعيش معي أنا وأميرة، فالوحدة ملل وكآبة، وأنا أخشى عليكِ من تبعاتها.

ناضلت حتى تُخفي مناحتها التي فرشت متاعها على صفحة وجهها، فما ربحت محاولتها وطل من عينيها قهر يافع:

- أنا أجد سلوايَ هنا مع ذكرياته وحديثه وضحكاته وملامحه الهادئة التي لا تفارقني.

- ولكني أخشى عليكِ من براثن الوحدة وضجر الملل.

تتابعت خلجاتها ودارت معه في جنبات البيت حيث جداول ذكرياته تتدفق في عروقها لتروي ظمأ حناياها إليه، فكانت ذكرياته تسكنها وتقلص فيها يومها إلى شرائح صغيرة بفرمان صارم من الحنين.

- تعالَ أنت وأميرة وعيشا معي.

فقال أحمد:

- أميرة حامل في الشهر الخامس، وتأتي والدتها إلى البيت لتساعدها في عمل المنزل، وقد نصحها الطبيب بضرورة الراحة التامة.

صمت قليلًا واستطرد قائلًا:

- وأنا أريدكِ أن تُغيِّري هذا الجو المفعم بالكآبة.

دحرت دموعها إلى منبعها وأخذت من جبال الصبر بملء كفيها لتردم خندق الأحزان.

- سأغيره ولكن بالذهاب إلى مكة لأداء العمرة كما تواعدنا أنا وعادل، وقبل العمرة سنذهب إلى الفيوم لزيارة قبر عادل وللبتِّ في أمر مهم.

أرادت أن تنفض كل متاعها المهترئ على بطحاء مكة، وتجدده بنسمات الإيمان ونفحات العبادة، فتسترده مُعافًى كما كان من قبل، فتعود من رحلتها ملتحفة بعباءة الصبر ومتعطرة بالرضا.

❀ ✿ ❀

خرج مسعد من مكتب النائب البرلماني الذي زكَّاه من أجل تعيينه في هذه الوظيفة، فقد أرشده شيخه إليه ليستعن به على أمره، فوجده قد ذهب مع لجنة الزراعة التي هو عضو فيها إلى السودان وسيعود بعد عشرة أيام.

وقع مسعد على تنفيذ قرار النقل، وسار بخُطى منكسرة إلى سعاد، وجدها وأولادها يتناولون العشاء، أخبرها بالأمر الصادم وقد أنبأَتْها عيناه أولًا بأمر جلل، فلم تعتَد أن تراه من قبل حزينًا هكذا.

فسألته:

- ولِمَ لا تتظلَّم؟

فأجاب والحزن يصبغ كلماته:

- لا بد من تنفيذ أمر النقل أولًا كما أخبرني موظف الإدارة، كأن الدنيا أبت أن أبقى إلى جوارك.

فقال علي:

- نذهب نحن معك.

رفضت سعاد الفكرة ولأكثر من مبرر تشبثت بالبقاء:

- وماذا نصنع في الصعيد ولنا هنا بيت وتجارة ومعارف؟!

ثم أطرقت رأسها قليلًا ثم صاحت:

- وجدت حلًّا!

رمقها مسعد راجيًا، ينتظر منها أن تضع طوق النجاة في يديه.

- قدِّم استقالة من عملك واشترك معنا في تجارتنا.

بعقلية برعت في التمرغ في حكم الأجداد رد عليها مستنكرًا:

- وهل يفعل عاقل مثل هذا الأمر؟! أستقيل من عمل حكومي ذي ضمان وتأمين صحي وراتب ومعاش؟!

- ستُتاجِر معنا ورزق التجارة أرحب من رزق الوظيفة.

صمت يفكر وأطرق رأسه يُقلب الأمور بين عينيه، ثم حدجها بنظرة متكسرة وقال:

- الناس يعلمون أن هذه تجارتك، فسيقولون عني ذئب ولص طمع في مال اليتامى.

- دعْكَ من كلام الناس فلن يهديك رشدك إلى غير هذا الحل.

اضطربت أفكاره وتلعثمت حروفه وأبت أن تخرج بجلباب فزعها، لتُخبرها بضعفه وانكساره، فتنهد وطال صمته، ويبقى التردد أسوأ عادات البشر.

❁ ✿ ❁

نام على فراشه ووضع يديه تحت رأسه وتطلع إلى السقف يفكر في سحر الأعين الذي كاد يقتله، والشعر الذهبي الناعم الذي أجج مشاعره وجره إلى تنورها، انتظر الغد بلهفة كي يراها مجددًا فقد أنضجت شهيته لشيء لم يتذوقه من قبل، فقد أسرت جانبًا كبيرًا من فؤاده كلمات أشرف عنها، وألهبت فيه رغباته.

قاوم أفكاره الماجنة وعاتب نفسه، كيف سمح لخياله أن ينساق إلى هذه الأفكار الحقيرة، وهو الشاب الملتزم الذي يراعي حدود الله ولا يتجرأ على معصيته؟

جاهد نفسه ليصلي قيام الليل قبل أن ينام ويقرأ ورد القرآن الذي فاته نهارًا، ليجدد باقة أوردته بجرعة من الإيمان، تتغلغل في سراديب نفسه فتشرق روحه بشذاها، شمَّر عن ساعديه ليتوضأ فدق هاتفه.

- كيف الحال يا صديقي؟ في صوتك أسى لم أعهده فيك!

علت وجهه مناحة وسأله: ومتى ذلك؟

- تغمده الله برحمته وألهمك الصبر على فراقه.

ذرفت من عينيه دمعة حارة خرجت تلقائيًّا بغير إذن لتواسي صديق عمره وتشاطره أحزانه.

- هل كان والدك مريضًا؟

- أسأل الله أن يجعل أيام مرضه كفارةً له.

وأغلق هاتفه وهو يكرر: «عظَّم الله أجرك يا فريد».

❀ ✿ ❀

كان ينتظر عطاءه من بيت الحب فكان نصيبه سهم يشير لوجع الحنين، فحزم حقائبه وخطى في الاتجاه المعاكس لمشاعره، واستقل القطار المتجه إلى سوهاج، يحمل بين يديه أحلامه صرعى ونزعاته هلكى، بنظرة سوداء يرى الغد، فبغير سعاد حياته عدم. ظل واجمًا حتى وصل القطار محطة الفيوم، فكر في العودة إلى سعاد وعلي وأختيه، فقد تعلق بالجميع، فكر في ترك الوظيفة ما دامت ستضع حاجزًا بينه وبين سعاد.

ولكن ماذا سيعمل بعد ترك الوظيفة؟ هل يجلس يبيع الخضار مع سعاد؟ ولكن هذا مال يتامى، فلمَ يشاركهم فيه؟ أنهكه الوجع حتى صارت ملامحه كهفًا موحشًا، صفعت الأيام قلبه فعجفت أفكاره وتفحمت سنابل رشده، نبتت في أرض أحلامه تصدعات عميقة فخشي أن تعجز الأيام عن رتقها.

- «تذاكر.. تذاكر...»

على وقعها عاد ذهنه الشارد وخياله الضعيف وارتد بصيرًا بأوجاعه لينظر إلى مستقبله بقلق وإلى حاضره بيأس، وشوك أفكاره يؤلم وجدانه. فقد ارتشفت أمانيه من عبير أنوثتها فثملت خواطره. وجبة دسمة

اشتهاها قلبه ولمَّا شمَّر عن ساعديه ليُطعم جوعته من ربوعها؛ انتحبت الدنيا كأم ثكلى فتعكر صفوه، وصرخت في وجهه الأيام واختلستها من بين يديه، فجلس على أطلال أحلامه باكي القلب مُحطم النفس، بأعماقه حسرة احتفظ بها لنفسه ولم يُبدها لمن حوله. ألم عميق ليس بوسع الكلمات أن تبوح به، فوضع يده على صدره يُهدهد مناحته.

تنهد وأمال رأسه إلى الخلف ثم غفا متخدرًا بأوجاعه.

- «شاي شاي...» ألحَّ بها البائع.

فانتبه وتناول كوبه وارتشف الطعم المر. ستمضي مع الأيام رحلتها ولا مفر، وفي النهاية سيخذلك الجميع وتُكمل الطريق وحدك.

❀ ✿ ❀

حزم حقائب قلبه هو الآخر ليذهب إلى حيث دعا الله، استقل طائرته في السادسة صباحًا، ردد دعاء السفر وهو ينظر على يمينه من النافذة، ومشاعر متضاربة تجتاحه؛ ولكن شوقه إلى مكة غلب حنينه إلى زوجته وأولاده. فأغلق على لهفته بابها.

التفت إلى يساره فكانت المفاجأة، أحمد وبجواره فتاة شابة رسم الحزن ملامحها بتؤدة، مصادفة بترتيب قدر جهل الجميع حكمته.

- كيف الحال شيخ خالد؟
- بخير والحمد لله.
- هل سافرت للعمرة أم للعمل؟

لوحة خريفية جذبت انتباهه فسارقها النظر ثم حدج أحمد ببصره وقال:

- للعمرة إن شاء الله، وأنتَ أخي أحمد؟
- للعمرة أنا وأختي، فقد توفي زوجها منذ عام تقريبًا.

رق قلبه لفجيعتها وقال داعيًا:

- تغمده الله برحمته وألهم أهله الصبر والسلوان وربى له أولاده.

فقال أحمد: لم يرزقه الله بأولاد.

كان حزنها قديمًا كأن قرونًا مرت عليه. فرمقها خالد بنظرة بها من الشفقة أكثر من المواساة:

- أجاراها الله في مصيبتها وأخلفها خيرًا منها.

وهنا بدأت هند تنتبه إلى كلماته التي أردفها قائلًا:

- وكان من دعاء فضيلة الشيخ الجليل محمد متولي الشعراوي: «يا ربِّ قبل أن تنزل بنا البلاء هبنا الصبر عليه».

ناشد أحمد صُحبته لينتفع بعلمه ووعظه:

- أتمنى أن تكون لنا صحبة في هذه الرحلة.

شدد بعينيه على رغبة صاحبه وهز رأسه بقليل من التبسم وقال:

- إن شاء الله صحبة تعين على الخير أخي أحمد. وفي أي فندق تكون إقامتكما؟

- في فندق برج الساعة.

- سنتجاور هناك إن شاء الله.

❀ ✿ ❀

أنظاره تتجه إلى الباب بين الحين والآخر، يتلهف إلى سماع صوتها الناعم حتى أقبلت، تجاهلته عن عمد وجلست على مقعد بعيد.

حتى أتاها سيد بعصير ليمون كما طلبت، توثب كأنه ينتظر إشارة أشرف ليسبق قلبه خطواته نحوها.

علَت نبضات قلبه، فبالإعجاب كانت وبالرغبة تعاظمت.

- هل بإمكانك أن تخرج مع هذه الفتاة لتجرب السيارة التي رغبت في شرائها؟

فرد قائلًا بعد أن أدار محرك السيارة:

- اسمي حسام.
- وأنا لبنى.

كان بوسع الصمت أن يفرض وجوده وحضوره الطاغي حتى تنتهي المهمة؛ ولكن من أجل مهمة أخرى بادرته بالكلام:

- أحيانًا الشاب الملتحي يفرض على من حوله التحفظ في معاملته.

سألها شبه مستنكر:

- وما داعي التحفظ؟ ثم رمقها وتبسم.
- لأن له سمتًا معينًا وأفكاره ومعتقداته الخاصة في الاختلاط ومعاملة المرأة، حتى إنهم يتشددون في مجرد مصافحة المرأة.

ألقى بحيائه على قارعة الطريق وتبسم لها مجددًا وقال:

- ليس كل الشباب الملتحي بهذه العقلية.

رمقته قليلًا ثم قالت: ربما تتضح لنا هذه الحقيقة بعد.

والحقيقة أن حرارة أنفاسها وهي تجلس بجواره ألهبت فؤاده وحركت غرائزه، فأخفض الزجاج المجاور له حين عادا بالسيارة ليخمد حماس مشاعره، انحدرت من السيارة وانحدر هو في متاهة بعيدة في دهاليز نفسه.

مدت يدها لتختبر تشدده فصافحها، وهو ينظر إليها مبتسمًا فنزعت يدها برفق وقالت في نظرة مشحونة حتى آخرها بالإغراء:

- أخبر زميلك بعودتي غدًا لتحرير عقد الشراء.

قبضت على قلبه بأهدابها، بجرة نظرة واحدة أردته، من خلوة عابرة هوى، اجتاحت كيانه مشاعر متضاربة فاهتزت أركانه. افتضح له ضعفه ووهن تنسكه، كاد يسقط في الاختبار الأول لخلواته، غاص في نفسه ليبحث عن شيء يردعه فلم يجد غير خيوط ورع واهية، تشبت نظراته بقوامها حتى اختفت بين المارة، وضع يده في جيب بنطاله ليُنيخ حماسته التي داهمته. وإحساس لم يتجرعه من قبل يملأ جوانحه.

❀ ✿ ❀

عبأ بالزهو نفسه فقد انتصر على غريمه، بعدما ذهب إلى موظف كبير في وزارة الأوقاف ألفت بطنه الخبز الملوث، وأغراه بعشرة آلاف جنيه لينقل مسعد إلى الصعيد سنتين على الأقل؛ ليخلو له الطريق إلى قلب سعاد.

توقف بسيارته على الرصيف المقابل ومشى إليها حيث تجلس ببضاعتها.

- سمعت أنك ستذهبين إلى الصعيد مع زوجك المنتظر.
- من أخبرك بالأمر؟
- أخبرتني العصفورة.

ارتابت في أمره وحدجته بنظرة حادة وقالت:

- ولكن العصفورة أخطأت حين أخبرتك بسفري معه.

رمقها فؤاد بنظرة ما بين السخرية والشماتة، وكانت للشماتة أقرب:

- وهل تتركين زوجك يواجه الحياة الصعبة هناك وحده؟!
- إن شاء الله سيرجع قريبًا إلى عمله هنا.

هز رأسه ساخرًا ووضع يديه في شقيه وقال: سعاد ومسعد أسماء مبهجة، ربما من فرطها تتاجرون في السعادة» ثم حدجها بنظرة هازئة،

فبدت زاهية محصَّنة من وهن، فأراد أن يهيل عليها الغم، فزلَّ لسانه وحدثها بالشر الذي أضمره لحبهما اليافع:

- لن يعود إلا بعد سنتين.

احتدت سعاد وبدت على ملامحها نوبة غضب في مهدها:

- من قال سنتين؟

اضطربت كلماته وتلعثم، وخشي أن تفضحه حروفه فابتلع ريقه وقال بعد صمت وربكة:

- توقعت ذلك.

فقالت سعاد وهي تحد النظر إليه ويجول بخاطرها أنه مَن دبَّر هذه المكيدة:

- سيعود قريبًا ويجمع الله شملنا، قلبي يُحدثني بذلك، ولن يجد حاسدنا إلا طعم المر في قلبه، ومهما بعدت بنا الأيام فلن أكون إلا له فالمال ليس كل شيء، فالبطن الفارغة يُسكن الخبز جوعتها، أما القلب فلا يستظل إلا بحبيبه.

صدقت في مشاعرها فتجلت في كلماتها تراتيل الحب، تنزه قلبها عن غيره فتسامت روحها بحبه.

كانت تبحث فيه عن السند والأمان لتحيا بروح شهية، نشدته وطنًا على حدوده اكتفاء، فافترشت فناءه ولم تبحث عن هوية، رجته وتدًا طاغيًا يجر كل خيام الوجد إلى خيمتها، فتوهجت على ربوة الحب ولوَّحت للدنيا رايتها، ولم تُبالِ بيده الفارغة فقد انتصر غرامه وكسب القضية، عذوبة الصدق بمنطقه الزهيد هدمت صروح الأبجدية.

تبًا لكل الطرق التي خضتها إليكِ، لمَ لم تُخبرني بأن وجهتي خاطئة؟ عاد من حديث نفسه إلى صمته وظل واجمًا فقذف في قلبها شيئًا من الخوف، وبرقت عيناه ورعدت زفراته، فخشيت على نفسها من طقسه السيئ ورياح غضبه العاتية.

❀ ✿ ❀

أرسلت إدارة الأوقاف عاملًا جديدًا إلى المسجد كان يؤم الناس في الصلاة، بعدما أخذ خالد إجازة ليؤدي العمرة.

جابر كان في السابعة والعشرين من عمره، يسكن في المنيب من ريف مدينة بنها، نزح إلى القاهرة بعدما حصل على شهادة الثانوية العامة من مدرسة بنها الثانوية، والتحق بمعهد الخدمة الاجتماعية ثم تركه بعد سنة واحدة لظروف تورط فيها مع أحد أصحابه الذي كان له نشاط سياسي. أنهى خدمته العسكرية وتوسط له اللواء الذي كان يعمل في مكتبه ليشغل هذه الوظيفة، وكانت الأوضاع السياسية في مِصر تؤرق مضجعه وما تضج به البلاد من ظلم واستبداد عكر صفو أحلامه، والطامة الكبرى التي كان يخشاها محاولة التوريث التي كان يُمَهَّد لها؛ ولكنه كان يتكلم بحذر. لم ينتمِ إلى جماعة أو حزب من الأحزاب السياسية التي تواجدت على الساحة كخيال الظل، فكان ينظر إليهم وللمعارضة الزائفة بعين الاشمئزاز، فقد فشلوا جميعًا وسقطت شعاراتهم الزائفة، لم ترُقْ له أبدًا أحوال البلاد واستقبح في نفسه حالة الخضوع التي انتابت الشعب المصري خوفًا من القائمة السوداء وزوار الفجر، فكان يحلم باليوم الذي يكسر فيه الشعب حاجز الخوف ويخرج ثائرًا.

❀ ✿ ❀

عاد إلى بيته في المساء بعد تنزه ساعات وقد أطلق لبصره التطلع حوله بلا قيود، تلكأت قدماه في سعيها وكأنه يرى الدنيا وزينتها للمرة الأولى، تصفح وجوه الخلق من حوله وكأنه لم يرَ بشرًا من قبل. لم ينتبه كثيرًا لعناء قدميه فقد غلبت لذته مكابدته. فقط توقفت خطاه عند أحد أكشاك الصحافة ثم مضى في طريق العودة إلى بيته، قهر النوم والدته وهي جالسة في انتظاره لتعد له العشاء، فرغ هاتفه من شحنه فلم يخبرها بأنه سيتناول العشاء مع أحد أصدقائه، أيقظها برفق وأخذها من يدها إلى باب غرفتها، دلف غرفته وأغلق بابه بإحكام ليغنم بصيده الثمين.

بدَّل ثيابه وعلى فراشه بدأ يقرأ ما اشتراه اليوم، كتاب لم يكن في الفقه أو العقيدة؛ بل كتاب عن الحب الأول، ومجلة فنية زاخرة بصور الفنانات.

اكتشف في نفسه زوايا مظلمة لم تُشد لها رحال ورعه، فلم ينكر على نفسه هذه المرة ما كان يصنعه؛ فقد رغب أن يتطلع ويشبع رغبته من خلال القراءة والنظر إلى الصور فقط، كضرر أخف من أن ينجرف في علاقة محرمة تكون عاقبتها سقر؛ هكذا سوَّلت له نفسه. ولكن من يلعب

بالنار لا بد أن تحرقه في النهاية، فمن يمشي على زجاج مكسور إن سلمت خطوته الأولى، فماذا ينتظر للثانية؟ سيتخضب طريقه وإن أبى، وقد يبدأ السقوط بنظرة، وكم من كبار قد سقطوا حين دُكت حصونهم بعدسات لاصقة، فارتشف نخب دنسه ومضى منتشيًا، خلا بمعصيته وعين الله ترقبه ولم يُبال، بعدما استهلك من قماش وعظه لمن حوله ما يكفي لتغطية اليابس من الأرض. خاض في الوحل وهتك ستر تنسكه ونقض غزله.

❀ ✿ ❀

«لبيك اللهم عمرة»، وشرع الثلاثة في الطواف وهم بملابس الإحرام. مشاعر إيمانية تغمرهم، أدعية وأذكار تتردد: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾.

محاولات من أحمد وخالد لتقبيل الحجر الأسود، وهند تلهج بالدعاء لنفسها ولزوجها المتوفَّى، ولم تقطع دعاءها إلا عندما شعرت بمن يتحرش بها في هذه البقعة المباركة!

فالتفتت إليه وقالت لتزجره:

- جئت من بلد بعيد لأغسل ذنوبي هنا، فانظر يا عبد الله أين تغسل ذنوبك!

فاستحيا الرجلُ وتوارى خجلًا من نفسه ومن الجُرْم الذي أتاه. تصبَّبَ عرقهم فذهبوا ليتضَلَّعوا من ماء زمزم، فبادرهم خالد بنصيحة:

- ماءُ زمزم لما شُرِب له، فاستحضروا نِيَّاتٍ طيبة، واعلَمُوا أنَّ الدعاء في هذا الموضع مستجاب.

اختلطَ الماء بدموعها وهي تدعو لعادل بأن يتغمَّده الله بواسع رحمته ويرزقه الفردوس من الجنة.

سعى خالد في تلقينها أنه ليس على المرأة الإسراع في السعي، فالرَّمَلُ للرجال دون النساء، فهدَّأتْ خُطاها، وكانت هذه هي المرة الأولى التي كلمها فيها منذ أن تصادفا في الطائرة.

❁ ✿ ❁

على متن الطائرة القادمة من دبي عادت ميرفت وحدها، أما فريد فعمله كمدير للشركة التي كان يمتلكها والده صار يشغل كل حياته، فضجرت من الوحدة، فقررت العودة لتسترجع صداقات وذكريات. حملت هداياها إلى أحلام وسالي ولكثير من أصدقائها، وصورًا تجمعها بفريد في أجمل مناطق دبي سحرًا وجاذبية. لم تنجب بعد، وكان حلم الأمومة لا يشغلها، فهي تريد حياة المرح والانطلاق والسهر والخروج.

لم يتوانَ فريد في جلب السعادة لها، ولو أرادت حليب العصافير لأتى به يحمله في كفيه، أحبها وأغدق عليها بنعيم الدنيا، بينما كانت تشعر به مجرد حذاء مريح تجد متعة في ارتدائه، فعاطفة الحب عندها اندثرت وغارت في أرض بوار، فلم تكلف نفسها مشقة البحث عنها، تتابع صيحات الأزياء الحديثة وتقتني منها كل جريء، فقد حررها زوجها من كل قيود الرجل الشرقي، الذي يحمل في جُعبة قناعاته عبء الوصايا العشر وتعاليم الأنبياء، فكانت إطلالتها المشرقة تأخذ بعقول الكثير، نجمة متمردة ضاقت بساحتها فضجرت ونشدت مدارًا غير مستهلك، تعثر خيط الأيام في سَمِّ خياط دنياها، فتاقت للعودة إلى مصر فهذا حقًّا ما كانت تشتهيه.

❀ ✿ ❀

ما كانت تشتهيه أن يقبلها ولو مرة واحدة؛ لتحصل على الألف جنيه التي وعدها بها أشرف، عدوه الذي تقرب إليه مختبئًا في ثوب صديق.

عادت لبنى في اليوم الثالث إلى المكتب، وقد هيأ أشرف الظروف المناسبة؛ فقد ذهب جلال إلى مكتب الشركة اليابانية في عين شمس بعدما زعم له أن الشركة تنوي تغيير أكثر من بند في العقد المبرم بينهما، وأرسل سيد إلى إدارة الترخيص بالمرور، وأخبر حسام أنه سيتأخر في البنك.

مد يده وصافحها، وقام ليصنع الشاي بنفسه، وما كانت تلك إلا محاولة ليدفع غريزته ويقاوم رغبة الشبق التي بدأت تعتري جسده. فقد خاض بملء خاطره بحر شهوته، فلو سلم بدنه من الغرق فلن يسلم قلبه من التصدع.

توتر وتسارعت نبضاته وارتجفت أفكاره حتى إنه وضع أكثر من خمس ملاعق سكر في الكوب.

وضعت الكوب من يدها بمجرد أن استشعرت طعم السكر الفج، ومع أول رشفة من عينيها ترنح إيمانه، وبمزيج من الخوف والرغبة كانت نكهة مشاعره، انتصبت فيه نزعاته على أفكاره الرشيدة وطهر نفسه،

انسابت في الهواء عطور الرغبة والجرأة، علت دقات قلبه وتصايحت، رعدت وبرقت خلجاته بشيء من اهتياجه، وتفاعلت كيمياء جسده وانصهرت حتى اشتعلت.

❀ ✿ ❀

اشتعلت في جسده نار الغضب لمقتل خالد سعيد في الإسكندرية بهذه الطريقة البشعة، كاد جابر يصرخ في جموع المصلين بعد الصلاة أن الناس إذا لم يأخذوا على يد الظالم؛ أوشك اللهُ أن يَعُمَّهم بعقابٍ من عنده. أراد أن يفيض عليهم من سخطه ليمزقوا ستائر الخوف التي أسدلتها عصا النظام على قلوبهم.

تمالك نفسه حتى انصرف الناس فليس بوسع محراثه الأخرق أن يشق أحشاء أرض الكنانة لتتهيأ للربيع. فهدأت ثائرته وخمدت حماسته، فطبيعة عمله لا تحتمل مثل هذا الاندفاع والتهور، فرضخ قليلًا لهمسات رشده وصوت عقله، وحضرته مقولة محمد رشيد رضا: «إن الثائر من أجل مجتمع جاهل كالذي يشعل النار في جسده ليُضيء الطريق لأعمى»، فلكمات النظام لشعبه أفقدته إدراكه ولن تؤثر فيهم حرقة الكلمات.

ابتلع غيظه ودخل غرفة الإمام وألقى بروحه المنهكة وقلبه المكلوم على الأريكة، أرخى رأسه بيديه إلى الوراء وأسنده بكفيه، ومرارة الظلم تملأ جوفه والشعور بالقهر دغدغ روحه.

مكث ساعة يفكر في أحوال البلاد، ثم استعرت بداخله ثورة غضب عارمة استباحت أرجاءه، فكبتها مُعنفًا حتى حين.

❀ ❀ ❀

بدأ يحين وقت الغداء فقدم وجبة الدجاج لها ولأحمد مثلها، بعدما انتهوا من مناسك العمرة وأجهدهم السعي والطواف.

- ما فضل العمرة يا شيخ خالد؟

- قال صلى الله عليه وسلم: «العمرة إلى العمرة مكفرات لما بينهما».

- صلى الله عليه وسلم.. وهل لي أن أكررها؟

توقف خالد عن الطعام ورمق أحمد وهز رأسه مجيبًا:

- نعم، رخص العلماء بتكرار العمرة في سفر واحد.

مسحت هند يدها بمنديل ورمقته برهة ثم أخفضت بصرها وقالت:

- وهل ينتفع الميت بالعمرة؟

فأجاب الشيخ دون أن ينظر إليها:

- نعم، ينتفع بالعمرة والحج والصدقة عنه، كما جاء في صحيح السنة.

ابتهجت مشاعرها للفتوى وقررت أن تصنع له ما ينفعه في قبره وتفي بوعده عنه، وبادرت الشيخ بسؤال:

- فهل هناك حرج لو كانت العمرة التالية اليوم؟

نظر إليها الشيخ نظرة المشفق لحالها وترفق بكسرة روحها ورغبة الحياة التي نضبت في عينيها، فحنا عليها من كلالة البدن فناشدها قائلًا:

- أرى أن الإرهاق قد حلَّ بنا اليوم، غدًا نذهب إلى مسجد التنعيم ونُحرِم ونعقد النية من جديد.

من جديد عادت الفتاة الخمرية إلى مكتب جلال، استأذن لها سيد في الدخول فسمح لها جلال بعد تردد.

صافحها بيد باردة وعين قوية لم تعد تخشى فتنتها:

- لقد علمت بزواجك وتمنيت لك السعادة. ولقد تغيرت الحياة عن ما كنا عليه أمس، وأرجو أن ينظر كل منا إلى ماضيه بعين الأسف، وأعتذر لضيق وقتي إذ إنني مرتبط بموعد الآن.

أجهد قلبها جفاؤه فخرجت مصدومة. لم يطُف لها ببال أن تتمرد عليها مشاعره وتضن خلجاته بهمس الحب بعد غياب، فكانت تنتظر لهفته واشتياقه كحال الأمس؛ ولكنها لم تدر بأن قلبه قد غسل يديه من عصر الانفتاح وأمَّم مشاعره وجعلها حكرًا لرفيقة دربه.

راقب حسام قوامها الممشوق الذي احتواه ثوبها المُغرِ، وتعجب في نفسه أنها لم تمكث إلا دقائق معدودة. «وأين كانت الأشهر الماضية؟ ولِمَ غادرت المكتب بسرعة؟ هل لفظها جلال ورغب عنها؟ ولكنها جميلة، بل أجمل من لبنى!».

واستعاد منتشيًا لهيب قبلة البارحة، وكيف أحوجته إلى الاغتسال والتطهر، لحظة تمنى لو دامت وتوقف الزمن عندها، لذة ونار.. رعد

ودفء.. سعادة ورهبة، من مجراها خرجت نشوته كسجين تغافل حراسه عن قيوده عمدًا ليذوق نعيم الحرية، ظن قُبلتها ستمنحه السعادة فأخذت بيديه إلى الحافة.. شفير من فرط نشوته لم يكد يراه، فقد حطمت فتاة الأمس حاجز عفته، وأخرجته من شرنقة حيائه.

❀ ✿ ❀

حياؤه منعه من الحديث معها وظل ينظر في الأرض حتى عاد أحمد بعلب المياه الغازية وهم في طريقهم إلى المسجد النبوي بالمدينة، فلم يبقَ إلا يومين ثم العودة إلى القاهرة.

في الروضة انهالت دموعها ودعت وتضرعت وأسهبت لزوجها بالدعاء، وتذكرت حظ نفسها فقالت: «اللهم آجِرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها».

خرجت باكية تلهج بالدعاء يفوقه نشيجها أحيانًا، حتى أجهدها البكاء فجلست على مقعدها، مسح عنها دموعها بيده وربت على كتفها وهو يبتسم، فاستيقظت وظلت منتبهه حتى وصلت السيارة إلى الفندق، هبطت وعلى محياها ابتسامة جميلة لم تتجرأ على الظهور من قبل، فرآها خالد للمرة الأولى كالقمر ليلة البدر فأراد أن يعي علة الأمر فقال:

- عذرًا وسامحيني؛ ولكن الفضول يدفعني إلى أن أسألك، بأعين باكية ركبتِ معنا السيارة حتى أشفقنا عليك، ثم غدوت منها بابتسامة على محياكِ!

أغمضت عينيها منتشية ثم ابتسمت بملء عينيها وقالت بصوت مرح:

- الأمر ليس سرًّا، نامت عيني المجهدة من البكاء، فرأيت عادل يربت على كتفي ويبتسم وهو يرتدي ملابس الإحرام.

تهلل وجه خالد وقال:

- ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ۝٤٤﴾، والله إني لأرجو أن يكون ثواب العمرة قد وصل إليه.

❀ ❀ ❀

وصل إليه وأغراه بالمال ليطردها وأبناءها من البيت المؤجر لهم، أعطاه ثلاثة آلاف جنيه ووعده بالمزيد لو نفذ الأمر، فاحتال مع محاميه لطردها من البيت بحجة عدم دفعها للإيجار، وأنذرها يومًا واحدًا لإخلاء البيت.

جلست تضرب على صدرها بعدما أخبرها مندوب شيخ الحي وانصرف، صرخت وبكت وعقدت وشاحها على جبهتها، وتذكرت خيبات العمر ومخاض الأيام الحبلى بالفواجع، عمها الوغد الذي هضم حقها وكل ذئب تحرش بها من بيوت السادة التي كانت تقوم على خدمتهم بصحبة أمها، وفجيعة قلبها في زوجها، فلم يترك لها ماضيها غير إرث مُفعم بالأحزان، فالتحفت بالسواد ربوعها. انتهى شريط الذكرات من سرده البليغ، وحواره الضحل من قعر لغة الأوجاع، وعادت للطعنة الطازجة. وضعت يديها على رأسها ورفعت بصرها لأعلى وقالت مستغيثة:

- وأين أذهب أنا وأولادي اليتامى يا رب؟!

فقال علي:

- نذهب ونستأجر غرفة في أي مكان آخر.

ضمت علي إلى صدرها وأحاطته بذراعها فهو كنزها الباقي، فخمدت فجيعتها وقالت:

- نستأجر في أي مكان الأمر ليس صعبًا؛ ولكن لو تركنا البيت أين سنضع بضاعتنا؟

- كما اعتدنا، أمام البيت نضعها.

فقالت بصوت متهدج من لكمات فواجعه:

- الساكن الجديد سيكون أولى بذلك.

تذمر علي من قسوة الظروف وفواجع تتجدد عليهم:

- لمَ كل هذا يحدث معنا؟! أبي مات وتركنا، وعمي مسعد سافر ولم يعد يلاعبنا، والبيت يأخذونه منا ولم يعد لنا بضاعة نربح منها. لمَ يا رب؟

توالت عليهم النكبات وتراكمت الشرور على عتبة الأيام، وتدحرج كل البيض من سلة الأحلام وتحطم، ولم تبقَ إلا قشة فبها تعلقت.

شخصت ببصرها للسماء وطلبت الغوث، فقد كانت سفينتها تغرق ولم تطلب النجدة إلا من الله، تضرعت بيقين ولج في صدرها، وجلست تحتسي من نسمات الإيمان التي سكبتها والدتها بين ضلوعها.

- علمتني أمي أنه مهما ضاقت بي الدنيا أن أصبر، فالفرج مع الشدة، فالله لا ينسى من أعرض عنه وعصاه، فكيف بمن احتمى به وناجاه؟ فعلى كل حالٍ ومهما كانت المتاعب فالحمد لله.

❀ ✿ ❀

- «الحمد لله». قالها كريم عندما استلم خطاب التكليف من وزارة الصحة بتعيينه في مستشفى حميات إمبابة، فكان هذا ما يحتاج إليه؛ أن يصل إلى الطبقة الفقيرة التي ربما لا تملك عشرين جنيهًا ثمن الكشف في عيادته.

كل ما كان يسعده كانت سهير به تسعد، تحاملت على نفسها وهي في أيام الحمل الأخيرة وقامت لتعد له العشاء؛ ولكنه أبى وأسندها حتى اعتدلت في جلستها، أعدَّ لها كوب الحليب كما يصنع كل يوم خوفًا على عظامها من وهن، نظرت إليه ممتنة فقد كسا دسم عطفه حنايا غرامها، وضع قبلة على بطنها ونظر لها مبتسمًا:

- هل أسمَعتِه القرآن اليوم؟

طافت يد سهير بحملها وقالت:

- نعم، قرأت وِردي وكذلك الأذكار.

رفع كريم بصره إلى السماء وقال راجيًا:

- عساه يكون من حمَلَة كتاب الله.

أشرق وجهها بابتسامة ورجته ميمونًا مُبارك الهلة وقالت:

- ويكون طبيبًا ماهرًا كأبيه ويجود على الناس بجميل عطائه.

شردت أفكاره إلى أيام صباه وذهابه إلى المسجد مبكرًا لعل المؤذن يتأخر فيصدح هو بالأذان، عادت أفكاره وأسرَّ لها بأحلام مهده:

- والله لو رزقه الله القرآن والصوت النديَّ وأصبح ماهرًا بالقرآن؛ لكان هذا هو العز والرفعة ولا شيء يعدلهما، لقد كنت في طفولتي أحلم أن أكون إمامًا للحرم المكي؛ ولكن لم يهبني الله الصوت العذب، فلعل أحلامي تتحقق في ذريتي وتروق لي بهم الحياة، وقد اعتدت شيئًا طيبًا منذ أخبرتِني بحَمْلِك وأنا به مستبشر.

- وما ذاك الشيء لعل فيه البشرى حقًّا؟

أنفق على وجهه نذر غير يسير من التبسم وقال:

- اعتدت كل يوم وأنا في طريق عودتي من عملي أن أتصدق بنية أن يُثبت الله حملك ويرزقنا بطفل في أتم عافية يكون لنا قرة عين، وطيلة الأشهر الماضية ما غفلت عن هذا الأمر.

ابتهجت بما سارها به، وبقي شيء بداخلها سرق من فرحها ملء حفنة:

- كافأَنا الله بطُهر نيتك؛ ولكنَّ شيئًا يجعلني متوترة، فقد حددت لي الطبيبة أول الشهر القادم موعدَ الولادة، وكنت أرجو أن تتأخر الولادة لأحضر فرح رباب.

- ومتى يكون عرس رباب؟

- الأسبوع القادم إن شاء الله.

ربت على كتفها وسكب في عينيها نظرة حانية وقال:

- دعي أمركِ يدبره الله؛ ولكن أخبريني، هل انتهى والدكِ من شراء كل ما يلزم لزفاف رباب؟

داهمها شيء من الخجل وعلى استحياء قالت:

- ربما بقيت بعض الأشياء البسيطة.

وامتلكها الحرج أن تتحدث بتفاصيل أكثر عن بيت أبيها، ونحَّت عينيها جانبًا وكساهما تحفظ بالغ حتى لا تُنبئان عن شيء.

كان له نصيب في نفسه من اسمه فحدثها بدافع من القيم التي اصطفت بداخله:

- لقد ادخرتُ عشرة آلاف جنيه سأقرضها والدك، ووالله ولست حانثًا في قسمي، لا أريد منه أن يردها لي.

- وهل ادخرتَ شيئًا آخر لتكاليف الولادة؟

هز رأسه وابتسم وقال بعد صمت:

- بحكم عملي طبيبًا فسأجد مزايا وتخفيضات في بعض المراكز الطبية والمستشفيات، فلن يغلق الله بابه، فمن قضى حوائج الناس قضى

الله حاجته، وقد علمتني الحياة درسًا لن أنساه؛ أن صنائع المعروف تقي مصارع السوء، «ازرع جميلًا ولو في غير موضعه» حكمة ألزمت بها نفسي، فما بالك لو كان الموضع الذي درجت فيه قرة عيني وتربى فيه قمر أيامي؟

أطربها غزله وعجز لسانها عن شكره فنظرت له ممتنةً، وفي عينيها أسمى معاني التمجيد، ورجَتْ له الخير في ما هو قادم.

القادم لن يكون أفضل على حسام؛ فقد أهمل صلاته في جماعة وأذكاره ووِرده اليومي، لحيته أخذ منها وقصرها ولم يعد يصوم النوافل، والأسوأ أنه صار يتابع على هاتفه المشاهد الإباحية، فلم تعد صور المجلات الفنية ترضي نفسه وتُشبع هواه.

يجلس منفردًا على مدى ساعات متفرقة في عمله، وإذا اقترب منه أحد عدَل إلى مقاطع الوعظ وتمادى في شغفه بهذه الصور الفاضحة التي كانت تؤجج نار الشهوة بداخله.

اجتاحت نفسه مشاعر متضاربة وترنح باعث الإيمان في نفسه فتبدلت أحواله رويدًا وافترست عيناه الباكيتان من خشية الله مفاتن النساء من حوله.

ضوء خافت من نور الخشية ما زال ينبض به فؤاده، فجلس مع نفسه يذكرها بالجنة والنار وحياة الصحابة التي كان يود أن يحياها، فارتعدت فرائصه وخاف من عقاب الله، وما زال بنفسه يوبخها حتى ألزمها العودة إلى طريق الهداية وناشد جوارحه أن لا تفضح توبته بعد اليوم. وأن لا تمس إيمانه بسوء.

علم قدر عربدته بعد أن أفاق فعمد إلى الصور العارية والمجلات وألقاها مع القمامة، تلك المقاطع وما تحتويه من عري وفواحش أزالها ولم يبقَ منها شيء على هاتفه.

مضى نادمًا ورفع راية عصيانه في وجه تبجحه، نفض كفيه راضيًا حينما فرغ من مراسم دفن نوبات فجوره في أرض الطاعة التي تربى عليها وكان بشعابها أدرى، أسقط من رفوف ذاكرته كل ما تلطخ به ماضيه وأيام غروره، ضمد جراح غائرة بجدار ورعه جراء تصدعه، وأغمض عيني قلبه ولم يلتفت، فكان بإدراك نفسه أحرى. وقف على مشارف أرض التوبة يتفحص أغراضه، ندم وإقلاع ولم يجد له عزمًا.

❁ ✿ ❁

حصار شديد فرضه خالد على قلبه حتى لا يتسرب إليه شيء من الإعجاب أو الميل العاطفي إلى هند، المرأة الحالمة رقيقة المشاعر التي بفراسته رأى أنها تُخفي خلف أسوار حزنها العالية جمالَ الروح والفكر؛ حاول جاهدًا أن يرد طليعة مشاعره ويُنذرها بالحسنى وينادي في جيش شغفه بالانسحاب قبل أن يردهم بسيف الزجر، فهذه هي الليلة الأخيرة والعودة إلى القاهرة في السابعة صباحًا.

وضع رأسه على الفراش بعدما تلا أذكار النوم الذي جفاه، هاتف زوجته واطمأن عليها وأخبر ابنَيْه بما اشتراه لهما. أراد أن يُطفئ أنوار قلبه لينام، فغلبته همساته بعدما غابت بعيدًا وتسللت إلى وجدانه مرة أخرى واسترجع حوارًا دار بينهما اليوم، إذ وقفا في ساحة الحرم النبوي في انتظار أحمد الذي أغلق هاتفه.

- أنا متعجبة، لِمَ أغلق هاتفه؟!

- إما أن يكون الهاتف قد فرغ من شحنه وإما أغلقه اللص الذي سرقه.

فقالت بشيء من الذهول قد ألمَّ بها:

- سرقة هنا في البقعة الطاهرة؟!

لم تبرح خواطرها عتبة الطفولة، فاعتز خالد بطهر نيتها وقال:

- ولِمَ لا؟ الخطأ جزء من طبيعة الإنسان والعصمة ليست إلا للأنبياء.

- ولكن هنا نفحات إيمانية وروحانيات نورانية يفوح شذاها للجميع، فكل ما حولك يدفعك دفعًا إلى الطاعة وسمو الروح، فما الداعي للمعصية واستباحة قدسية المكان؟!

أفصح لها خالد عن خبايا النفس البشرية التي ألهمها الله الفجور قبل التقوى:

- ربما وسوس له شيطانه أو سولت له نفسه، أو كان وازع الإيمان في قلبه ضعيفًا فتجرأ على المعصية دون رادع.

وبمجرد أن انتهى من جملته الأخيرة، استدار وصار على يمينها، كأنها فطنت إلى ما صنع وأرادت أن تتأكد، وقالت:

- الشمس هنا محرقة.

- لذلك استدرتُ على يمينك لأحجب حرها عنك.

كأن ظلًّا جديدًا بدأ ينساب إلى حياتها فتجددت مياه قلبها الراكدة، وعلَتْ صفحات وجهها قطراتٌ نديةٌ من نسمات الغد الذي ترجوه.

الحب بالحب والاهتمام بالاهتمام ويبقى الإعجاب جنينًا لأحدهما لم يكتمل بعد.

وجد أحمد هاتفه في الأمانات وذهبوا جميعًا إلى متجر كبير لشراء بعض الهدايا، طفلٌ صغيرٌ يلهث خلف أمه باكيًا، فاستدارت له وقالت:

- ليس معي مال لأشتري لك هذه اللعبة.

أمسكت هند بالطفل وانخفضت بهامتها لتساويه، قبَّلت كفه الصغيرة ومسحت بأناملها دموعه وخاطبت أمه:

- أكون ممتنةً لو قبلتِ هديتي لطفلك.

وهنا رفعت الأم حاجبها ووضعت يدها في جنبها وقالت في غضب:

- وما داعي أن تهديه؟!

فقالت بأسى لتخفف من وطأة حدتها:

- حرمني الله من الأطفال وأرجو أن لا تحرميني من عطفك وتقبلي هديتي له.

استكانت الأم ووافقت فأخذته هند من يده وقالت:

- تعالَ معي واخترَ هديتك بنفسك.

سارت معه وكأنها طفلة مثله، هكذا رآها خالد؛ امرأة يافعة بقلب طفل تحيا. وهنا نظر في ساعته فوجد عقاربها تزحف إلى تمام الثانية، فقرر أن يخلد إلى النوم ليدرك صلاة الفجر.

❀ ✿ ❀

الفجر أتى وهي منتبهة وقد استقر بها الحال في غرفة على سطح أحد المنازل بالقرب من منزلهم الذي تركوه عنوة، غلب النوم عين طفليها فناما، إلا أنَّ علي قاوم قليلًا ثم قهرت غفوته شجونه. كحل القلق جفونها تجاه المستقبل المجهول، وخشيت أن يحمل لها الغد مأساةً جديدةً.

أسندت رأسها إلى الحائط المتعب كحالها من توالى حقبه، وأغمضت أهدابها فلم تحتمل أن ترى مرعى أمانيها تأكله النار، فتنهدت بكمد وخاصمتها نفسها:

- «سرتُ في طريق التيه والضياع وسبحت ضد التيار».

دارت بخاطرها أفكار شتى، واستباحت رأسَها مخاوف حتى فزعت عيناها:

- «طاوعتُ قلبي فاستقرت بي الحال هنا، ولو طاوعت عقلي لكان لي بيت ومال وفراش دافئ للأولاد الذين افترشوا أرض الغرفة.

هل القدر هو الذي ساق لي كل هذه الأحداث المُرَّة أم إن فؤاد ويده التي عبثت بحياتي هي التي بطشت بنا وبمسعد من قبل؟ هل أرضخ لطلبه من أجل أولادي وأقتل الحب في قلبي وأمشي حافية على جسر الذهب؟ أم أسمح لفؤاد أن يدمر حياتنا مرتين؟!».

صدح مُكبِّر المسجد المجاور برائعة الشيخ نصر الدين طوبار «جلَّ المنادي» فعادت من هواجسها وابتسمت ابتسامة شاحبة لتسدل الستار على أيام متخمة بالهزائم، وانتظرت اليسر الذي يتبع عسرها، فرغم هزائمها المتكررة لم ترفع الراية البيضاء، وراهنت على سعة صدر السماء لفضاء أمانيها، ثم رفعت بصرها تتضرع وتنادي:

- «يا رب ماذا أصنع؟!».

- «يا رب ماذا أصنع بقلبي؟!».

تبتهل وعيناها منتبهتان للفجر لم تنَاما، واستدارته ليحجب عنها الشمس أمام عينيها لم تزل، صور حية سردتها ذاكرتها لمواقف كانت بينهما، بها شيء من قبيل الحب؛ ولكن أحدهما لم يجرؤ على العبور نحو الآخر، فجلست تنثر حديث نفسها مُرتبًا:

- «هل ما صنعه كان بدافع الشفقة، أم أملى الحب عليه صنيعه؟ وكلما حدثته امرأة ونحن معه يحدثها بجرأة ويقول لها في طيات كلماته «يا أختي» ولم ينادِني بهذه اللفظة قط! يبدو عليه الارتباك كلما نظرت إليه، في منطقه حجة وخطابه بلاغة ولا يتلعثم إلا معي!.

لست على يقين بحال قلبه رغم أن عينيه أفصحتا عن شيء غير العطف؛ ولكني على يقين بأن قلبي ليس على حاله.

ملأت التفاتته الحانية كل شغورها الفجة بعطر الأماني. فجلست تتفحص مشاعرها بنظرة حانية بعدسة الترقب.

- هل ما بقلبي مجرد إعجاب أم إنه ميل بالعاطفة وتآلف بالروح؟ هل ظل جسده بالأمس بداية ظل لقلبي من أجيج أحزانه؟ ربما سيخلف الله

عليَّ في مصيبتي بخير منها، أو ربما أنا السمكة التي رأى عادل في منامه أنه يأكل منها ثم أتى رجل بجلباب أبيض وأكل ما بقي منها؟».

تلاحمت أفكار شتى برأسها واصطفت فيه علامات استفهام كبيرة خلف تلك الأسئلة التي حضرت ولم تتبعها إجابات. أغمضت عينيها وتنهدت ونشدت لنفسها الراحة، فعدلت إلى شقها الأيمن لتنام، فداهمت خاطرها علامة استفهام كبيرة تقف شامخة خلف هذا اللغز: لمَ أخذ عادل في حقيبته كل صور الزفاف ولم يترك منها شيئًا؟!

هل كان يريد لي أن أتهيأ لحياة جديدة؟

حياة جديدة بدأت تحياها ميرفت؛ تخرج متى شاءت وتتمادى في السهر خارج البيت في هذه الليالي الصيفية برفقة من تشاء، حياة منفلتة بدأت تحياها في غياب زوجها، ولا رقيب عليها ولا ضمير يردعها، صفَّت مشاعرها من الإخلاص حتى آخر قطرة، فلم تبحث عن الرومانسية وهمس الكلمات؛ فالحب كان عندها ممارسة فقط، كانت تذهب إلى «الجيم» لتحفظ على جسدها رونقه، وتتعاطى ما يمنعها من حمل يفضح سلوكها، نداء الأنثى في عينيها كان صارخًا؛ بل فاجرًا عربيدًا، حجرة نومها كانت مرتعًا للجميع، باعت شرفها ولم تنتظر الثمن، طعنت زوجها بكل أريحية ولم تشعر بندم، حتى وخز ضميرها خفت وتلاشى، لم يكن لديها وقت لتشعل في قلبها قصص الغرام، فسقطت في الوحل حتى أذنيها، فكم من رغبات أطفأت لهيبها لشباب وأزواج لهم خبرة الحب ومطارحاته، ولم تُخبر بعادتها أحدًا فتأذي بعضهم من وصلها، ارتضت لنفسها أن تكون مرحاضًا لنفايات غرائزهم، رضخت في الوحل سليلة العهر، هوت بدنسها ربيبة الفجور، فتردى معها الكثير من مريديها فلم تكن تردُّ يد لامس.

كانت امرأة تقبل القسمة على الألف، ولو وضعت أمام الألف مثل أصفاره لجبرت حاجتهم. ارتدت الأرض من تحتها ثوب الرذيلة، فقد كانت عُشبًا يطؤه الجميع، فلا تغفو عيناها إلا إذا التحفت بالعشق. كانت كل ليلة تبحث عن وصفة جديدة للحب، سقت من بئرها العكرة كل من ولغ فيها، كانت تقبل بأنصاف الرجال، بعض الجيران، وغيرهم الكثير من مرتادي أماكن لهوها، ألقت خلف ظهرها كل ما تسمعه من تلميحات سمجة ونابية، فتحت إشارات المرور إليها عمدًا، فما أرهقت وجوه العابرين مراياها، فلم يكن لشغفها بالرجال حدود. ثيابها العارية التي فضحت أنوثتها ونهدها الخارج عن مواثيق العادات، جعلا الكثير يشتهي وصالها، فكانت ببراعة تحرك خيوط لعبتها، ومن يأبى لم تكُنْ منه تيأس، حتى يخضع لسحرها وتخر به على فراشها المكدود، فقط استعصى عليها رجل واحد ومضى في طريقه بعيدًا وأقسم أن لا يعود، وأبى أن يتلطخ بوحلها.

❀ ✿ ❀

أبى أن يتلطخ بوحلها مرة أخرى أو حتى مجرد النظر إليها، دخل في إضراب عام عن تعاطيها مجددًا، حتى لا تتطور العلاقة إلى ما هو أسوأ من القبلة الحارة التي جمعت بينهما أول أمس، فقد عاتب نفسه كثيرًا واستشعر خجله من ربه وموجات من تأنيب الضمير على دفعات أتته، فاهتز لها قلبه وعاهد نفسه على الثبات.

خرج معها أشرف وأعطاها ألف جنيه بعدما أنجزت مهمتها الوضيعة وانتصرت في حربها على خصم لم تُبالِ به يومًا.

قدم سيد من الخارج بعدما اشترى البن وبعض أغراضه، فرأى أشرف الذي خرج مع تلك الفتاة دون أن تُحرِّر عقد الشراء يدسُّ مالًا من يده في حقيبتها، وبدا على أشرف الارتباك حين رأى سيد الذي أخبر حسام بما رأى.

فكر حسام بطريقة سطحية ولم يصل إلى تبرير، ثم أطرق رأسه وشردت منه أفكاره ثم عاد ونظر له ممتعضًا، وغارت كلماته في جوفه، وترفع عن عتابه فالعتاب ضار جدًّا بالكرامة فلم يُعاتبه إلا بالتجاهل؛ ولكن همس في صدره «حتى أنت يا بروتس!». لام نفسه إذ لم يعمل

بنصيحة شيخه ويملأ بيته بالترياق عندما خدعته نعومة صاحبه، فعدو داخل البيت شر من ألف خارجه، تخطت خواطره أشرف شيطانه الذي أغواه، فقد كان خوفه الأوفى من نفسه الواهنة أن تنقض غزلها وتنجرف في تيار الشهوات وتزل قدم بعد ثبوتها مرة أخرى.

❀ ✿ ❀

مرة أخرى عاد ممزَّق النفس من الصعيد ليتظلم من النقل الجائر إلى سوهاج، الأمر كان محسومًا في الإدارة بعدم العودة إلى القاهرة، بفرمانٍ قاسٍ صدر من الموظف الكبير الذي رشاهُ فؤاد.

ذهب مجددًا إلى عضو البرلمان، فأخبره بأن الدورة التشريعية للمجلس قد انتهت، وهم الآن في وقت الدعاية للانتخابات التي ستُجرَى في شهر نوفمبر القادم، ووعده أن يفي بطلبه في الدورة القادمة للمجلس.

أخذه الشوق لرؤية الشيخ خالد العائد توًّا من العمرة، وكان الشوق الأكبر في فؤاده رؤية سعاد وأولادها، فجاء ليُعبئ الأحضان الفارغة بالشوق، ويصب في العيون الغائرة ولهًا، فجرفه الحنين إلى دارهم ولكن الدار قد بدَّلت أهلها.

أعياه البحث والسؤال بعدما علم بما صنعه صاحب البيت، اقتحم غرفة الإمام وألقى بنفسه على الكرسي بعدما عانق الإمام ووضع وجهه بين كفيه.

قام خالد وأعد له كوب الشاي وربت على كتفه مواسيًا، كيف للمرء أن يكون بخير وقد دُكت حصونه بعدوان ثلاثي على الروح والجسد والأماني؟!

جذب الطاولة ناحيته وأناخ رأسه عليها ومعها أوجاعه وأطرق بكفيه على هامته المنكسرة وذرف كلماته:

- أشعر بالكآبة تنتابني كأني على حافة المرض النفسي والجنون، لمَ كل هذا الظلم؟ لمَ حياتي تعيسة؟

ثم رفع رأسه وزفر بقوة ونظر للأعلى متجهمًا. وتوغلت يد كلماته في صدره فاغترفت قبسًا من مناحته:

- قد ضجرت من نفسي ومللت فقري وظروفي وأتمنى الموت، والله إن نفسي تحدثني أحيانًا بترك الصلاة والعبادة. أشعر بالسخط يملأ صدري!

عندما تعزف الروح شجنها ببراعة؛ تصفق يد على الوجه كمدًا والأخرى تنزع عنها خنجرًا أدماها. أشفق خالد عليه وخشي على إيمانه، فقد رأى قارب السخط يطفو على عينيه:

- الله لم يمنعك المال بخلًا، حاشاه ربي أن يكون بخيلًا؛ إنما منعك لطفًا، فربما لو أغناك لفسد حالك فلا تجزع لقضائه، والشعور الذي ينتابك تحدَّث اللهُ عنه في القرآن، ولو شئت افتح المصحف واقرأ الآية الحادية عشرة في سورة الحج، فهي خطاب من الله لكل من انتابه مثل هذا الشعور؟

تناول المصحف وقرأ بصوت مسموع بعد أن عثر على الآية:

- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾

تربع خالد على أريكته وخاطبه بصوت رخيم ونبرة حانية على أوجاعه:

- قضاء الله خير، فربما كانت المحنة منحة من الله، وربما كانت البَلِيَّة عطية، فلا تجزع واصبر على الأقدار المؤلمة، فمع العسر اليسر، وإن أشد ساعات الليل سوادًا هي تلك الساعة التي يليها ضوء الفجر، فلا تجزع لفواجع القدر وتأمل حال أحد السلف، اسمه بشير الطبري، عنده مزرعة للماشية وكانت مزرعته على حدود بلاد الروم، فهجم الروم على المزرعة واستاقوا منها الماشية، فأرسل له غلمانه ليأتيهم فاستقبلوه يبكون وقالوا: «سُرِقت الماشية»، فقال لهم: «وأنتم أيضًا أحرار لوجه الله»، فقال له ابنه: «يا أبتاه، أفقرتنا! حتى الغلمان الذين كنا سنبيعهم في السوق أعتقتهم!»، فقال بشير: «يا بني، إنَّ الله أراد أن يبتليني فأحببت أن أزيده». فالخير كله في الرضا، واعلم أن للمحنة أجلًا وستنقضي.

الناس في النعمة سواء، فإذا نزل بهم البلاء تباينوا واتضحت معادنهم، فإن الايمان لا يُعرف عند الركعات؛ إنما يُعرف عند النكبات. قام الشيخ من على أريكته وربت على كتفه وقال مبتسمًا:

- «ياصاحب الهم إن الهم منفرج.. أبشر بخير فإن الفارج الله» شمِّر ثيابك واتقِ شوك المعاصي، وسيجعل لك الله مخرجًا من كل ضيق.

تنهد تنهيدة حارة وأغمض عينيه قليلًا، فرب تنهيدة أزاحت عن القلب صخرًا. وضع يده تحت ذقنه فرفع رأسه المنكَّسه وتلاقت عيونهما وربت على كتفه مجددًا:

- الحياة نسيج خشن من الخيبات والوجع، فتعايش مع ألمك حد الرضا، فلن تعتذر الحياة عن بطشها، فدعك من خصومتها وخيركما الذي يبدأ بالسلام، فكن سندًا لروحك وخذ بيد نفسك واتكئ على ما بقي منك وتشبث بالبقاء؛ ولكني أوصيك وأنا لك من الناصحين أن تكثر من قول «اللهم صلِّ على نبينا محمد»، فبها تُكشَف الكُرُبات وتُقضَى الحاجات، وردد مرارًا «لا حول ولا قوة إلا بالله»، وادع قائلًا: «يا مَن يدبر الأمر من السماء؛ دبِّر لي أمري فأنا لا أُحسِن التدبير»، واجعل لك وردًا يوميًّا مع القرآن، فقد سمعت أحد مشاهير الأطباء النفسيين يقول زارني في عيادتي كل أطياف المجتمع إلا حملة القرآن.

كانت روحه تحتاج إلى ضمادات لتكبح جزعها، فنالت الكلمات من روعه فاستكان، وحَمَد الله في نفسه ومسح وجهه بكفيه، ثم استقل القطار العائد إلى سوهاج وهو يحمل معه أوجاعه وبين يديه قطعة قماش بيضاء أهداها له الشيخ خالد ليحيك منها ثوب عرسه.

استغفر ربه من سخطه واعتراضه على أحواله، وظل يدعو على من ظلمه وتسبب في شتات أمره.

❀ ✿ ❀

شتات أمره لم يكن بيده، فالمرء لا يملك قلبه؛ ولكنه كان حريصًا على دفع هذه المشاعر وهي في مهدها. فرَّ من الحب وفي الحب وقع، فما نفعه حرصه ولا فلحت محاولاته، كلما سلَّم من صلاته التفت وطالع وجوه المصلين لعل فيهم أحمد، عسى قلبه يهدأ.

أنكر على نفسه ما يصنع وهو الشيخ الجليل، فقد شرع قلبه للعواصف، فما داعي الحب وله زوجة حسناء لم تقصر في حق طاعته وموجبات حبه؟ وله أولاد وراتبه بالكاد يكفي بيته، فكيف لو كان له بيت ثان؟! «ما الحيلة يرحمك الله؟» حدث بها نفسه ليستفتيها في أمره، فاعتصرتها خواطره من «ذاكرة الجسد». الحب عندما يأتي لا يبحث له عن مبرر ولا يأخذ له موعدًا.

في توقيت لا تأبه له يأتيك الحب ويطرق بابك، فإن لم يجد منك ترحيبًا تسلل خفية بين أركان القلب حتى يمتلك جنباته بوضع اليد.

استلقى على أريكته فناوله جابر كوب النعناع، فاعتدل في جلسته وتناول الكوب، وارتشف منه وهو شارد الذهن يفكر في هذه المشاعر التي تسللت خلسةً إلى قلبه فأضاءت بها جنباتُ روحه وما حولها، أنكرَ على نفسه ما تاقت إليه فهو حديث عهد ببيت. فزجر أفكاره هاجرًا لها،

فلم ترضخ خلجاته لزجره، إن بعض الهجر إثم، فكانت مشاعره تلقائيًّا تؤوب إليها وتمس فيه آخر جدار شغفه. إن حبًّا رزقك الله إياه، لن تسرقه مسافات أو تنزعه مواقف، حتمًا سيبقى.

غادر جابر الغرفة حين أبصر شرود أفكاره وأغلق الباب برفق، أدلى الإمام قدميه على الأرض، ووضع الكوب على المنضدة وأراح كفه على صدره، وكأنه يُغلق قارورة مشاعره، فانسابت من بين أصابعه نسمات وله. فصمت واجمًا ثم بدت عليه أسارير بهجة، فعبر أثير موجات الحب عادت أنغامه بلا تردد، فترنم بكلمات الأديب «علي أحمد باكثير» في أشهر رواياته:

قالوا: أحَبَّ القَسُّ سـلاَّمَةً   وهْو التَّقِيُّ الـوَرِعُ الطـاهِرُ
كأنَّمـا لم يَدْرِ طَعْـمَ الْهـوَى   والحُبِّ إلَّا الرجُلُ الفـاجِرُ

يشدو ويشيح بيده ليسكت تلك الألسنة، التي ربما تنكر عليه هيامه الذي ملك عليه جوانحه، ومشاعره الطاهرة التي اتسع لها صدره، فصار في الحب واقعًا.

حبه صار واقعًا روى مشاعرها، ولم تُفلح أي محاولة منها لتُزيح نداه عن ورقات قلبها، فقد عادت من مكة بقلب مفعم بالإيمان وبزخات الحب، فقد اصطفت راحلتها في طريق عودتها مع قوافل المحبين، حب عفيف لم تدنسه شهوة ولم تخالطه رغبة، حب نشأ في أطهر بقاع الأرض بين ركن قلبها ومقامه، طافت بقلبها يوميات العمرة من القدوم إلى الوداع، كحمام دافئ تواترت عليها الذكريات، فانتشيت كطفلة في واحة للألعاب.

أيقنت أن الله سيُخلف عليها في مصيبتها بخير منها، كما دعت وهي ساجدة في الروضة الشريفة، فوجدت في نفسها انجذابًا إليه فروحه تُشبه روحها، والروح تتعافى بمن يُشبهها، والنبي -عليه الصلاة والسلام- يقول: «الأرواح جند مجندة، ما تقابل منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»، فقد كان مُطابقًا لكل أمانيها، بورعه وعطفه وشمائله الطيبة، فرجته شفاءً لروحها المتوعكة وبلسمًا لقلبها المعطوب.

فتحت النافذة وتأملت السماء تناشدها كطفلة جلست تُصفق للسحاب لترسل ماءها على وجهها المتجهم لتشعر بالسعادة، وقفت أمام

المرآة تسألها: هل حقًّا الصبُّ تفضحه عيونه؟ حدثتها المرآة ولم تكذب في حديثها بعدما أدلت عيناها بالشهادة، أرسلت شعرها على كتفيها فتجددت نسائمه، نظرت لنفسها بعين الانتباه، تتأمل أنوثتها بتدلل، جاهدت لتوقظها من غفوتها، وتمسح عن واجهتها تراب الأحزان، فلم يعد في القلب متسع للكآبة. أنضجت نسمات الحب شهيتها للحياة، فاستنهضت خواطرها لتستعيد صباها. أفسحت مكانًا في قلبها لنبضات حالمة، ارتشفت كوب النعناع حتى نهلت جميع ما في جعبته. ثم اتكأت على فراشها تتطالع رواية سلامة وهي تنشد شجاعة عبد الرحمن القس بطل الرواية لفارس الأحلام الذي تنتظره على ربوة أملها للغد الذي ترجوه، فربما كان قلبه طوق النجاة لسفينة خلجاتها المتهالكة، رأت زوجته وأبناءه حواجز حريرية وليست سياجًا حديدية يقف عندها الحب مكتوف الأيدي.

تمنت أن تكون جولة المشاعر بينهما مكشوفة فيسألها: «من أنتِ؟»، فتجيبه: «أنا سكن لك». فقد كانت نكهة الشوق في قلبها معتقة بمودة ورحمة.

صعدت درج الأحلام فلهثت أنفاسها عليه، فعادت إلى جراح قلبها التي لم تلتئم بعد، وقامت تخط على وجه دفتر «كل المنافي لا تُبدد وحشتي

ما دام منفاي الكبير بداخلي». أن تمسك قلمًا وتخط جرحًا على مسودة، ذاك حزن رفض أن تتهدل ثيابه، فخرج على قومه في زينته.

اتصلت بأحمد ليأتي ويصحبها لتمكث معه في بيته، اختارت لنفسها منفًى بعيدًا عن موطن غرامها القديم، فلم تكن من الوحدة تفِر؛ بل ربما كانت تنشد راحة النفس من فيض المشاعر التي ارتدت أجمل ثيابها، ثم خرجت تتنزه في حديقة خاصة بغريمتها. ستهاجر الطيور وهي تنتوي العودة؛ ولكن لو أخطأت عودتها هل تكفيها النية الطيبة؟

❀ ✿ ❀

أخطأت السكينة طريق قلبه فاعتصرته أوجاعه، امتنعت عليه سعاد برغم أنه ضيق الخناق عليها ليأتي بها خاضعة عند قدمه، كورقة عصفت بها رياح الخريف. مالت لها رغبته وزهدت هي فيه وانفلتت من سياج قبضته. فقد استقرت بها الأيام في مشغل خياطة لتربي أولادها، ظل يفكر في حيلة جديدة يقطع بها شريان الخير الذي صنعه من قبل، حتى يصل إلى أرض الشر الذي أضمره، فلاحت صاحبة المشغل في وجهه بألف لا ورفضت كل عروضه لطردها من العمل.

هدم كل جسور إحسانه وغفل ربما يحتاجها للعودة يومًا، وسوس له شيطانه بأن يذهب إلى أحد السحرة ليصنع له تميمة تُهشم طلاسمها عناد قلبها فتتعلق به وترضاه زوجًا.

شم فؤاد رائحة غاز تأتي من الخارج، فأراد أن يقوم ليتابع الأمر بعدما انصرف العمال، فتثاقل رأسه بفعل الخمر، وجلس وهو يفكر في خطف ابنها كي يحرق فؤادها كما أحرقت شغاف قلبه، احتمت الفكرة في رأسه وعزم على تنفيذها في اليوم التالي لو أتاه الغد حقًّا، فالمرء لا يدري ما تخبئ له الأيام.

اشتعلت ألسنة اللهب في المطعم وهرب من الباب الخلفي لينجو بنفسه، وقف يصرخ في وجه النار وهي تأكل ماله وتجارته وكَدَّه، والناس من حوله يهرعون للسيطرة على الحريق الذي أَجَّجَته كؤوس الخمر وابتهال الضعفاء الذين سطا على أحلامهم.

❀ ✿ ❀

انتقلا إلى غرفة الضيوف بعدما تناولا وجبة العشاء، وما كان خالد ليتأخر عن إجابة الدعوة، إذ إنها من حق المسلم على أخيه.

فقال أحمد:

- لعل في رمضان القادم يكون بوسعنا تكرار العمرة.

فقال خالد:

- استحضر نيتك أخي أحمد.

- وأنت معنا إن شاء الله.

- أصدقك القول، فإن ظروفي المادية لا تسمح بتكرار العمرة قريبًا.

بينما كانت هند بالخارج بمقربة من الباب، ترمق هيئتها وتشهق من رهبتها مرارًا، ثم دلفت وألقت السلام دون مصافحة، وجلست بعد أن قدمت لهما الشاي وأحضرت كوب النعناع الخاص بها فتطاير شذاه فتطلع له خالد.

- من أخبركما أني أحب النعناع وأنه مشروبي المفضل؟

فلم يجب أحد، واسترسل خالد في حديثه وهو يرتشف من كوبه:

- العمرة الماضية قد تكفل بها أحد أصدقائي، والله يعلم كم كان شوقي إلى هذه الرحلة.

فقال أحمد:

- حكيت لنا في العمرة أن أصولك ريفية، فليس لك أرض أو عقارات هناك؟

- فدان أرض يرعاه أخي وبيت قديم على حاله منذ أن بناه أبي منذ ثلاثين سنة.

كان يُعري بؤسه أمام غيره دون أن يجد حرجًا في ذلك، فلم يكذب ولم يشأ أن يتجمل أو يلتحف بثوب زور.

- ولمَ لَم تسعَ إلى السفر لتتبدل أحوالك؟

- السفر قطعة من العذاب وقد لاحت لي أكثر من فرصة؛ ولكني عاطفي إلى حد كبير، شديد التعلق بأهلي وأسرتي.

كانت هند تخالجه النظر أثناء حديثه مع أحمد فقد كان وجهه محطة الراحة لقلبها المُتعب، تماهت روحها مع كلماته في مشكاة واحدة فقالت مواسية له في فقره:

- قد كنا إلى عهد قريب نعيش في ظروف متواضعة؛ ولكن شاء الله أن تتبدل أحوالنا منذ عهد قريب.

بشَّ وجه أحمد:

- كنت أُنكر على هند أملها واستبشارها بالغد؛ ولكنَّ الله أكرمنا من حيث لا نحتسب. وربما لو فكرت في عمل إضافي لأمطرت سماؤك.

اعتز خالد بخطاه على طريق الدعوة ومساهمته في صنائع المعروف، فقد كان نبعه الريفي الكريم ونيته الطيبة يحركاه على شتى طرق الخير والفضل.

- ممارستي للدعوة ودندنتي حول طرق الخير إلى جانب مطالعتي كتب الشعر والروايات يأخذون كل وقتي.

عثرت هند في فناء حديثه على ركن يشابهها فاستبشرت الروح بأليفها، فالتشابه بين الناس ليس في الملامح؛ بل في الإحساس ونمط التفكير.

في قانون الحرب تبدأ المعركة مع أول ضوء أو آخر ضوء وفي قانون الحب تستهل المشاعر في وضح التناغم.

ارتشفت هند من كوبها وقد أطربتها كلماته وقالت:

- وهل تكتفي بالقراءة يا خالد؟ تخضب وجهها خجلًا: أقصد يا شيخ خالد.

ارتجف قلبه كحالها ورمقها بنظرة حانية، ثم أخفض بصره حتى لا تفضح الصبَّ عيونه:

- أحيانًا أكتب الشعر والإنشاد والابتهال.

- ولِمَ لَم تتواصل مع المنشدين؟

فقال متحيرًا وقد امتلكته الدهشة:

- وكيف الطريق إليهم؟

دلته على الطريق ورسمت له ملامحه فقد ظنت أن طريقهما واحد:

- عبر صفحات التواصل الاجتماعي، فربما تروق كلماتك لأحدهم وبها يشدو.

- ولكني أكتب لمجرد الكتابة إشباع رغبة ليس أكثر.

حفزته نظراتها ليخوض المضمار الذي يجد فيه ذاته وقالت لتشجعه:

- وما المانع أن تجمع بين حُسنَيين؛ أن تكتب لنفسك وتصل كلماتك إلى الجمهور؟

فكر خالد في الأمر وقد بدا له وقال:

- سأحاول إن شاء الله.

نظرت إليه هند ثم لم تقْوَ على مشافهة عينيه، فأخفضت بصرها وقالت:

- ولِمَنْ تقرأ؟ وأي أنواع الكتب تنجذب إليها؟

أرهفت قلبها ليعي كلماته فنثر حولها فيض دافئ من الرومانسية:

- في شبابي كنت أقرأ للمتنبي، واقتصرت الآن على بعض رواد الشعر الحر، مثل نزار قباني وفاروق جويدة، وأقرأ الروايات لبعض الأدباء الشباب.

كأنه يحكي دون قصد ما تزخر به مكتبة بيتها. خرجت كلماته من فمها، ربتت عيناه على قلبها فتدثر بعطفه، خلجاته ونظراته ورجف نبضاته سرت في وجدانها منه، تشابه الإحساس وتخاطرت القلوب وتشافهت العيون بلغة لم تُفك رموزها بعد، فعشق الروح أنقى وأرقى أنواع الحب. كانت بين السطور تراه يناشدها «أن تبقى»، يهمس في قلبها لم يعد «الأسود يليق بك» يلوح بيديه ليدُلها على «منارات الحب» يأتيها صوته في فراش سهدها كل ليلة ويردد «أنتِ لي»، كانت أمانيها تنشده ليرعى معها «غربة الياسمين»، تقي عابد لم يبتهل بعد في محراب عينيها، فتمنته يخرج على قومه ولو «من وراء حجاب» ويصارحهم دون خجل «فاتتني صلاة»، ويحكي لهم بشجن « ما لا نبوح به».

أمسك بفرشاة ووضع على راية قلبها البيضاء كل ألوانه المبهجة، فأزهرت وغدت تسر الناظرين، وأقبلت روحها من كواليس ماضيها يافعة مطمئنة، ففي حضرة من تحب تنجلي أحزانك، وفي قربه ألف مبرر للسعادة.

لم يكن حسام صادقًا تمامًا في توبته، فقد نازعته نفسه إلى الشهوات من جديد، فأسقط عن كاهليه عباءة التقوى، ومكث منتشيًا بالقبلة الحارة أيامًا، وظنها أحيته ولكنها أردته غير منتبه.

حدَّث نفسه بضرر أخف من دنس العلاقات المحرمة، فمارس العادة السرية ليخفف من حدة شهوته؛ ولكن النار اشتعلت في جسده عندما رأى الفتاة الخمرية ترتاد المكتب. وقد ارتدت بعضًا من أناقتها وسحرها وجرأتها.

ولكن جلال هذه المرة أبى أن يأذن لها بالدخول ولو لدقيقة واحدة، فخرجت منكسرة الخُطى وهي تنوي عدم الرجوع مرة أخرى؛ فقد استعصى عليها ولم تفلح أهداب فتنتها في جذبه.

لهث حسام خلفها ووقفت تبادله الكلام، راقبه سيد وانتظره حتى عاد وأطلق نحوه وابل استهجانه، كم أفسد القرب أشياء قد شغفتنا حبًّا!

- أحوالك تغيرت كثيرًا ولم تعُد كسابق عهدك!
- إلى الأفضل ارتقى حالي؟
- كنت أرجو ذلك.

هز رأسه برفق وقطب جبينه ووضع يده على كتف حسام وقال والأسى يكسو كلماته:

- علمونا صغارًا أن أقصر الطرق بين نقطتين هو الخط المستقيم، فلا تغضب من صراحتي، فقد كنت شيخي ونبراسي؛ ولكنك تغيرت وفقدت النسخة القديمة من نفسك فصرت على شفير الهاوية.

شعر بصفعة أهدرت كرامته وقال: إلى هذا الحد من السوء انتهيت دون أن أدري!

رفع حسام حاجبه الأيمن واحتدت نبرته وكشَّر عن أنيابه واحتجت نظراته وقال:

- هل تراني أمدُّ يدي إلى المال الحرام؟!

لم تُرهب سيد ثورته وظل مرابطًا على ثغر الموعظة فقال وهو ثابت الجأش:

- يا حق ما أبقيت لي صديقًا فلا تحتد عليَّ هكذا، فنصيحتي لك بدافع الصداقة، وردها علي لو استطعت بالرفق، أنا أعلم يا صديقي أن المال ليس نقطة ضعفك فقد لمستُ فيك ذلك.

عادت أوداجه المنتفخة لسابق عهدها واستكانت حدته وابتلع ريقه ومسح وجهه بكفيه وقال:

- الحمد لله أنك تعلم ذلك، وأحافظ على صلاتي كما تراني.

استدعى سيد فيضًا من قواه لتدعم شجاعته وناشد قريحته لتمده بفيض من البلاغة تزجر صاحبه بأدب عن وقاحته التي أطلَّت من شرفة تهتكه:

- الثوب الوسخ لن ينفعه البخور بشيء فحاجته أشد للماء والصابون، والعبرة ليست بفعل الطاعة؛ لكن العبرة بترك المعصية كما كنت تعظنا في السابق، فأكبر موائد الرحمن في مصر تصنعها راقصة ولا عجب، فالطاعة يصنعها البَرُّ والفاجر، إنما لا يتعفف عن الحرام إلا شديد الإيمان، وأنت يا صديقي لم يعُدْ لديك تحفُّظات في تعاملك مع النساء كما كنت من قبل. أنا رجل ريفي والعامة في بلدي يقولون..

صمت سيد ولم يقل شيئًا وغلبه الحياء فاكتفى بما قال.

وكأن حسام يستحثه ليأتيه بالقاضية:

- أخبرني بما يقوله العامة في بلدك وتراه مناسبًا لحالي.

- أمسك بذراعه اليمنى وضغط بشيء من قوة وواجه عينيه بصرامة وقال:

- دعك من كلام العامة فإني لك من الناصحين، فلن يستقيم الظل والعود أعوج؛ ولكن بدافع من حبي لك أرجو أن تستعيد من جديد طُهرك ونقاءك، وتبُثَّ في نفسك العزيمة لتسترجع روحك البريئة.

لم تأخذه العزة بالإثم ليدحض الحق الذي سمعه، فداهمه شيء من الخجل وألصق بالأرض عينيه وعاد إلى كرسيه واستدار به ليُجابه به الحائط، فربما كان أخف وطأة من مجابهة صديقه، أجهدته لكمات ناصحه فترنحت بقايا من النور بوجدانه، وانتكست نوبات العشق بكيانه، واختبأت في إحدى زوايا عينيه دمعة مكابرة، عجزت أن تجرفها أشجانه، فبكى على ورعه المسكوب بغير دمع.

❀ ✿ ❀

روح بريئة قد تعرضت للظلم، فأنزل الله بي هذه العقوبة، كأن السماء احتفظت بدعوات المظلومين لهذه الساعة، ولولا دعاء أمي لكانت الطامة أكبر.

ولكن مَن ظلمت؟ ربما سعاد أو مسعد، أو خليل من قبل، أو ربما الأمر مجرد خطأ من عامل لم يغلق أنابيب الغاز جيدًا، فاجتاحت النار المطعم ولم تُبقِ إلا على جدرانه!

لكن ماذا لو أكلتني النار واحترقت وكأس الخمر بيدي؟

أموت على معصية وسوء خاتمة؟!

هل نجاني الله لأتوب؟

هل هذه رسالة من الله بأن الموت قريب مني؟

هل حان وقت التوبة الصادقة مع الله؟

فقد اهتز قلبه بعدما ألمَّ بخطيئته واستشعر أحداث النهاية تنزل بساحته، ولم ينسَ ما قدَّمَت يداه، فتذكر مظالم العباد وكيف التبرُّؤ منها.

أفكار كثيرة جالت في رأسه وما استكانت إلا بعد أن طلب منه عمال الترميم المالَ المتبقي لهم، فقد انتهوا من عملهم وعاد المطعم برونق مختلف، وعاد هو إلى حديث روحه..

«هيهات يا نفسي! فقد سئمت حياة المجون، أما آن للجسد المكدود أن يستريح؟ أما آن للنفس الممزقة أن تستردَّ عافيتها؟ أما آن الوقتُ لأحطم أوتاد ماضٍ مُلطَّخٍ بالدنس والشرور؟ أما آنت لي العودة عن طريق الغواية وطرق باب التوبة وسكب عبراتي على أعتابه؟! قبل أن يُداهمني الموت وكأس الخمر مقيدة بيدي!». دغدغ حديث نفسه بقايا من شره للفُحش ثم رفع بصره إلى السماء وقد امتزجت دموعه بريقه وقال بصوت طحنته آهاته: «يا رب لو عدت إليك تقبلني؟».

اهتز قلبه واستشعر حلاوة التوبة وأخفض رأسه واشتد نحيبه.

❀ ✿ ❀

وضع المصحف من يده بعدما راجع ثلاثة أجزاء كما اعتاد في كل يوم، إذ يختم القرآن كلَّ عشرة أيام، واستلقى على ظهره وأغمض عينيه.

جاءت أسماء وجلست على حافة الفراش، وقالت بصوت ذابل:

- كأن شيئًا يشغلك منذ عودتك من العمرة!

اعتدل وجلس محتبيًا بعد أن قبَّل كفها.

- وأي شيء يشغلني عن زوجتي الحبيبة وأولادي؟!

كانت متوجسة من أمره فقالت بشجن:

- لا أعلم؛ ولكن قلبي يحدثني بذلك.

مكابرًا قال خالد:

- وأي شيء قد طرأ على عاداتي وسلوكي؟ أخبريني لأقف على حقيقة أمري.

كانت على يقين بأن مشاعره بدأت تتسلل رويدًا خارج البيت، فباحت بالذي يُضنيها:

- قريب مني بجسدك ولكن أشعر ببعد روحك عني، شارد الذهن دائمًا وكثيرًا ما أفتقدك. وكأن مكة أسرت منك فؤادك.

لو كان بوسعه لأخبرها عن أمواج الحب التي تلاعبت بشراعه فتاهت منه قبلته التي كان عليها، وردد في نفسه مقولة أحد المشفقين «مساكين أهل العشق ما كنتُ أشتري حياة جميع العاشقين بدرهمٍ» أغمض عينيه وتنهد.

فالحب لا يختار ضحاياه؛ هم الذين يتسللون بين عرباته، وأحكام القلب لا تخضع لدساتير البشر، فالقلب يتقلب وليس لأحد عليه من سلطان، فكل متيمٍ معذور.

تبسم خالد ابتسامة خفيفه يواري بها عثرة قلبه فقد كانت أيامه بخير قبل أن يغشاه ظلها، وقال:

- حقًّا ما تقولين، يأخذني الحنين إلى ذكريات رحلة العمرة.

ناولته خطابًا قادمًا من البريد، فتح الخطاب وتبسم ضاحكًا:

- أخيرًا جاء رد إذاعة القرآن الكريم بالموافقة على قبول قصائد الإنشاد والابتهالات التي أرسلتها إليهم، وقد أرسلوا في طلبي! سأبدل ملابسي وأذهب إلى مقر الإذاعة عسى أن يكون لي مقابل مادي ننتفع به.

❀ ❀ ❀

ينتفع بالنصيحة من يريد؛ ولكن كلمات سيد لم تنفعه ومكثت النار ترعى تحت الرماد، وبدد الميثاق الذي حبت عليه أيام طفولته حتى استوى على سوقه. لم ينتفع بعهده مع نفسه وخان التزامه، ضرب بكل ورعه عرض الحائط، هجر مصحفه وغاض نور وجهه بظلمة عادة سيئة اقترفها، كأن شخصًا آخر حل بداخله فتشوه باطنه، أتى على ما بقي من لحيته بداعي التهابات أصابت بشرته، وتابع صفحات التواصل الاجتماعي ونسج صداقات عديدة مع فتيات ساقطات، وكثيرًا ما عاد وأحمر الشفاه يلطخ وجهه.

كان يتبادل الحديث معهن ليلًا وهو يتقلب على فراشه بكلمات عارية رخيصة، بالأمس كانت تمر عليه ساعات الليل راكعًا وساجدًا يشدو بصوته العذب، واليوم تبدلت أحواله، هزمته نفسه ونقضت عري عفته، وصار عبدًا لأهوائه ورغباته الجامحة، لم ينفطر قلبه على موبقاته وإن كان لا يزال يحافظ على صلاته أحيانًا.

شبق يعتريه، يبدو في عينيه كلما رأى امرأة بملابس مثيرة تمر بجواره وكان يذهب إلى الأماكن التي تشهد تجمعات ويتحرش بالفتيات، وكثيرًا ما عرض نفسه للإهانة والتوبيخ الذي لم يصده أي اعتذار.

أنهكت شهوته بدنه وأضرت بدينه وسرقت منه رشده ووقاره. زلزال قُبلة لبنى دغدغ أركانه ولم يتوقع أن تكون هكذا توابعه.

سقط في أول اختبار لتقواه، مع أول فرصة أتته للخيانة خان التزامه، وغسل يديه من تنسكه بقطرات دافئة سكبها أشرف، وبعدها أطلق لنفسه العنان، تتجول جهرًا في دروب العشق وساحات الحب بحثًا عن تلك اللذة، وقف منتشيًا على شفير السقوط ولم يخشَ ترديه.

❀ ✿ ❀

- سقط، لقد سقط يا إمام.

وكان الإمام قد انتهى من كتابة أكثر من أنشودة جديدة، ليتواصل بأشعاره مع مشاهير الإنشاد في العالم العربي، فترك القلم من يده وقال مشدوهًا:

- عمن تتحدث يا جابر؟

كادت كلمات جابر تتعثر على شفتيه من شدة مسرته:

- زين العابدين بن علي، أطاح به الثوار في تونس، صفعة على وجه محمد البوعزيزي بطشًا وظلمًا، كانت منها شرارة الثورة التي أطاحت بعرشه وأزالت ملكه وفر هاربًا.. صفعته على وجهه فاحترق قهرًا وكمدًا فثار أهل بلدته قبل أن تحرقهم نار الجور والطغيان، فجنت على أهلها براقش.

تهلل وجه خالد ورفع كلتا يديه وصاح:

- الله أكبر! هلك الطاغية الذي حارب الحجاب ومنع الصلاة إلا لمن يحمل بطاقة تسمح له بارتياد المسجد، واضطهد رجال الدين وزجَّ بهم في السجون، قوض الظلم عرشه وقد جاء في أحد الكتب المنزلة: «الظلم يُخرب الديار».

أعاد رأسه إلى الخلف وشردت منه أفكاره لما سجله التاريخ في صفحات من نور.

لم يحصِّنها بالعدل ولم ينق شوارعها من الظلم ولم يرمم خرابها، ولو صنع لبات الذئب في حضن الشاة، أمسك رجال العدل بالعصي وحطموا رؤوس الأبرياء فضاع الحق بينهم فأخزاهم ولعنهم الله.

وضع جابر أنامله على جبهته وبدأ يفكر في شيء ثم قال بعد صمت وترو.

- ولكن واقعة الظلم التي من أجلها ثار الناس لم تكن من الرئيس المخلوع.

حدثه خالد من سطور التاريخ الزاخرة بالعبر وقد احتوت ذاكرته بعضًا منها:

- إنها تراكمات قديمة يا جابر، فالله يمهل ولا يهمل. ابن القيم يقول: «إن الله يقيم الدولة العادلة ولو كانت كافرة، ويهلك الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة»، وتأمل معي عبر التاريخ، فالبرامكة كانت لهم صولة وكلمة نافذة في عهد هارون الرشيد الذي عدا عليهم وأودعهم السجن، فقال ابن يحيى البرمكي لأبيه: «يا أبتِ بعد العز والسلطان صرنا في القيد والحبس!»، فقال: «يا بني دعوة مظلوم سرت في جوف الليل، غفلنا عنها وما الله عنها بغافل».

كادت الفرحة تُبكيه وكان يُمنِّي نفسه بالمزيد من بيارق النصر على أنقاض عروش الظالمين فطرح على شيخه سؤالًا ألحت به نفسه:

- هناك أنظمة أخرى جائرة ولم يسقط إلا «بن علي» وحده!

قال خالد في زهو والفرحة تسكن عينيه:

- قطار الغضب غادر المحطة وغدًا سيأتي عليهم الدور في السقوط.

❁ ✿ ❁

حين خرج حسام يلهث خلف الفتاة الخمرية، أعطته رقم هاتفها؛ ولكن هاتفها كان مغلقًا، واليوم ردَّت وكلمته، وواعدته في أحد المطاعم بالقرب من نادى الصيد، فذهب إلى هناك ووجدها كملكة في انتظاره، فقد كانت رائعة في أنوثتها وفي سلوكها غارقة في الطين. مكثا ساعة حتى اصطحبته في سيارتها إلى مسكنها في شارع شهاب.

مشاعر بين الفرح والخوف داهمته على درج هاويتها؛ ولكنها كانت بارعة الجمال، فاستعصم من رهبته بسحرها.

تدنس معها بحقارتها، فقد كانت خطاياه السابقة معانقة لامرأة وقبلة ملتهبة لأخرى؛ ولكنه في هذه المرة اقترف جريمة الزنا بمعناها الكامل، عفَّر جبينه الساجد من تراب فجورها، انتفض في البداية كسمكة أخرجوها عنوة من البحر ثم استسلمت للنار تحرقها. تخطت أحلامه معها زمنًا عاشته بين الرغبة والخشية، ففكَّ ما ظنه عقد التزامه، رغبات مكبوتة اندفعت من فوهة بركانه المخنوق، استشعر لذة لم يتذوقها إلا من وطئه لأرضها المحمومة.

فكانت خبيرة بمطارحة الفراش وإشعال الحرائق، استسلم لموجها العاتي فألهبته وتدفق بينهما الحب مرات في هذه الليلة، تأوهت بلذة ونبشت بأظافرها ظهره وغاب معها في قبلة طويلة، داست عجلاته كل

سهولها ومنحدراتها، احتسى من نبيذها حتى ثمل وكانت قد أعدت له من قبل طعامًا شهيًّا وفاكهة كان يلتهمها من على شفتيها، وظل صامدًا يقاوم رغباتها الثائرة ويطفئ لهيبها بمده الهائج. مقبلًا ومدبرًا دك حصونها كجلمود صخر متهاوٍ نحوها. على محيط خصرها وضع شيئًا من فورانه، مارس معها التناوم الجنسي فكان كلٌّ منهما يتظاهر بالنوم ويدع جسده للآخر دون مقاومة.

فأطربت بعزفه على أوتار نشوتها وقالت:

- هذه الليلة من أجمل ليالي عمري، كتلك الليالي الثلاث التي قضيتها في برج الخليفة.

وضعت قبلة على صدره وهو مستلقٍ على ظهره وقد تلاصقت كفوفهما وتلامست أطراف أقدامهما، وبخبرتها أضرمت النار في جسده فقد كانت تاجرة بارعة في سوق المتعة، ومضيا في ساعة جديدة من الغرام يحرث في أرضها وهي ولهى.

فقالت بصوت متهدج:

- هذا هو الحب، فالحب لا ينمو إلا في غرفة النوم.

وهنا تذكر أنه سمع هذه المقولة من قبل، نقَّب سريعًا فعثر عليها في آخر شوارع الذاكرة شريدة، وظن بالخطأ أشرف قائلها.

ما كان يشاهده سابقًا أكسبه حنكة المعارك، ضمٌّ بضم ولثمٌ بلثم وهجومٌ بغزو وحصار يليه اقتحام، فاستباحت جيوشه الغازية قلعتها التي لم تكن يومًا حصنًا منيعًا، تمدد على الفراش فحق لكل محارب أن يستريح، وقبل أن تضع الحرب أوزارها ارتشف من نهديها كطفل أرضعته أمه بعد فطامه أسبوعًا، فكاد يخلع حبة العنب الشامخة من منارتها، سكرت بتوهجه وشدة بأسه فقد ألقى في جعبتها كل مدخراته من سنوات عفته، وما بقي مختبئًا روت به ظمأها، احتوت يداه منها كل خطوط الطول والعرض، وحصرت شفتاه ربوعها ووقعت صك ملكيتها الليلة، قدم لها كل أوراق اعتماده لتشهد بفحولته، فاعترفت وكتبت له بأناملها صكًّا بذلك على صدره «جلَّاد». سبقته إلى الحمام الذي فاحت فيه روائح كريهة من «حمام الملاطيلي».

خرج من غرفة النوم ليتبعها فاستوقفته صورة، اقترب من الصورة فصعقه هول ما رأى، وهوى على ركبتيه ووضع يديه على رأسه.

خرجت من الحمام لتعرف سر غيابه:

- هل تعبت فجأة؟

سألها بكلمات لا تكاد تخرج من فمه:

- من معكِ في الصورة؟

- زوجي، هل تعرفه؟

صهرت لوعته إجابته:

- إنه صديقي الوحيد!

- أأنتَ حسام محسن؟! حدثني عنك كثيرًا!

ظل واجمًا وقد نكس رأسه وضرب بيده عليه مرارًا، وردد بمرارة في نفسه هذه الكلمات: «سامحني يا صديقي، خُنتكَ في بيتك، هتَكْتُ عِرضكَ بيدي».

جلست ميرفت بين يديه وتطاولت على أحزانه وقبلته وقالت:

- لا تعكر صفو ليلتنا، لا تُعقِّد الأمور، لم نرتكب جريمة؛ ولكنه الحب الذي يسمو فوق كل شيء وتخضع كل المعايير لسلطانه.

❀ ✿ ❀

وفد عبد الوهاب من القرية ليزور شقيقه خالد بعد عودته من العمرة، فحياه وعانقه بحرارة ودلفا معًا غرفة الضيوف.

بشَّ عبد الوهاب وتهللت أساريره:

- عمرة مقبولة إن شاء الله.

ابتهج خالد لدعوته:

- آمين، رزقك الله بمثلها. وكيف حال أمي؟

- بخير، وكانت تتمنى أن تأتي معي وتبارك لك؛ فأصابتها نزلة برد، وإن شاء الله تكون حالتها أحسن حين أعود لها بماء زمزم كما وعدتها في حديثك معها بالهاتف.

ألمَّ بخالد شيء من الوخز لوعكتها الخفيفة وقال:

- ألبسها الله ثوب العافية، وقد وفيت بوعدي لها وأحضرت لها أكثر من زجاجة. ولكن أخبرني عن حالك، وكيف حال زوجتك وأولادك؟

- بخير والحمد لله، ولا ينقصنا سوى زيارتك، وقد أوصاني زياد أن أخبرك باجتهاده في دروسه ليخطو على دربك، وقد زودتني أمه بالفطير والجبن القديم وأشياء أخرى من عبق الريف أتيتك بها.

- بارك الله في عمرها وأبقاها في طاعته، وأحسن الله إليك إذ حملت إليَّ ما تنوء به قواك.

دخلت أسماء بصحبة ابنيها وحيوه وانصرفوا، وضع عبد الوهاب يده في جيبه وأخرج مبلغًا من المال ناوله لخالد:

- هذا نصيبك من محصول الأرز، ثلاثة آلاف جنيه.

تهلل وجه خالد وقال ممتنًّا:

- سبحان الله! مثل هذا المبلغ أنفقته بيدي في أثناء رحلة العمرة، كأن الله يُخلِفُ عليَّ!

وضع المال في جيبه.

- وكيف حال الشيخ راغب وأهل القرية؟

- الجميع بخير، وحين علموا بمجيئي حمَّلوني سلامهم جميعًا.

- سلمهم الله من كل مكروه وسوء، هم وأهلهم وذويهم. والله وحده يعلم مدى اشتياقي إلى القرية ومن فيها.

تناول طبقًا من على المنضدة فيه من تمر المدينة وقرَّبه إليه.

- وهل أنهَيْتُم ترميم المسجد القديم؟

أفصحت عيناه عن رضاه وقال بشيء من الزهو:

- بعدما حدثت الناس عن الصدقة انهالت في اليوم التالي الصدقات، وفي أقل من شهر بدأنا الصلاة فيه من جديد.

- في زيارتي الأخيرة للقرية لم ألتقِ بخليفة ابن خالي علي.

- خليفة ترك البلد منذ سنة تقريبًا.

- هل انتقل ليعيش في المدينة مثلي؟

هز عبد الوهاب رأسه وطفت في عينيه حسرة وقال:

- خليفة تراكمت عليه الديون، وتم الحجز على مصنع الألبان الذي كان يمتلكه.

أدهشته الصدمة؛ فقد كان خليفة عقلية راجحة، ولكنه كان لا يقف كثيرًا عند القيم أو يعبأ بالفضائل، فقال متعجبًا:

- سبحان الله! ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع. كيف تبدلت أحواله؟!

شرح له عبدالوهاب الخطوات التي اتخذها خليفة ليسير نحو هاويته:

- لما ذاع صيته وتميزت منتجاته عن غيره وعاش فترة من التوهج؛ بدأ يغش في التصنيع بحثًا عن المكسب والثراء السريع، وتكون له الوجاهة والمنزلة فوق الجميع.

وقف على شفير يفصل بين النور والنار، وبسط ذراعيه وكان للنار أقرب، قامر بصيته وأراد أن يلعب به على كل الحبال ولم يعتبر بتردي بهلوانات سبقوه. استنكر خالد في نفسه صنيع خليفة وتجهمت ملامحه وجال بخاطره كيف سوغ له ضميره أكل السحت؟!

تحسرت نفسه وعلى دربها كلماته:

- بغش الناس والمال الحرام يرجو رفعته! نفوس مريضة صادفتها كثيرًا تفكر بالمنطق نفسه، والدنيا لن تغنيهم عن الآخرة، والله عز وجل يقول: «﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ۝٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ۝٢٠٧﴾ فماذا يستفيد الإنسان لو ربح الدنيا وخسر الآخرة؟!

وضع عبد الوهاب كوب الشاي من يده وشبك بين أصابعه وأسندها على بطنه واسترسل في حديثه وقال بامتعاض بالغ:

- ربما سولت له نفسه هذا الأمر وزين له شيطانه الحرام، ولم يبارك الله له فيه، فرويدًا الاسم التجاري لمنتجاته بدأ يفقد توهجه وخفَتَ بريقه وانهارت تجارته خلال سنة، وصدرت ضده أحكام قضائية بعدما تراكمت عليه الديون، وفر من القرية بجلبابه ويده الفارغة حتى لا يخضع لتنفيذ الأحكام الصادرة ضده وصار مشردًا.

فقال خالد متأسفًا على حاله:

- جنى على نفسه، بعدما وصل إلى القمة لم يحافظ عليها، فكانت نهايته السقوط.

❀ ✿ ❀

على صفحة خالد سعيد تعرَّف من التعليقات على صديقه حسن زميل دراسته في معهد الخدمة الاجتماعية، وقد انقطعت الصلة بينهما لأربع سنوات، تواعدا على اللقاء في حديقة الأورمان في الواحدة ظهرًا.

تعانقا وتهلل وجهاهما وسعدت قلوبهما بتجدد اللقاء كما كانا وقت الدراسة، فقال جابر:

- أين غبت عني يا صديقي كل هذا العمر؟ أعياني البحث عنك وذهبت إلى بيتك كثيرًا ووجدته مغلقًا. أخبرني، ماذا فعلت بك الأيام؟

طرق سؤاله ذكريات موصدة على أوجاع محمومة بداخله، فاغترف منها غرفة بيده ونثرها بين يديه:

- داهم الأمن بيتي في إحدى الليالي، وكنت أتوقع حضورهم، فتركت البيت وذهبت إلى بيت أحد أقربائي وقضيت الليل فيه، وقد اعتادوا تفتيش البيت وتهديد أمي في كل مرة وينصرفون، ولكنهم اقتادوا أمي معهم في هذه الليلة وهي مريضة بالسكر، ولم أعلم إلا في الصباح، فأسرعت بتسليم نفسي ليطلقوا سراح أمي. صدر قرار باعتقالي ولم تتحمل أمي الفاجعة فماتت ولم أحضر جنازتها. سنوات قضيتها مكبلًا أسيرًا، سنوات سرقوها من عمري دون جناية مني لمعارضتي فكرة التوريث في أكثر من مقال.

فقال جابر:

- لعل الأيام القادمة يكون فيها السقوط المدوي للنظام كما سقط «بن علي» في تونس.

- «بن علي» لم يسانده الجيش، وتخلى عنه الغرب الذي كان يلتحف به، وأظن أن الأمر في مِصر سيكون مختلفًا.

فسأله جابر:

- وهل تعتقد أن يخرج الناس في مصر بثورة مشابهة؟

ضربت عصا الخوف أفكاره فقال حسن متوجسًا:

- القبضة الأمنية في مِصر أكثر قوة من تونس، وأتمنى أن تمر الأيام بسلام.

فقال جابر وشيء من الأمل يحدوه:

- ولكن هناك دعوات للتظاهر في الخامس والعشرين من يناير القادم، ولكل زلزال توابعه.

أناخ حسن رأسه على صدره وأمسك بذقنه المدبب، أغمض عينيه قليلًا ثم رفع رأسه وقد ساور القلق أفكاره:

- أخشى أن تتدفق الدماء وتعم الفوضى البلاد ويكتوي الجميع بنار الثورة، فالنظام الحالي لن يترك للثورة مجالًا لتقوض عرشه وتضع رقاب الجميع على المقصلة، فالأمر بالنسبة إليهم سيكون حياةً أو موتًا.

- وماذا ترى يا صديقي، هل يرضخ الناس للظلم ويستكينون؟
- أنا لم أقل ذلك يا جابر.
- هل تتوقع أن يترك النظام السلطة طواعية؟

بادره حسن بجواب يوافق ما في نفسه:

- لا بالطبع؛ فالعرش له بريقه.

سأله جابر مستنكرًا:

- وكيف ينتهي الظلم؟ وإلى متى نعيش في قهر واستبداد؟

تجهمت ملامح حسن وتأمل الأشجار من حوله وقد اغتسلت بماء المطر فصارت أبهى. وردد في نفسه: لسنا أشجارًا؛ بل مجرد فسائل صغيرة. عاد من حديثه مع نفسه إلى مناوشات صديقه:

- لسنا مؤهلين للثورة ولا نملك شخصيات قيادية تتولى دفة الأمور، تحضُرني مقولة أحمد زكي في مشهد المحكمة في فيلم «ضد الحكومة»:

«كلنا آثمون، كلنا خاطئون، لا أستثني أحدًا، حتى المواطن العاجز قليل الحيلة».

وضع على جبين الأيام قبلة وناشدها أن تمر بسلام. فأنكر عليه جابر استكانته. وأشهر لصديقه سيف عناده وثارت حماسته ليدحض حصة من آرائه.

- ولكن في مصر كثيرًا من الأحزاب والتكتلات السياسية المعارضة.

مسح حسن وجهه بكفيه، وهز رأسه برفق وقال ممتعضًا:

- أحزاب كرتونية لا تملك الفكر، ديكور صنعه النظام ليواري به سوءاتِه وعثراته، وأخشى أن تأخذ الفوضى بيد البلاد إلى المجهول.

بغرابة كان يستمع له جابر، فقد تبدلت قناعاته وخَفَتَ جموح أفكاره فلم يعد ثائرًا كسابق عهده، فقد كان ملهمه في السابق ولكن ربما فقدت جوامحه الثائرة ذاكرة التحليق. فأراد أن يُقلب قدر أوجاعه ليغضب ويتجدد حماسه:

- الموت بالعلة خير من العيش بالمذلة. قد غيرتكَ سنين السجن يا صديقي لغير ما أنتظره منك، فقد سرقوا عمرك وماتت أمك ولم تحضر جنازتها، وزجوا بك في السجن دون جناية، فلماذا تخشى من ثورة التغيير ولم يعد لديك شيء تخسره؟

وضع زجاجة المياه الغازية بجواره وأراح يده على كتف صديقه، وضغطت أنامله بشيء من الغضب:

- أخشى على بلدي يا جابر من عواقب وخيمة تجر البلاد إلى فتن كبيرة، فإذا كنا اليوم في ظلم ربما في الغد نعيش في ظلمات.

تبسم جابر في وجهه وناشدته عيناه باللين حتى لا يُعكر الجدل صفو لقائهما، وخرجت عليه كلماته بسمت لطيف:

- حدثني بالمنطق ألست كلما فتحت نافذة غرفتك للشمس والهواء دلف بعض الذباب إلى الغرفة؟ فكل شيء له ثمن، فالجرح المتعفن لا تربت عليه بكفك؛ ولكن اضغط بما أوتيت من قوة لتخرج ما فيه من الصديد فيبرأ بعد طهر، ولعل صحوة متأخرة تنقذ الناس وتُخرجهم من كهفهم للنور. سيأتي الربيع العربي بكفه عسل الثمار.

أطرق حسن رأسه وجالت بخاطره أسوأ الفروض، فرياح الفتن تعبث بميزان الشر، فلا يعلم أحد كم تزن له الأيام من حصة غضبها. ضغط على شفته السفلى بأسنانه مترفقًا ورفع رأسه وقال:

- فماذا لو سرقوا حصاده وبدَّلوه ثلجًا ونارًا،؟ سيغسل الكهنة أيديهم ويغيرون ثيابهم ويعودون لمسرح الأحداث مرة أخرى، ونرجع إلى نقطة الصفر بعد خسائر فادحة، فالعاقل إذا تلمح العاصفة أغلق لها الباب قبل أن تهب، وأنت بفرط غضبك تريد أن تفتح لها الباب على مصراعيه وقد قال لي أحد رفقاء السجن: «ستون سنة مع حاكم ظالم خير من ليلة بلا حاكم»، فسقوط النظام بهذه الطريقة ربما يجر البلاد إلى السقوط الذي يخطط له الأعداء. ولا تغتر بما قاله أحدهم «هرمنا من

أجل هذه اللحظة التاريخية»، وليس هناك أي إعداد لما بعد تلك اللحظة، فالدول لن تُحكم بالانفعالات والحماس الزائد بل بالعدل والحكمة، أنا لست ضد ثورة التصحيح؛ ولكن قبل أن ترفع معول الهدم دعنا نرى في يدك حجر البناء، فالثائر الحق يثور ليهدم الفساد ثم يهدأ ليبني الأمجاد، فلا بد من إيجاد البديل الكفء، ويلتف الجميع حوله، حتى لا يتصدر المشهد الإمعات وأنصاف القادة ومحترفو التطبيل وعشاق الصياح، فنستبدل سيئًا بأسوأ، نتعلم من أخطاء الماضي فمن الحماقة أن نستنسخ منها إصدارًا جديدًا، يا صديقي خذها ولا تخف واملأ بها صدرك «أنصاف الثورات أكفان الشعوب».

استقل أحمد سيارته وبجواره خالد يستمعان إلى حديث هند وهم في طريقهم إلى قرية المندرة بالفيوم.

- بعدما أخذت مستحقات عادل المادية من الشركة منذ عام تقريبًا؛ شرعت في تنفيذ ما كان يحلم بفعله لأهل قريته، تحدثت مع أشقائه وأرسلت إليهم المال وبدأ العمل يدب على الأرض بخُطى واثقة، وفي غضون عام صارت الفكرة وارفةَ الظلال.

أحمد:

- لاحظي أن الشيخ خالد لم يلتقط الفكرة بعد.

أشرق وجهها بفيض من مسرَّة قلبها بالوفاء لأحلام زوجها وأمانيه الطيبة:

- عذرًا، ربما من فرط سعادتي لم أدر من أين أبدأ الكلام. كان عادل -تغمده الله برحمته- يريد عمل مزرعة للدواجن تحمل اسم «سنابل الخير»، ربع إنتاج المزرعة يتصدق به على فقراء القرية وما حولها من قرى، وبقية الإنتاج يبيعه للتجار لتغطية تكاليف الإنتاج وأجور العمالة، وما يتبقى من العائد يأخذ منه ما يكفي لنفقاته ويتوسع في المشروع تباعًا بمشاريع أخرى كتسمين العجول ومزرعة للسمك، ويزيد نسبة الصدقات في كل حين.

خالد:

- وإلى أي مرحلة وصل المشروع؟ هل أنهيتُم تجهيز المبنى؟

تجلَّت في عينيها السعادة وقالت منتشية:

- لقد أنجزنا أكثر من ذلك بكثير، وهذا سر سعادتي، بإمكاني قولُ إنَّا شارفنا على خط النهاية، لقد أعدَّ أشقاء عادل كشوفًا بأسماء الفقراء، واليوم الخميس سنوزع الدواجن والطيور عليهم.

- وكيف أنجزتم الأمر بهذه السرعة؟

تهلل وجه هند واستنار بأكثر من مبرر للسعادة:

- استعنتُ ببعض أصحاب الخبرة في هذا المجال، وقد يسَّر لنا الله أمورًا كثيرة.

- على نياتكم تُرزَقون، وعلى قدر حسن النوايا تأتي من الله العطايا. وهل سيتم التوزيع هذا الخميس فقط؟

- في كل خميس إن شاء الله، إذ إن أهل الريف اعتادوا أن يأكلوا اللحم كل يوم خميس، وعادل -تغمده الله برحمته- كان فقيرًا في صباه ولم يكُنْ بوسع أمه أن تطعمه وأشقاءه اللحم، فكان ذلك يُحزنه، فلما صار غنيًّا عزم على تنفيذ هذا المشروع ليجلب السعادة والخير لكل عائل عضَّ الفقر قلبه وغرس به أنيابه.

ابتهج خالد وتذكر ما صنعه المهندس «صلاح عطية» في بلدته «تفهنا الأشراف» فما زالت أرض الكنانة تزخر برجال كرماء يتاجرون مع الله ويمسحون على البطون الفارغة بكف إحسانهم، فكثير من الأبواب المغلقة قيدت خلفها صرخات جوع لا يسمعها إلا الله، فتمنى لو لحق بموكبهم ولو بالنية، فلو كان معه المال لصنع مثل صنيعهم.

- رحم الله زوجك، فقد كانت نفسه سخية، وأسأل الله أن يطعمه من ثمار الجنة كما سيُطعِم الفقراء مما يشتهونه؛ ولكن من سيدير هذا المشروع؟

فاجأه أحمد:

- ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ۝٢٦﴾، وقد أخبرتني هند برغبتها فيك.

وهنا تعثر نبض خالد وقال:

- كيف ذلك؟

أفصح أحمد عن رغبتها الأولى التي أبدتها له ولو واتتها الشجاعة لأفصحت عن الثانية، فقد رأت فيه القوة والأمانة:

- قد رغبت فيك، أنت تدير المزرعة.

رغبت في قربه في دوحة العطاء لتأخذ الدنيا بأيديهم إلى دوحة الحب، فقد تلبست بوجده واجتمعت قرائن الغرام بما لا يقبل الشك، وأتى قلبها

بألف دليل، وشهدت عيناها بما رأت فتعجلت نطقه بالحكم.. خالجه شيء من السرور فبدا وجهه مشرقًا، فتألق محياها، ابتسامة صافية من نديم الروح تُسقط عن الكرة الأرضية وشاحها الكئيب؛ ولكنَّ عقبة زاحمت سروره:

- ذاك شرف وتكليف؛ ولكني كما تعلم موظف وليس لدي وقت إجازة إلا يوم السبت.

تلكأت عيناها على وجهه تبحث عن قرار، فلم يرفض ولم يقبل وكان للقبول أقرب، فالتمست رضاه فقد وضعت كل أحلامها على متن قلبه، فمعه ستعود روحها تترنم بلحن السعادة، فقلبها لم يعد صالحًا للموت مرة أخرى:

- ممكن أن تأتي إلى المزرعة كل يوم سبت، سيُقِلُّك أحمد بسيارته، وفي بقية الأيام تتابع العمل بالهاتف. حدِّد لنفسك الراتب الذي ترتضيه.

خطت أفكاره بتدلل على أرض غرامه وهمست خواطره في صدره بقول الله عز وجل ﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ﴾ فلعله إذا ولج هذا الباب ظفر بعصمة قلبه، وقبل أن يبدي خالد رأيه لاح في الأفق سحابة تزينت بسبعة ألوان ومشت تتبختر في بهو السماء، فتتابعت قطرات المطر على الزجاج، وتبسمت كأن الغيث أصاب قلبها بعد ظمأ فاحتمى بشاطئ

الحب قاربها من أمواج متلاطمة تلاعبت به، ضمت هند كفيها ودعت بصوت خافت وتضرعت ونقلت للسماء بثًّا مباشرًا لأماني الروح، وخالد يردد في نفسه: «آمين».

تمنته ضمة تحنو على كسرة روحها، سكونًا تحتاجه خلجاتها، فتحًا لأفق مستقبل قريب، مثنى لقلبها مضافًا إليه، حرفًا ساكنًا بداخلها لا يبرح، حالًا يأخذ بيدها للأفضل، بدلًا لشريك تخطفته يد الردى، توكيدًا لكل ظنونها الحالمة، نعتًا للروح التي ألفته، ظرفًا يحوي كل رسائل الشوق المهاجر، استثناء عادلًا من العهد لجبر خاطرها، مُنادى تجهر به أحلامها، ألف وصل تحتاجها امراة مثلها، ضميرًا غائبًا لا يعود إلا لأجلها، حرف عطف يجمع مودتها برحمة، فاء سرعة تؤلف بينهما على خير، تمييزًا لحقبة عمرية لفظت ترملها، فاعلًا يسد مسد الخبر الذي روعها، جزمًا لكل احتمالات القلب، ممدودًا غرامه بها دومًا غير منقوص، اسم مكان لا تحوي جدرانه سواها، اسم زمان يُطوى عمرها فيه، علامة ترقيم تشرح مشاعرها بعناية، نقطة تحجز عنها جراح الماضي، قوسًا ثانيًا ينغلق على قلبها يحمي ضلوعه، فاصلة تخلفها نسمات ترجوها، خطًّا مائلًا يحجبها عن تاريخ مُثقل بالوجع، علامة تعجب لكل الشمائل المشتركة بينهما، معجمًا للغة العيون التي تعشقها، قاموسًا يترجم مفردات حبها، صرفًا

لمشتقات كلفها المقيد، تثبيتًا لنون الإحسان بينهما، أسلوب شرط للصداق المسمى، تشديدًا بالضم لعقدة النكاح، وبقيت بداخلهما علامة استفهام «متى ذلك؟».

❀ ✿ ❀

عاد ياسر إلى العمل بعدما انتهت الإجازة، تألق وجهه بابتسامة مشرقة، حياه أشرف ودعاه إلى مشاهدة أحدث الأفلام التي حاز عليها من صديق له.

فقال ياسر بصوت يملؤه الحزم:

- كنت أشاهد معك هذه المقاطع التي كانت تؤجج نار الشهوة بداخلي، وأدمنت بسببها عادة سيئة، أما الآن فأريد أن أفتح صفحة جديدة مع نفسي حتى لا أفقد احترامي لذاتي، ولعلك تحترم رغبتي في الاستقامة بعد الزواج.

جلس حسام وهو يحد النظر إلى أشرف الذي دفع به إلى الحافة وزين له الفجور، فجابت في رأسه أفكار شتى تململت نفسه على أثرها، حتى استقر آخرها بعلاقته القذرة بزوجة صديق عمره. الذي اكتنفه بمعروفه يوم أن قست عليه الدنيا واشتدت حاجته، أطرق رأسه إلى الوراء وأسنده إلى الكرسي: «طوَّقني بجميلِه حين أقرضني المال لإجراء جراحة أمي، وكان وفيًّا وصديقًا بمعنى الكلمة ولم يتخلَّ عني قط. هل هذا جزاء إحسانه، أن أهتك ستره وأخونه في بيته وعلى فراشه وأطعنه بيدي طعنة الغدر؟!».

بقلب منكسر جلس حسام يتابع عمله على جهاز الحاسب الآلي يشعر بالخجل من نفسه، والخجل الأشد من صديق عمره الذي طعنه بسكين الخيانة في شرفه دون هوادة.

«ليتك تسامحني يا فريد، فقد كان رد الدين الذي حذرتك منه بيدي، وليت بوسعي أن أخبرك لتعود وتغسل عارك بيديك!».

لم يخجل من ربه كما خجل من صديقه، ولم يبكِ على ذنبه كما بكى على خيانته، كأن أضعف الإيمان مات في قلبه فتعثرت خُطى توبته على أعتابه، ولم يأخذه الحنين إلى طُهرِه الذي كان أنقى سريرةً من ماء المطر.

❀ ✿ ❀

ملأت خاطره وحنايا فؤاده بصوتها الرقيق وسواد عينيها، فتوهجت ملكة الشِّعر بداخله، واشتعل نبض قلمه وجاد بأعذب الكلمات، من قال من الجرح وحده يُولد الأدب غض رأيه عمدًا عن شرارة الحب، إنها سيدة الأحلام تذهب بك بعيدًا، فمن يضمن لك العودة مجددًا، على مرفأ الأيام لتبدو عليك اللهفة؟ كان يرتق تشققات أحلامه بمغزل الشعر، فترنم بكلماته أشهر المنشدين في الوطن العربي، ودر ذلك عليه مالًا. ونشر بعض قصائده في المجلات الأدبية، كانت فاتنته وملهمته، كان يكتب لها لتقرأ وتتدثر من صقيع وحدتها، ظل ينهل من رحيق قلمه ليزداد بها كلفًا وقربًا. كان يطمئن من صفاء السماء على عافيتها فتخبو لوعته.

استجمع قواه وصارح زوجته بحقيقة مشاعره تجاه هند، فتوقع منها أن تثور وتغضب وتترك البيت؛ ولكنها ظلت صامتة واجمة فقد توقعت لشروده الدائم شيئًا كهذا، وقالت بصوت متهدج:

- هل قصرت في حقك؟

صمت قليلًا وجالت عيناه بأرجاء الغرفة خشية العتاب:

- لا والله، ما رأيت منكِ إلا الحب والوفاء ولا أُنكر عليكِ شيئًا من أمور الدنيا أو الدين.

- هل الزواج منها يسعدك؟

فسكت ولم يرد.

فقالت أسماء:

- لم أسمع منكَ إجابة!

فقال خالد:

- أظن في الأمر سعادة أخرى لقلبي مع سعادتي بك وبأبنائي. واعذريني فقلبي ليس بيدي.

بنظرة ما بين الأسى والمُطاوعة ردَّت أسماء:

- والله إن ما يسعدك فهو يسعدني، ولن أحرم ما أحله الله لك، ولكنْ تذكَّر حق أولادك عليك في الرعاية وحسن التربية، وبحقي عليك في العدل بيننا.

كأن أسماء أتت من كوكب آخر، أو كأنها من غير فصيلة النساء، فلم تغضب وتثُر وتتوعده بالعصيان والنفور؛ بل قررت أن ترضخ لحاجته وأبت إلا طاعته، ليطيب خاطره ويهنأ باله ويستريح قلبه الذي أبى إلا القسمة على اثنتين.

❀ ✿ ❀

جرفه الشبق إليها مرة أخرى بعد أيام، فنفسه الضعيفة لم تمنعه من التلطخ بحقارتها مجددًا، لم تمنعه شيئًا من وليمتها فهام بها حتى وصل معها قعر الفجور.

حزنه على كونها زوجة صديقه لم يدم طويلًا، تجرأ على المعصية ولم ينكسر قلبه على الدنس الذي غاص فيه، ولى وجهه شطر أنوثتها وتعلق بأستار سحرها وذل قلبه في محراب فتنتها، فغدت قبلة لمشاعره، ذهب إليها خمس ليال متفرقة، وفي كل مرة كان يخرج من بيتها يعزم على عدم العودة؛ ولكن نفسه أبت، فانصاع لها بعدما ألزمها زمام أمره، مشى بثيابه مبللة ولم يرتجف بدنه ولا فؤاده، كان يخشى من الريح لو حركت ستر غرفتها، ولم يضطرب فؤاده من نظر الله إليه، فقد توارى وازعه الديني، وتلاشت في وجدانه مسحة الخوف الباقية، من فج عميق مختبئ في سراديب خواطره أتت كل هذه الضلالة، طوَّعت له نفسه أن يغوص في بحر العهر حتى شاطئه، حتى هوت به ريح مجونه في مكان سحيق.

آه كم هو مخيف ذاك السقوط الأدبي! فكيف انقلب على عقبيه وتجرأ على محارم الله إلى هذا الحد؟! كان وجهه يتشرب بحمرة لو التقت عيناه بعين امرأة، كان يتقيأ عندما يلمح مشاهد الحب الساخنة، ما الذي سار به

إلى هذا الدرك المتدني من الانحطاط؟ كيف هوى منه إيمانه ليرتكب هذا الإثم العظيم؟!

فربما كان حديثه عن الفضيلة ريشًا زين به نفسه ليحظى عند الناس بمنزلة، ولباس التقوى الذي التحف به دعاية كاذبة أحاط بها نفسه، وكان التزامه محض نفاق وقشرة مزيفة، يواري به لهفته ويخفي به بركانه الخامد!

أفكار كثيرة دارت برأسه المتعب من الفكر والحمى التي انتابته وعاودته مرة بعد مرة، إعياء شديد افترش أوعيته وخارت قوى روحه.

اضطربت أمه لأوجاعه فوعدها بالذهاب إلى الطبيب.

تحسنت حالته قليلًا ثم ساءت، متابعته لعمله تضاءلت رويدًا، تلاشت ثقته بنفسه وصار كالمهزوم مُنكَّس الرأس، عاودته الحمى فكان يتصبب عرقًا ليلًا حتى في ليالي ديسمبر.

رأى في المرآة تقرحات تملأ فمه، فزادت مخاوفه من فرط ما أصابه من أعراض، فذهب إلى الطبيب وأجرى التحاليل المطلوبة، روح كئيبة بدأت تسكن أوصاله، مكث في بيته منطويًا حتى أخبره الطبيب بحقيقة مرض نقص المناعة المكتسبة المسمى بـ «الإيدز» الذي استوطن جسده، دوى

انفجار بداخله لم يسمعه سواه، هز الخبر كيانه وأثقلته الصدمة وتجمد على كرسيه حتى أخبره الطبيب بانتهاء الكشف.

عاد إلى بيته بخُطى عليلة بعدما رجَّ الخبر روحه بعنف، وكأن الموت يجذبه دون هوادة، سوداء هي الدنيا في عينيه وقد نسجت الفاجعةُ سياجًا على فمه، فلم يتكلم مع أحد حتى والدته. مرارة شديدة امتزجت بوجدانه، عارٌ ينتظره ودنسٌ لسمعته، انقطع عن العمل ولم يعد يصلي، استشعر قبح ذنوبه فلم يعُدْ يليق به أن يقف بين يدي ربه.

تغيب عن وظيفته وأغلق هاتفه، ولم يخرج من بيته، ظن لو خرج سيقذفه الصبيان بالحجارة أو سيفر الناس منه كالمجذوم، فزاره زملاؤه وبخبث سأله أشرف عن حقيقة مرضه بعد ما سمع منه الأعراض التي تنتابه، فسرعان ما أفشى سره، فلم يعد يتحمل الكتمان، ضاقت نفسه بوصمة الخزي التي تسللت في عروقه ونشر غسيله القذر أمام الجميع بعدما أفرط في الحديث مستاءً عن مجونه ولم يتكتم على شيء من عاره، كمحموم وقت هذيانه جاد ببعض أسراره. ولو بوسعه لخط حكايته على جدران الكون، لفظ آخر ما في جعبته وسألهم ماذا عليه أن يصنع.

كان ياسر غارقًا في ذهوله، وعلى حضور أشد سوءًا كان قلب سيد يرتجف من بلية الخبر، فبكى صامتًا وكأن قاذفة مسيلة للدموع نكتت

عبراته، فلم يتوقع للنبراس الذي أرشده يومًا مثل هذا المصير. فسبقهما أشرف بصقيع أنفاسه ونصحه بالذهاب إلى المستشفى. بحث عن من يُجيره فلم يجد إلا جلاده.

❀ ✿ ❀

لن تجد القطط من تتمسح بساقه بعد اليوم، فقد أجهزَتْ عليه أقداره وأدرجوه في كفنه وسلَّموه إلى قبره. صحبته دعوات وزفرات وأحلام كان للغد يرجوها، ريح طيبة انبعثت من قبره نفح شذاها أنوف مُشيعيه، زخات توبته فرشت له قبره فطاب ثراه.

هدمت توبته جدار ذنوبه فرحل مطمئنًا، وكأن النار التي اشتعلت في مطعمه أكلت عمره والتهمت أيامه، أكلت كل شيء ولم تترك غيره، نجَّاه الخير الذي صنعه رحمةً بقلب أمه الذي كان بارًّا بها أو بدعوة فقير ممن كان يطعمهم السمك كل خميس، فقد ترك باب إحسانه مفتوحًا ليعود إلى الله منه. كاللص الذي وجده «سهيل بن عمرو» صائمًا فتعجب من أمره وسأله: «تسرق وتصوم؟» فأجابه: «تركت بابًا أرجع إلى الله منه» وبعد عام وجده متعلقًا بأستار الكعبة باكيًا ضارعًا.

فكان شيء ما يتململ في وجدانه، ضربت أمواج ندمه باب قلبه فاستفاق، وعاد يمحو أوزاره التي كانت بينه وبين ربه بتوبة تَجُبُّ ما قبلها، وبقيت مظالم العباد تؤرق مضجعه وأراد أن يتطهر منها هي الأخرى ليلقى ربه نقيًّا.

ذهب إلى سعاد وأعطاها المال لتتزوج ممن اختارته مأوًى لقلبها، وأعادها إلى بيتها القديم كما احتال ليخرجها منه، وطلب من الموظف الكبير أن يُعيد مسعد إلى عمله، الخوف حمله على ما صنع حتى لا يكون يوم القيامة من المُفلسين.

أخذه الحنين إلى المسجد ليصلي، ولما سلم الإمام من صلاته لم يُسلِّم هو، فقد أسلمَ الروح إلى بارئها ومات ساجدًا.

❀ ✿ ❀

في عنبر رقم (8-رجال) كان يوجد أكثر من ثلاثين حالة معظمهم قد تأقلمت حياتهم مع المرض، وعلى نفور الممرضين والأطباء أحيانًا، ونظرات الاشمئزاز منهم أو الشفقة، أحيانًا يتبادل بعضهم النكات والمداعبات مع بعضٍ أو مع مَن يزورهم، بينما كان في العنبر اثنان لم تجف دموعهما، حسام محسن وناصر علي أحدثُ الوافدين، أرسل لهما أحد الأطباء للحضور في مكتبه.

دق الممرض باب غرفة الطبيب.

الممرض:

- المريض حسام محسن.

الطبيب:

- تفضل بالجلوس.

أغلق الممرض الباب.

- كيف حالك أستاذ حسام؟

أجاب بصوت مختنق بعد جهد:

- الحمد لله.

عطفت نظرات الطبيب عليه وكذلك كلماته، فتبسم له وقال:

- العامل النفسي له دور في علاج أي مرض عضوي، ولعلك لاحظت أن زملاءك في العنبر يتعاملون بصورة عادية كأنهم أصحاء تمامًا، فعليك أن تستأصِل من ذكرياتك ما تستحي منه وتضع سياجًا حديديًّا على الماضي الذي وصل بك إلى هنا حتى تجد العافية، فالاطمئنان نصف الدواء والصبر أول خطوات الشفاء.

رفع بصره ثم أخفضه وغطى وجهه بكفيه وسأله:

- وهل لهذا المرض علاج؟

- نعم له علاج، يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «ما أنزل الله من داء إلا جعل له دواء، فتداووا عباد الله».

أخفض رأسه المغموس في الوحل وأزاح الستر عن دهاليز نفسه التي اكتظت برائحة الموت.

- ولكن شبح الموت يداهمني في صحوي ومنامي!

ردَّ الطبيب بثقة تخطت الحد الأقصى لليقين:

- هناك مرضى حاملون للمرض منذ عشر سنين، وقد تماثلوا للشفاء فلم يقضِ عليهم المرض.

صبغ خزيه ملامحه ومزق نسيج صوته فرقَّعه بشيء من غضب مكبوت في صدره ليقوى على الكلام:

- بعض الأطباء والممرضين يتعاملون معنا بنفور شديد كأننا منبوذون، ويقولون إن بدل العدوى الذي تصرفه لنا الوزارة لا يتخطى عشرين جنيهًا، وأحيانًا يرفضون التعامل معنا عن قرب أو مجرد لمسنا.

تفلتت من عينيه عبرة شاحبة أرهقها التنمر والسخرية والازدراء من شبح يناوله الدواء بيد ويصفعه بأخرى.

تذمَّر الطبيب وأبدى سخطه عليهم مع أسفه له وقال:

- هذا خطأ مهني فادح لا شك؛ فإن مهمتنا أن نقضي على المرض لا على المريض، وهذا المرض لا ينتقل بالمصافحة أو الأكل مع المريض؛ إنما ينتقل في حالات محددة، فلا تحزن من مثل هذه التصرفات الفردية، وتعايش مع وضعك الحالي بحالة من الصبر والرضا، وليتك تحافظ على صلاتك وسمتك يدل على أنك تصلي، فالجانب الإيماني له دور في الصحة النفسية للمريض. وإن شعرت بأي مضايقة أو احتجت شيئًا فإن مكتبي مفتوح للجميع.

نهض حسام من على الكرسي ووقعت عيناه على مصحف على المكتب..

- هل تأذن لي أن أستعير المصحف منك حتى تشتري لي والدتي واحدًا في زيارتها القادمة؟

كانت ابتسامة كريم يشوبها الرضا وقال بملء فيه:

- ولِمَ تشتري؟ هل تقبله هدية مني؟ رغم أن الناس يقولون إن الهدية لا تُهدى، فقد أهدتنيه زوجتي مع هذه المسبحة الزرقاء.

هنا حملق حسام في المسبحة وأعاد النظر إلى المصحف متوسط الحجم، بني اللون، وشرد بذهنه يتذكر هديته لسهير، ولو كان يملك الشجاعة لسأله عن عقد الياسمين، وظلت عينه مثبتة على المسبحة كأنه يريد أن يستردها.

فطن الطبيب لتشبث عينيه بمسبحتة فأراد أن يُخلي طرفها من ناحيته ليمنحها له:

- لو تريد المسبحة أيضًا خذها.

أخذها حسام ورمقه بنظرة حادة، تصايح منها نداء «أيتها العير إنكم لسارقون»، عجز عنه لسانه فوجهت التهمة عيناه، مكث صامتًا ثم قال بصوت مضطرب وشيء من الحرج يُداهمه:

- إن لم أكن سيئ الأدب، ما اسم زوجتك؟

- سهير.

- سهير زكريا؟

بشيء من الذهول قال كريم:

- نعم، هل تعرفها؟

نأى حسام بعينيه حتى لا تُنبئ عن شيء وقال:

- أعرف أباها، كان صديق والدي.

مد يده وصافح الطبيب، وبيده الأخرى استرد الخير الذي صنعه من قبل، كأن المعروف لا يبقى إلا لصاحبه.

نظر له حسام ممتنًّا على هبته التي كانت من قبل هداياه، وبقي له في صدره كِفل من العرفان، فإن أول من يمنحك يده وقت سقوطك لن تنساها له ولو مكثت على التل عمرك.

انشغل كريم بدخول المريض الثاني مكتبه ولم يسأل نفسه كيف علم حسام اسم زوجته.

وقف حسام على الباب يقلب عينيه بين المصحف والمسبحة، ثم قرب المسبحة إلى فمه كأنه يستلهم منها نسائم الماضي الجميل، حمد الله أنه لم يلوث ماء البئر إلا ببطش يد ضالة لم يتعمدها، فجاء من بعده فوجدها على طهرها باقية. ضلَّت خطاه طريق العودة إلى العنبر، فأرشده أحد المرضى ولم يفكر في الانتظار ليعود بصحبة رفيقه ناصر.

ناوله كريم كوب ماء فشربه ممزوجًا بدموعه:

- أنا.. أنا. غلبه البكاء مجددًا وأخفض هامته واشتد نحيبه فرق له كريم وقام وربت على كتفه.

بحث بداخله عن حروف مختبئة بين أكوام من وجع وتنهد تنهيدة حارة كأنه أتى بها من قاع تنور.

- أنا لا أستحق الحياة، فقد هدمتُ بيتي وجنيتُ على ابنتي، فالموت أرحم من عذابي ووجع قلبي، لو كان الموت يُباع لاشتريته.

انهمر ناصر في بكائه مجددًا، وخرجت أنفاسه من أصل الجحيم، وقد غبرت كلماته وجهه فتشعث قلب كريم عطفًا على مناحته التي هدمت فيه جدران روحه، فوقف على أطلاله مغتمًّا ليواسيه قائلًا:

- هدِّئ من روعك، الظروف التي ألَمَّت بك حتى صرت مريضًا لا دخل لي بها؛ ولكني على استعداد أن أسمع منك ما يمكنك البوح به، فالنفس تفيض عند امتلائها، لعل الكلام يخفف عنك وقد قيل لي إنك لا تكف عن البكاء ولا يأتي أحد لزيارتك.

هدأ نحيب ناصر واستجمع قواه كي يخفف عن نفسه قبسًا من حملها، تلعثمت كلماته في البداية وتعثرت أفكاره، فلم يعرف من أين يبدأ حكايته، فحياته كانت طبيعية، يعمل حرفيًّا في مجال دهانات الحوائط، متزوج وله ولد وبنت، أسامة في السابعة من عمره وعبير في الخامسة

عشرة من عمرها، ماتت زوجته بعد صراع مع المرض وتركت له أعباء أولاده.

مرت أشهر بعد وفاة زوجته وهو يؤجل فكرة زواجه من جديد، أو بالأحرى لم يكن لديه وقت ليبحث عن زوجة؛ فقد كان في النهار منهمكًا في عمله وفي الليل مع أصدقائه على المقهى أحيانًا، أو في بيت أحدهم يدخنون الحشيش مع أنواع أخرى من المخدرات ويحتسون البيرة وغيرها من المسكرات.

اعتاد أسامة أن ينام بجوار شقيقته عبير بعد أن فقد حضن أمه، وفي إحدى الليالي الباردة بلل أسامة فراشه، فقامت عبير من نومها على بكائه، فبدلت له ملابسه ووضعته على حافة السرير بعيدًا عن موضع البلل، وأسلمت جسدها الغض الممتلئ إلى الأرض، لم يتحمل جسدها الرطوبة فذهبت إلى غرفة أبيها.

عاد ناصر بعد منتصف الليل وقد أنهكت المخدرات قواه وأثملت الخمر صوابه، وجد ابنته نائمة في فراشه، فظل يتحسس جسدها حتى قامت فزعة من نومها، وقد ثارت شهوته المتبلدة منذ أشهر.

قاومته وظلت تدفعه ما استطاعت؛ ولكن عقله قد غاب ولم يسمع صراخها ولم يرأف بدموعها، خارت قواها أمام شهوته الجامحة، نزع عنها

ملابسها وصار نصف عارٍ، واعتدى عليها اعتداءً جنسيًّا كاملًا وهو مغيب الوعي والضمير والمشاعر وأشياء أخرى، استبد به الغياب ولم يحضر عنه إلا خواره. فربما لم يفطن لفرس أصيل حين خدعوه في غرفة مظلمة فوطئ أمه، ولما ابتهجوا وأشعلوا الأنوار وانتبه الفرس لفعلته قضم ذكره ليموت.

بينما هو لم ينتبه لشيء فاستلقى على ظهره، فقد خمد عنفوان مرجله فنامت عيناه بعدما نامت فيه كل معاني الوجود.

خرجت من الغرفة تحبو، تجر حسرتها وثيابها الممزقة، تبحث عن ملاذ بعيدًا عن هذا الوغد الغادر الذي أسال دماء شرفها ومزق عفتها.

ليلة كئيبة مرت عليها لم تظن أنه سيعقبها فجر، صدمة مروعة زلزلت كيانها بعد الاعتداء الغاشم على عفتها من الذي تناديه «أبي»، نحر بكارتها ليُطعم جوعته.

بجسد متعب يرتجف وقلب مكلوم مضت عليها ساعات الليل باكية مذعوره كبريء أخبروه أن المقصلة تنتظره في الصباح، عارٌ ينتظرها ووحل ستغوص فيه سمعتها، مع شمس اليوم الجديد تحاملت على نفسها وحاولت أن تخفي آثار العدوان، ملابسها الممزقة ألقتها في القمامة وخبأت وجعًا في أعماقها لا تسعه قسمات الأرض.

استيقظ أسامة فوجدها شاحبة حزينة، فظن ببراءته أن حسرتها منه إذ بلل فراشه، فاقترب منها وقال:

- لن أصنع هذا مرة أخرى.

ضمته إلى صدرها وودت لو أن تبوح له بمصيبتها، ألجمت لسانها وكذلك عينها عن البكاء، وقامت بخُطى منكسرة تُعِد الفطور، لم تجرؤ أن تقترب من غرفة أبيها وتوقظه من نومه كما اعتادت، فأرسلت أسامة ليوقظه، وضعت الطعام على المائدة وجلس أسامة بجوار أبيه الذي كان يأكل بنهم كأن شيئًا لم يكن، كأنه لم يدرِ بجريمة فادحة ارتكبها أمس.

وقف أمام المرآة ومشط شعره وتهيأ للخروج فتذكر مصروف البيت فناولها ورقة نقدية، فمدَّت كفها برجفة فسقطت هي الأخرى، فانحنت برفق والتقطتها من الأرض.

شردت بخواطرها هل كان ما حدث أمس مجرد كابوس مزعج؟ ولكن ملابسها الممزقة وإعياءها من مقاومته أكدا لها الواقع المرير الذي منه تهرب، تلاطمت بعقلها أمور شتى، هل تخبره عند عودته بما صنع وهل يصدقها؟ هل تكتم الأمر وتستر حالها ولا تخبر بفعله المخزي أحدًا؟

صراع وعراك لأفكار تشابكت برأسها، ولما جنَّ الليل التحفت بأسامة حتى نام وهي تحتضنه، تحتمي بجسده الصغير من الذئب الذي اعتدى عليها أمس، وكلما داهم النوم عينيها انتبهت؛ تخشى أن يأتي ويُعربد ويعيث في ربوعها فسادًا.

أغلقت باب الغرفة وبالغت في إحكامه ووضعت خلفه كرسيًّا كبيرًا حين شعرت به يغلق باب غرفته ثم هدأ تقلقله رويدًا فهمد أدنى من ثلثي قلبها، فاستكانت أفكارها، حاولت أن تنام دون جدوى، فقد خشيت أن تكتوي بنيران صديقة وتشبه الليلة البارحة.

مرت ثلاث ليال دون خسائر جديدة، وهداها عقلها أن تكتم الأمر؛ ولكنها كانت تأخذ حذرها كل ليلة وتغلق الباب جيدًا، ولكن دون أن تضع الكرسي خلف الباب، فقد سألها أسامة عن هذا الأمر ولم تجد مبررًا مقنعًا لسؤاله.

في الليلة الرابعة جلست تذاكر وقد سبقها أسامة إلى النوم، وبعدما أجهدتها المذاكرة غلبها النوم فنامت هي الأخرى، استيقظ أسامة الذي نام مبكرًا وأخذ الكتاب من يدها ووضعه جانبًا، ودثرها بالغطاء ثم فتح باب الغرفة وجلس على الأريكة يشاهد التلفاز. وبعد ساعة داعب النوم جفونه فقاومه ما استطاع.

عاد ناصر ثملًا كعادته، كان في طريقه إلى غرفته؛ ولكن قدماه قادتاه إلى صوت التلفاز، وجد أسامة نائمًا فأطفأ التلفاز، فأراد أن يحمله فترنحت قدمه فتركه ولم يُعِد المحاولة.

ولج باب الغرفة الذي تركه أسامة مفتوحًا، فبمجرد أن رأى وجهها وقد انحسر عنه الغطاء ضحك كالمجنون، أزاح الغطاء واقترب منها، فزعت حين شعرت به، نظرت إلى مكان أسامة فوجدته خاليًا، فخشيت أن يكون أصابه بمكروه.

وسألته بلهفة: أين أسامة؟ أين أسامة؟!

ظلت تصرخ فلم يجبها، ربت على كتفها بشماله وبيده اليمنى نزع غطاء رأسها، دفعته بقوة حين اقترب منها وظلت تصرخ:

- حرام عليك! أنا ابنتك!

كأن المخدرات نهشت بقايا عقله فلم يعِ ما تقوله، ركلته بقدمها ليمتنع عن جريمته فزادت وحشيته، لطمته على وجهه لعله يستفيق ويسترد صوابه؛ فأمسك بغطاء رأسها وكبلها في الفراش ليُخمِد شراستها، فصارت بين براثنه فريسةً فكرر اعتداءه الغاشم، وهي تصرخ وتستجير لعل ضميره يستفيق.

فما أيقظ صراخها إلا أسامة الذي قام فزعًا من نومه وأسرع إلى الغرفة، لم تصدق عيناه البريئة ما يرى، فاندفع إلى أخته المقيدة وهي عارية ليزيح عنها هذا الوحش الكاسر.

فدفعه ناصر فاصطدم بالجدار وسال الدم من جبهته، للمرة الثانية يتلطخ البيت بالدم، المرة الأولى كانت دماء الشرف والثانية كانت دفاعًا عنه.

استرد ناصر شيئًا من وعيه لما رأى الدماء تسيل من فلذة كبده، ابنته مقيدة ونصف جسده عارٍ! طلاسم لا يعرف فكها، نزع القيد من يد ابنته وأحاط به رأس ابنه عساه يلملم سيل الدم، ولم يتوقف سيل الهواجس والأفكار بداخله عن تفسير ما يحدث حوله.

ارتدت عبير ما تستر به جسدها وضمت أسامة إلى صدرها وكل منهما ينتفض فؤاده ويرتجف جسده.

جلس على الأريكة منكس الرأس بعدما ارتدى ملابسه حتى الصباح، يفكر في الدمار الذي جلبه على بيته والعار الذي ينتظره والنار التي سيتلظى الجميع بلهيبها، ولم تنقطع أفكاره إلا بعدما سمع صوت عبير وهي تتقيأ وتشتكي آلامًا في بطنها، وزادت على رأسه المثقل بالهم والوجع صدمة جديدة بعدما أخبره الطبيب بما تحمله عبير في أحشائها.

لم يستطع أن يرفع عينه في عين أبنائه، مكث في البيت من فرط الخزي الذي أصاب جوانحه، وعبير وأسامة لم يبرحا غرفتهما وقد صبغ القهر وجهيهما. عاث الذعر بفؤاد أسامة حتى صهره، وقد التأم جرح رأسه وجرح نفسه لم يلتئم بعد، ولم يكف عن السؤال: «هل الوحش الذي رأيته هو حقًّا أبي؟!».

ترقبت عبير الموت لتدفن عارها معها، كم آهة صرخت بها في أعماقها، كم ارتجف نبضها كمدًا، في سراديب بعيدة من نفسها تراكمت حسرات وخيبات واكتواءات، تمنت لو جادت عليها الأرض بلحد تختبئ فيه مع فضيحتها، ظلام خيم على البيت ليل نهار، وتعاسة سكنت أرجاءه، قطعًا من الليل مظلمًا افترشت وجوههم، استوطن الحزن صدورهم فأمست كألواح مستعرة من الجحيم، فتَّت الهمُّ أفئدتهم وكبَّل الخطب شفاههم فصار صمتهم كالقبور.

أخبر ناصر جارة لهم أن ابنته أخطأت مع شاب غريب، فعرضت عليها أكثر من حيلة لتجهض نفسها، فاختارت عبير أقلها ضررًا وأجهضت نفسها، ثم بعد فترة انتابت الأوجاع ناصر وأجهدته الحمى، فقادته التحاليل إلى عنبر رقم (8) في مستشفى حميات «إمبابة».

❀ ✿ ❀

بعدما انتهى خالد من درس العصر مكث مكانه مستندًا إلى الحائط يقرأ ورده اليومي وأذكاره، مالت الشمس إلى الغروب، وبينما هو جالس على هيئته جاء أحمد وسلم عليه.

تهلل وجه خالد:

- ما أكرم الريح الطيبة التي أتت بك، فكم أشتاق لمجلسٍ أنت به!

سكت أحمد وأخفض بصره فتسلق خالد طوابق شجونه وقد أنبأت ملامحه الحزينة عن خطب فادح:

- ما الأمر يا أحمد؟

سبقت إجابته تنهيدة خرجت من صدر مهموم:

- اتصلت بي والدة حسام وأخبرتني باحتجازه في المستشفى.

أبدى انزعاجه لما سمعه وقال متأسفًا:

- لم أرَه منذ أشهر، لعلي قصرت في حقه وفي السؤال عنه. ممَّ يشتكي عافاه الله؟

سكت أحمد قليلًا ونكس رأسه ثم خرجت كلماته ممزوجة بالحسرة والخذلان:

- أخبرتني والدته أنه مُصاب بـ «الإيدز».

بجرة كلمة واحدة طعنه دون عمد، فنكس خالد رأسه هو الآخر من هول ما سمع وكادت لحيته تمس موضع سجوده، وأراد أن يتكلم فما استطاع، عقدت الصدمة الجارفة لسانه، وفلقت فؤاده لفلقتين حال بينهما سفود متوهج، تكدست فيه آهاته ولم يبح منها بشيء، فبدا وكأنه قد رحل، ثم هز رأسه برفق ليُثبت حضوره الذي افتقده، بالفاجعة التي ألمت به.

التعجت نفس أحمد على حال صديقه وتهشمت أركانه، فأخبر شيخه بما سمعه، وكان عليه أن يُخبره به أولًا لتتهيأ نفسه للطامة التي بدأ بها:

- أحد معارفي يعلم بصداقتي لحسام، أخبرني فور عودتي من العمرة بأن أحواله تبدلت وصارت له علاقات غرامية كثيرة.

«إن الفضائل لم توجد في الدنيا عبثًا، فتش عن المرأة في مثل هذه الأحوال وستشمَّ رائحة الأنثى التي جلبت ذاك المرض سيئ السمعة من دنس حقارتها مع وغد هائج خلع عن نفسه رداء القيم».

رفع خالد رأسه وهزه برفق بعدما دارت هذه الأفكار بقلبه المكلوم فتنهد عن غم وقال:

- لا تحسبن العدو غلب؛ ولكن الحافظ أعرض، نسألُ اللهَ السلامة، يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك. كيف وصل إلى هذا المستنقع

العفن بعدما كان من أوتاد المسجد، وكنا نبكي خلفه والمسجد يرتج بالبكاء أيام الاعتكاف من عذوبة صوته وخشوع تلاوته؟!

استعاد أحمد ذكرياته ونقَّب في صحيفة صديقه فلم يجد فيها إلا التقوى ودماثة الأخلاق وعفة البصر وكل جميل يُثلج صدر المكارم:

- وأنا من خلال صداقتي له عرفت مدى حرصه على صيام النوافل وقيام الليل، حتى كان مثلًا في الالتزام يقتدي به بعض طلاب الجامعة.. أبى الرمز إلا أن يتحطم.

جملته الأخيرة قالها بغير شماتة فقد عجنتها الحسرة بكلتا يديها، مسح خالد وجهه بكفيه وأغمض عينيه يستدعي النور الذي عبأ به حسام وجهه، من اجتهاده في العباده ومداومته على قيام الليل، وتأمل تنسك ظاهره بجلباب قصير ولحية كثة فتبدَّل حاله بعد كل هذا، نفث عن كمد قلبه فقال:

- عاش الناس على مُرادهم فهلكوا، ولو عاشوا على مُراد الله لفلحوا ونجوا، وقانا الله شر أنفسنا فإن الحيَّ لا تؤمن عليه الفتنة، وقد قلت له أكثر من مرة حين كنت أفتقده في المسجد لا تسلك الطريق وحدك؛ إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، والمرء لا يستغني عن الصحبة الصالحة التي تعينه على تقوى الله، بخاصة في مثل هذه الأيام

التي استطارت فيها الفتن... لاذ بصمته قليلًا وهز رأسه ممتعضًا وقال: تفنى اللذة ويبقى الإثم والعار، فلا خير في لذة من بعدها النار.

أغمض أحمد عينيه وشخص ببصره ليدفع عن نفسه هذا الجاثوم الذي أطبق عليه وقال متحيرًا:

- وفي ظنك، لمَ انتكسَ وهوى بذاك الشكل المُخزي؟

بين جنبات عقله تزاحمت أفكار كثيرة، وهو يبحث عن مقومات السقوط:

- أنا لم أقف على حقيقة الأمر، ولكنَّ الأرض تُنبت الريحان والكمأة فلا تلمها وقد غرستَ نبتها بيديك، ولا أخفيك سرًّا ذنوب الخلوات هي أصل الانتكاسات، وصغائر الذنوب تجتمع على العبد حتى تهلكه، فما هلكت عاد وثمود إلا بشؤم المعصية وما تسونامي منا ببعيد، غار الجبار فأتاهم بما أنذرهم من وعيد. ولا يغتر عاقل بصغر الذنب؛ فإن الجبال من الحصى، فرُبَّ نظرةٍ أردت صاحبها، نسأل الله الثبات، إن رجلًا يبيع جنة عرضها السموات والأرض بشبر من جسد امرأة لقليل العلم بالمساحة. فلو كان يسمع أو يعقل ما باع نفسه برخص.

رياح مضادة لكل ما تربى عليه وتنسك به لم يستتر منها بشيء، هوت به لذاك التيه السحيق، أخذ شيطانه بيديه بعدما دعاه واستجاب له،

فتدرج به في المعصية وتركه على شفير، وخدعته نفسه فظن العودة ممكنة فكان للسقوط أقرب، فأشد أعداء الإنسان نفسه التي بين جنبيه فمن أراد أن يحيا حياة طيبة فعليه أن يجر نفسه بسلاسل الخشية ويعمل عملًا صالحًا، فالنفس قد جُبلت على الطغيان ولا ترضى من صاحبها إلا الكفر.

أخرج أحمد من جعبته وصية ليلى وأفصح عن عجزه من ثقل الصدمة عن تنفيذها:

- قد طلبت مني والدته أن أصطحبك في زيارته إذ إنه لا يكف عن البكاء؛ ولكني لا أقوى على رؤيته في هذه الحالة. فليتك تذهب وحدك هذه المرة وربما أزوره معك لاحقًا.

❀ ✿ ❀

كان يتخول نفسه بالموعظة ويوبخها ليُلزمها العودة إلى طريق الهداية، خشية الفضيحة ومغبَّة الذنب وعار يتعلق بذيل ثوبه، فكانت نفسه تتهدل ولا تثبت على حال، فكان يمضي في طريقه يطاوع نفسه تارةً ويزجرها تارة أخرى، ولم تجُلْ بخاطره تلك النهاية المفزعة، فقد كان يحلم بالزوجة والأولاد ويُمَنِّي نفسه بالاستقامة يومًا والعودة إلى سابق عهده، فخذلته نفسه مرارًا وتصدعت أحلامه بعدما زلزلت حسرته قلبه. قذف بركان لوعته كل ما في قعره من حجارة ليرجم بها نفسه الفاجرة.

على هامش الكون جلس منزويًا في منعطف مهجور، فقد عصرته أوجاعه وسحقت بقايا الإنسان بداخله، ولم يجد أحدًا يتهمه أو يتعلل به لسوء مصيره إلا نفسه الضعيفة التي أطلق لها العنان تتجول جهرًا في دروب العشق بعدما تدرَّجت في الخطيئة واتَّبعت سبُل الشيطان، فاجتاحت حياته الزَّلات وانتكس فؤاده بعدما كان يحلم بالغزو والجهاد وأن يحيا حياة الصحابة، فما كان جهاده إلا في ميادين الهوى مع الساقطات اللاتي نفذ رصيدهن من الحياء.

طاف بخياله لذة عبادته ودروس العلم وحفظه للمتون وقيام الليل واعتكافه في شهر رمضان وبكاء المصلين خلفه ودعوته الفردية لمن حوله، طُهر حياته في السابق كيف استحالَ إلى وحل، ودَّ لو لفظ حاضره

وتدحرج إلى ماضيه، اشتاق لأيام عذريته الأولى، بكى وتسابقت دموعه تنهمر كفيضان، تحطمت كل السدود في طريقه، لملم شتات روحه واستغفر ربه لعله يقبل توبته. أنهك المرض جهازه المناعي وما تبقى من روحه، دار بخلده معرفته بالكثير ممن يمارسون العلاقات المحرمة ولم يصابوا بهذا المرض، ربما لكونه ربيبَ المساجد ودروس الوعظ فعجَّل الله له العقوبة، فما نزل بلاء إلا بذنب، أو ربما كان بلاؤه بذنب زوجها المخدوع الذي كان صديق عمره أو بذنوب خلواته، فكلما اختلى بمحارم الله انتهكها، أشعل حطب ورعه وتعجَّل هاويته وشرع قبره بيديه. عاد بذهنه الشارد إلى واقعه التعيس.

طوى صفحات عمره بعدما أودى بحياته وقدمها قربانًا لغريزته، صرخات مكبوتة بداخله أسفًا على حاله حرر بعضها ليلًا، والمرضى حوله يضجون في نومهم، كان النوم لا يلُم بعينيه إلا قليلًا، كان بداخله شيء يرفض قطعًا أن ينام. تضرع وابتهل وسرد على قلبه كل آيات الرجاء، وظل يناجي ربه عساه يقبل توبته.

مصحفه بجواره وكثيرًا ما احتوى عبراته وشهقاته وبلل أوراقه بدموع ندمه، ومسبحته لم تفارق كفَّ يده، جلس على حافة الفراش ونكَّس رأسه، فوقف إلى جانبه ووضع يده على حطامه فصادف كتفه.

- ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴿٥٣﴾﴾. «ماعز» كان صحابيًّا يعيش في مجتمع الطهر وارتكب جريمة الزنا، فالعصمة ليست إلا للأنبياء، وكل ابن آدم خطاء، فما من شجرة إلا وهزتها الريح، فاستمسك بغرزك الذي كنت عليه وبادر بالتوبة، والله عز وجل يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾.

رفع حسام رأسه واستجمع قواه وقال بصوت متهدج خرج من حنجرته المحترقة من كثرة تأوهه:

- كنت أرجو أن أعود إلى الله سائرًا على قدمي، فهزمني المرض وعدت منكبًّا على وجهي.

وغطى وجهه بيديه وبكى واشتد نحيبه وأبكى الشيخ معه.

تمت بحمد الله

عماد زعيتر

25 | 12 | 2021

دار الزيات للنشر والتوزيع
صدق حلمك يتحقق